

فَتْحُ الرَّحْمَنِ

في شرح متون أهل الفقه والعرفان

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه أو تسجيله بأي وسيلة أو تصويره دون موافقة كتابية من المؤلف



الكتاب: فتح الرحمن في شرح متون أهل الفقه والعرفان

المؤلف: د. يسري جبر

الطبعة: الأولى / ٢٠٢٢

بلد الطباعة: القاهرة - مصر

رقم الإيداع: ٢٠٢٢ / ١٥٢٦٤

الترقيم الدولي: 5-57-6802-977-978

فَتْحُ الرَّحْمَنِ

في شرح متون أهل الفقه والعرفان

مظاهر الخلافة المحمدية في الأكوان
شرح رسالة التوحيد للشيخ أرسلان الدمشقي رحمته الله
شرح حزب البر لسيد أبي الحسن الشاذلي رحمته الله
شرح مناجاة ابن عطاء الله السكندري رحمته الله
شرح وتأصيل مفهوم الأصول السبعة للشيخ أحمد الله البنجالي رحمه الله
مسألة التوسل وجوازها وأدلتها من الكتاب والسنة
قضية هدم القبور وما فعله السفهاء منا
قيمة الإنسان في الشرع الشريف
موقف العقل والهوى من الحق
البنكنوت والأوراق المالية وعلاقتها بالأجناس الربوية وعقد الصرف

شرحها

الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني الأزهرى

من علماء الأزهر الشريف

تفريع وجمع وترتيب وتحقيق

خلدون أمين الهيتي القادري

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الذي منَّ على الأكوان بالرحمة للعالمين ﷺ، فجعله واسطة الإيجاد، والإمداد، والهداية، والإرشاد، وتنزيل القرآن العظيم. ثم منَّ الله تعالى على بني آدم بالتكريم والتعظيم حين أسجد الملائكة لأبينا آدم ﷺ ببركة حملة للنور المحمدي. وقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وما كان هذا التكريم إلا لكونهم على صورة الحبيب الأعظم ﷺ ومن جنسه، فاصطفى منهم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وجعلهم أبواباً لحضرته ﷺ، وكلهم يستمدون أنوار نبوتهم من نبهم وإمامهم، المخلوق الأكمل سيدنا محمد ﷺ.

ولم ينقطع فضل الله تعالى على هذه الأمة المحمدية التي نالت الخيرية لانتسابها لهذا النبي الأكرم ﷺ حيث قال فيهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فاصطفى منها أولياء وصالحين وعارفين، ممن تعلقوا وتخلقوا وتحققوا بالمصطفى ﷺ، إذ لا وصول ولا معرفة ولا علم إلا من بابه ﷺ لقوله: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي»^(١).

فجعلهم نواباً لحبيبه ﷺ ونواباً لأنبيائه ورسله عليهم السلام، فصاروا نجوماً يهتدى بهم في ظلمات الشك والحيرة والجهل والفتن، وهم مستمدون

(١) البخاري (٧١).

أنوارهم من شمس الحقيقة المحمدية، ويُمدون أحبابهم ومريديهم إلى يوم الدين؛ لأن أنوارهم لا تنقطع ولا تنتهي.

ولأنهم ساروا في طريق الحق ﷻ، ووصلوا إلى حضرته فقد أحاطوا بمخاطر هذا الطريق، وعوائقه، وعواقبه، وأحواله، وتوقفاته، فأرادوا أن يبينوا للسالكين كيفية السير إلى ملك الملوك دون الوقوف مع شيء من الأكوان.

فكتبوا الرسائل والأحزاب والأوراد، وجعلوها مشاعل من النور تنير الطريق لمن وازب عليها، فيكون في حصن حصين، وحرز منيع من النفس والهوى والشيطان والسوى، وما ذلك إلا لأنهم صاروا خبراء في كيفية السلوك إلى ملك الملوك: ﴿الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وما زال المريدون والسالكون مستمرين مواظبين على هذه الأوراد منذ زمانهم إلى زماننا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفتح على كثير ممن وازب عليها مع الصدق والإخلاص.

ثم جاء بعض الناس وأرادوا أن يعرفوا معاني وأسرار وأنوار هذه الرسائل والأوراد، وهل هي مأخوذة من مشكاة الكتاب والسنة؟ وما هي فائدة المواظبة على هذه الأوراد للسالك؟ ولم يتصدر لبيان معاني وأسرار هذه الرسائل والأحزاب إلا القليل؛ لأنه ميدان خطير وبحر عميق مطمطم لا ساحل له، ولا يبحر به إلا من كان من أهله ومتمكنا منه.

حتى من الله علينا في زماننا هذا بالعارف بالله الشيخ يسري جبر الحسيني الحسيني الأزهري حفظه الله ورعاه وبارك في علمه وعمله، وكأنه أتي نواطق جميع الأولياء الذين سبقوه، فتصدّر لهذا الأمر، مؤيدا بالنظر المحمدي

والإمداد الأحمدى، فأخذ يبين المتشابه من كلام الأولياء والصالحين، والذي ظل لسنين طويلة غامض إشاري لا يفهمه العامة.

وبدأ رحلته في بحار المعارف فخاض في بحر الحقيقة المحمدية وبينها للناس مع أدلتها من الكتاب والسنة، وبين الفضائل والفواضل النبوية في القرآن والسنة.

ثم ألقى مرساته في بحار معارف الأولياء والصالحين، وشرع في بيان كلام الأولياء الإشاري الغامض الموجود في رسائلهم وأحزابهم وصلواتهم. ولقد منَّ الله ﷻ عليَّ وبأمر من شيخى حسن الحلاب ﷺ بالاجتماع بسيدى الشيخ يسري جبر الحسنى ﷺ، وأذن لي بتفريغ دروسه ومحاضراته، وتحويلها إلى كتب حتى تكون مرجعا ومصدرا لجميع طلاب الحقيقة، ولكل من أشكل عليه كلام الأولياء في كتبهم وصلواتهم.

وبتوفيق من الله ﷻ أكملنا جمعَ وطبع كتاب «الفتوحات اليسرية في شرح عقائد الأمة المحمدية» والذي يتضمن شروحات الشيخ لثلاثة كتب في العقيدة «عقيدة العوام للشيخ أحمد المرزوقي، والخريدة البهية للشيخ أحمد الدردير وعقيدة العارفين بالله في مقدمة كتاب الرسالة القشيرية»، وكذلك كتاب شرح صلوات الأولياء والصالحين «لطائف ومعاني» ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وهو من أعظم الكتب التي وضع الشيخ يسري جبر الحسنى حفظه الله ورعاه من خلال شرحه لصلوات الأولياء الخصائص والكمالات المحمدية، وفك طلاسم تلك الصلوات بمفاتيح المدد المحمدى المستمر والذي لا يفارقه طرفة عين.

ثم شرعت مستعينا بالله تعالى، وبإذن من سيدي الشيخ يسري جبر الحسني في جمع هذه الرسائل والشروحات المختلفة في كتاب واحد، تسهيلا للسالكين والباحثين عن معرفة علوم الأولياء والصالحين.

فسيجد القارئ الحبيب نفسه محلقة في سماء جنة المعارف، متنقلا بين رياضها من خلال الاطلاع على هذه الرسائل والشروحات العظيمة. والحمد رب العالمين الذي جمعنا بأحبابه من أهل حضرته وأكرمنا بخدمتهم، ونسأله سبحانه أن يرزقنا الأدب في حضرته.

ولقد اشتمل هذا الكتاب على رسائل في الفقه والتوحيد والتصوف، أي في مقامات الدين الثلاث «الإسلام والإيمان والإحسان» وصار ترتيبه على النحو التالي:

- ١- مظاهر الخلافة المحمدية في الأكوان.
- ٢- شرح رسالة التوحيد للشيخ أرسلان الدمشقي رحمته الله.
- ٣- شرح حزب البر لسيدي أبي الحسن الشاذلي رحمته الله.
- ٤- شرح مناجاة ابن عطاء الله السكندري رحمته الله.
- ٥- شرح وتأصيل مفهوم الأصول السبعة للشيخ أحمد الله البنجالى رحمه الله.
- ٦- مسألة التوسل وجوازها وأدلتها من الكتاب والسنة.
- ٧- قضية هدم القبور وما فعله السفهاء منا.
- ٨- قيمة الإنسان في الشرع الشريف.

٩- موقف العقل والهوى من الحق.

١٠- البنكنوت والأوراق المالية وعلاقتها بالأجناس الربوية وعقد الصرف.

وألخصُّ عملي في هذا الكتاب بالنقاط التالية:

- تدقيق بعض الرسائل التي أخذتها من الشيخ مفرغة على وورد.

- تفرغ بعض الرسائل من التسجيلات وكتابتها.

إعادة صياغة أغلب العبارات باللغة العربية الفُصحى، لأنه وكما هو معلوم أنَّ الشيخ في محاضراته يتكلم الفصحى وأحيانا يتكلم باللهجة العامية، وهذا من فقه الشيخ وبلاغته، كي يستطيع أن يوصل المعلومة إلى أذهان السامعين، وخصوصا أنَّ الشيخ يشرح محاضراته في المسجد وفيهم المصلّون من كلا الجنسين، وفيهم الصغير والكبير، والعالم وطالب العلم والعامي الذي لم يتعلم مصطلحات القوم فضلا عن دراسة العلم الشرعي. فقامت بتحويل الكلام إلى اللغة العربية الفصحى وبنفس المعنى الذي يريده الشيخ.

بعد أن أكملت هذه المرحلة بدأت بالتدقيق اللغوي على جميع ما قمت بتفريغه وترتيبه وجمعه.

بعد ذلك قمت بتحقيق الكتاب وتخريج الآيات والأحاديث، مع ترجمة مختصرة للعلماء والأولياء الذين ذكرهم الشيخ في شرحه لهذا الكتاب.

ضمّنت الكتاب سيرة مختصرة لأصحاب الرسائل والأوراد والأحزاب؛ ليتعرف القارئ عن شيء من سير هؤلاء العظماء، وبدأت هذه السير بسيرة مختصرة لشارح هذه الكتب الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني الأزهرى حفظه الله ورعاه، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

ثم عرضت ذلك على الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني لمراجعته وتعديل ما يراه وإضافة ما يوضح المعنى.

وفي الختام:

فأني أشهد الله ﷻ أنني ما أكملت هذا الكتاب المبارك بعلمي وحولي وقوتي، ولكن بتوفيق الله ﷻ وفضله ومنه وكرمه. ومن ثم بمدد النبي ﷺ فهو الوسطة لكل خير.

واقترء بقول الحبيب الأعظم ﷺ القائل « لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ »^(١) فإني أشكر كل من ساعدني في إتمام هذا الكتاب وأخص بالذكر الأستاذ (أشرف عبده) على تنسيق هذا الكتاب وإصداره بهذه الصورة الجميلة، والشيخ الدكتور (أنطاني أوكتايفان مهلان الأندنوسي) المعروف باسم عبد الله الجاوي اليسري الأزهرى لما بذله معي من جهد في مراجعة وتدقيق الكتاب.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر والعرفان والامتنان إلى أخي وشقيق روحي الشيخ (أحمد عبد العزيز الفلوجي القادري) والذي تكفل بطباعة هذا الكتاب.

(١) أبو داود (٤٨١٣).

فنسأله تعالى أن يكون هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون
صدقة جارية لمؤلفه، ولكل من أسهم في جمعه وتحقيقه وتدقيقه وتنسيقه
وطباعته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فما كان فيه من صواب وخير فمن الله ﷻ وبممدد رسوله ﷺ، وما كان
من خطأ وتقصير فمني وأستغفر الله على ذلك.

جمع وتفرغ وترتيب وتحقيق

خلدون أمين الهيبي القادري

العراق - الأنبار - هيت

KHALDOON. alheety@yahoo.com

٠٠٢٠١٠٦٦١٤٤٢٢٢

مقدمة الشارح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق فسوى، وهدانا لصراطه المستقيم، وأشهد أن لا إله إلا الله، خالق كل شيء، ومدبر الأكوان على أبداع ما كان، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الهادي إلى الصراط المستقيم.

أما بعد:

فهذه بحوث ورسائل في قضايا متفرقة مما يشغل فكر المسلم المعاصر، تعالج مفاهيم خاطئة، وتصحيح تصورات باطلة لبعض فتن زماننا، بأسلوب سهل خالٍ من التعقيد، مع أدلتها من القرآن والسنة وما عليه إجماع الفقهاء، ولا شذوذ فيها، ولا أفكار تخالف ما عليه المسلمون من فهم صحيح لأمر الدين، حتى يصير المسلم في زمان الشبهات والأباطيل على بصيرة من أمره، وعلى نور من ربه.

وأسأل الله تعالى أن يتقبلها عنده، نصحاً للمسلمين، وعملاً بحديث

الرسول الكريم ﷺ «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين

وعامتهم».

وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَهَا كُلَّ مَنْ يَطَالَعُهَا، وَيَقْرَأُهَا، وَيَسَاهِمُ فِي نَشْرِهَا
بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

الفقير إلى الله

يسري رشدي السير جبر الحسني

الشافعي الأشعري الشاذلي الأزهري

القاهرة في ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٤٣ هـ

٢٦ يناير ٢٠٢٢ م.

الشيخ يسري رشدي السيد جبر القاهري الحسني

الفقير إلى الله يسري رشدي السيد جبر القاهري مولداً ونشأةً، الحسني نسباً، السني عقيدةً، الشافعي مذهباً الصديقي طريقةً، الشاذلي مشرباً، الأزهري إجازةً والجراح مهنةً.

المولر والنشأة:

ولد في يوم الخميس الموافق ٢٣/٩/١٩٥٤م، الموافق ٢٥ محرم ١٣٧٤ هـ بحي روض الفرج بالقاهرة، وتلقى التعليم بالمدارس الحكومية حتى التحق بكلية الطب جامعة القاهرة وتخرج منها بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف في ديسمبر ١٩٧٨م وحصل على ماجستير الجراحة العامة وجراحة الأوعية الدموية من جامعة القاهرة في نوفمبر ١٩٨٣ ثم حصل على دكتوراه الجراحة العامة من جامعة القاهرة في مايو ١٩٩١م وزمالة جمعية الجراحين الدولية في مايو ١٩٩٢م، والأستاذية في الجراحة في عام ٢٠٠٤م، والتحق بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر ١٩٩٢م وحصل على ليسانس الشريعة الإسلامية بتقدير جيد جداً ١٩٩٦ - ١٩٩٧م.

حفظ القرآن الكريم:

بدأ حفظ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم أثناء دراسته بكلية الطب على يد فضيلة الشيخ عبد الحكيم بن عبد السلام خاطر (عضو لجنة مراجعة القرآن الكريم بالمدينة المنورة رحمه الله) وختمه حفظاً في خلال خمس سنوات من بدء الحفظ للقرآن الكريم وعلى يد الشيخ محمد آدم

وختم على الشيخ محمد بدوي السيد بالسند المتصل إلى حفص الذي قرأ على عاصم ابن أبي النجود عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي وزر بن حبيش - الأول عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، والثاني عن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما - وهم عن النبي صلى الله عليه وسلم سيد الأنام وخاتم المرسلين عن أمين الوحي جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ عن رب العزة سبحانه وتعالى جل جلاله وتقدست أسماؤه، وكذلك تم ختام القرآن بالمدينة المنورة على يد فضيلة الشيخ عبد الحكيم بن عبد السلام خاطر وأجازه برواية حفص عن عاصم، وكان قد أجازه الشيخ عامر عثمان أثناء دراسته بالكلية، وقرأ عليه حزب من سورة البقرة وأجازه بالباقي.

وقد ختم قراءة ورش على الشيخ محمد بدوي، وختم قراءة نافع (قالون وورش) على الشيخ محمد آدم، وكذلك قراءة ابن كثير المكي (قنبل والبزي) من أول المصحف حتى آخر سورة التوبة ثم توفي رحمه الله. كما أجازه الشيخ عبد الفتاح مذكور النمرسي برواية حفص عن عاصم.

العلماء والشايع حفظم ورحمهم الله:

حضر على الشيخ محمد الحافظ التيجاني جزء من موطأ الإمام مالك من سنة ١٩٧٦ حتى سنة ١٩٧٨ ثم انتقل إلى رحمة الله.

حضر على الشيخ محمد نجيب المطيعي صاحب تكملة المجموع بشرح المذهب من سنة ١٩٧٨ حتى سنة ١٩٨١ أجزاء من صحيح البخاري

وحاشيتي قليوبي وعميرة على شرح المنهاج في الفقه الشافعي وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي والأشباه والنظائر للإمام السيوطي وأجازه بأسانيده في الفقه والحديث.

حضر على السيد الحجة العارف بالله سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الحسني كتاب الشمائل للترمذي في رمضان ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م بمسجد رشدي بالدقي بالإسناد المتصل وأخذ منه الطريقة الصديقية الدرقاوية الشاذلية بالقاهرة في نفس العام، وكذلك حضر عليه أجزاء من الموطأ للإمام مالك واللمع في علم الأصول بقراءة فضيلة الشيخ د: علي جمعة (وكان في مرحلة الطلب وقد تولى بعد ذلك منصب مفتي جمهورية مصر العربية وهو الآن عضو بهيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف) واستفاد بصحبته كلما جاء إلى مصر وبتوجيهاته ودعواته وفتاويه ومؤلفاته حتى توفاه الله بطنجة في ٢١ شعبان ١٤١٣ هـ / ١٢ / ٢ / ١٩٩٣ يوم الجمعة ووفقه الله وزاره في ضريحه وزاويته بطنجة.

وتعرف على فضيلة الشيخ أحمد مرسى النقشبندى طريقة من علماء الأزهر الشريف وكان صديقاً لفضيلة الشيخ عبد الله الصديق الغماري وزاره كثيراً واستفاد منه لطائف ومعارف ودعوات فجزاه الله خيراً ورحمه الله.

وأجازه فضيلة الأستاذ الإمام محمد زكي الدين إبراهيم الحسيني نسا الشاذلي طريقة رائد العشيرة المحمدية إجازة عامة بالمناولة والمصافحة بجميع مروياته في الكتب الستة ومسند الشافعي والأم ومسند أبي حنيفة وسنن البيهقي ومعاجم الطبراني الثلاثة وابن عبد البر وعبد الرزاق وموطأ

مالك ومصنفات القاضي عياض والإمام النووي والحاكم والشوكاني والديلمى وابن عابدين وابن قدامة وابن رجب وابن السني والصنعاني والنبهاني والشعراني وابن القيم والسنوسي الكبير والعيدروس وغيرهم وذلك في رمضان ١٤١٨ هـ يناير ١٩٩٨.

وحضر للشيخ إسماعيل صادق العدوي شيخ الجامع الأزهر موطأ الإمام مالك بمسجد سيدي أحمد الدردير بالأزهر وكذا تفسير بعض سور من القرآن الكريم بالمسجد الحسيني بالقاهرة ولازمه عدة سنوات وسافر معه إلى صعيد مصر لزيارة الصالحين وتعلم منه حقائق كثيرة في علم التصوف ولمحات ولفات روحانية عالية ودعا له كثيرا فجزاه الله خيرا ورحمه الله رحمة واسعة.

وحضر على فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة أستاذ أصول الفقه بكلية الدراسات الإسلامية بالأزهر كتاب الورقات للإمام الجويني في علم الأصول، وجمع الجوامع بالأزهر الشريف، وقراءة صحيح البخاري ومسلم بالأسانيد المتصلة، وأجزاء من سنن أبي داود، ومقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني في الفقه الشافعي، ومسائل في الأشباه والنظائر للسيوطي، وشرح الخريدة البهية في علم التوحيد للشيخ أحمد الدردير، وفتح القريب المجيب لابن قاسم الغزي على متن الغاية والتقريب، وحضر مع فضيلته على السيد عبد الله الصديق الغماري في كتب اللمع والشمائل ومناقشة مسائل في أصول الفقه وفروع كثيرة في الفقه وأجازه في كتب الحديث والمسانيد وفقه الشافعية وما زال على علاقة وطيدة به، فجزاه الله خيرا وبارك الله لنا فيه ونفعنا بعلومه في الدارين.

وقرأ النحو وأجزاء من فقه الشافعية على الشيخ كمال العناني أستاذ الفقه بكلية الشريعة أثناء دراسته بكلية الشريعة.

وكذلك قرأ الأحوال الشخصية ومواضيع من فقه المعاملات وعلم المواريث على الشيخ الدكتور نصر فريد واصل مفتي مصر سابقا وذلك أثناء دراسته بكلية الشريعة.

التقى بمكة بالسيد محمد بن علوي المالكي الحسني بمنزله عدة مرات وأجازه في مؤلفاته فجزاه الله خيرا.

وأجازه مسند الإسكندرية الشيخ الفاضل الأستاذ محمد إبراهيم عبد الباعث الحسيني الكتاني بمروياته والتقى به كثيرا وما زال على اتصال به وكان والده رحمه الله من أصدقاء وأحباب السيد عبد الله الصديق الغماري.

حضر شرح الأجرومية في علم النحو وكذلك ألفية ابن مالك وأجزاء من إعراب القرآن الكريم وعلم العروض على فضيلة الأستاذ محمد حسن عثمان أستاذ اللغويات بالأزهر الشريف.

والتقى وسافر مع فضيلة الشيخ الحبيب علي الجفري الحسيني وتبادل معه الإجازات والدعوات وما زال على اتصال به.

وحضر دروس العقيدة مع فضيلة الأستاذ الدكتور محمد ربيع الجوهري الخلوتي أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بالقاهرة والعميد السابق للكلية.

وأجازه الشريف إبراهيم صالح الحسيني التيجاني مفتي نيجيريا بأسانيده وزاره في بيته في القاهرة.

بالإضافة إلى مشايخه وأساتذته بالأزهر الشريف أثناء فترة دراسته بكلية الشريعة، وكثير من علماء اليمن وحضرموت والمدينة ومكة أجازوه.

النواحي العامي والنشاط الرعوى:

شرح كتب الحديث الستة بالأسانيد المتصلة في مسجد الأشراف بالمقطم أسفل سكنه والذي يخطب فيه الجمعة وشرح أجزاء من صحيح البخاري بالأزهر الشريف ومنازل السائرين بمسجد سيدي أحمد الدردير كما شرح سنن الدارمي وكتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان وكتاب دليل الفالحين في شرح رياض الصالحين وكتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي وتفسير القرآن الكريم بالقراءات العشر بهذا المسجد المبارك.

وشرح بالأزهر الشريف الرسالة القشيرية من عام ٢٠٠٣ إلى عام ٢٠٠٧ في أربع سنوات بإشارة من فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة حفظه الله.

وشرح الحكم العطائية وشفاء عياض وموطأ الإمام مالك ورياض الصالحين والتبيان في آداب حملة القرآن والخريدة البهية في شرح أحكام الله العلية والمباحث الأصلية والأذكار وحاشية الشيخ البيجورى والشمائل المحمدية وكتاب كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار وكتاب بهجة النفوس وتحليلها في معرفة ما لها وما عليها وكتاب فتح القريب المجيب ودلائل الخيرات وقصيدة بانة سعاد لكعب بن زهير وبردة المديح للإمام البوصيري والصلاة المشيشية والصلوات اليسرية على خير البرية، ومنفرة ابن النحوي، وحزب البحر وحزب البر لسيدي أبي الحسن الشاذلي.

وقد طبع كتاب أوراد الطريقة الصديقية الدرقاوية الشاذلية وكتاب الحضرة الصديقية والأسانيد الخاصة بهم وكتاب الصلوات اليسرية على خير البرية وشرحها بصلوات الأسماء الحسنى، وشرح كتاب منازل السائرين وطبع باسم التيسير المعين في شرح منازل السائرين، وبحث في الأوراق المالية وعلاقتها بالأجناس الربوية تحت إشراف الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل مفتي الديار المصرية الأسبق.

وشرح السيرة النبوية الشريفة من خلال كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين في ست وسبعين حلقة تلفزيونية لقناة الناس بالتلفزيون المصري. هذا بالإضافة إلى الدروس والندوات لطلاب العلم بالقاهرة سواء للمصريين أو غيرهم مثل الأتراك والإندونيسيين والماليزيين والوافدين بالأزهر الشريف.

وقد سجل حلقات عديدة في الفضائيات منها قناة الناس شرح بها كتاب الشمائل المحمدية للإمام الترمذي كاملاً في برنامج اعرف نبيك، وقناة اقرأ والإرث النبوي وغيرها من الدروس في الفضائيات وعلى يوتيوب.

وقد أكرمه الله وسافر إلى القدس وصلى فيه في رمضان عام ٢٠١٤ م ١٤٣٦ هـ وصلى فيه ليلة ٢٧ رمضان والجمعة واعتكف وختم به القرآن في ليلة ٢٩ رمضان ومدح فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقام حلقة علمية به ليزيل به شبهات الوهابية مع الحضور من أهل المقدس.

كما أكرمه الله بالحج والعمرة مرات عديدة منذ كان طالبا بالكلية قبل التخرج وإلى الآن يسافر للعمرة سنوياً والحج كلما تيسر والحمد لله على فضل الله وما بكم من نعمة فمن الله.

وسافر إلى العراق عام ٢٠٠١ قبل الغزو بدعوة من جمعية الجراحين العراقية وزار أولياء بغداد كالشيخ عبد القادر الجيلاني والجنيد البغدادي والسري السقطي ومعروف الكرخي والإمام أبي حنيفة النعمان وضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالنجف وضريح الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء.

وسافر إلى وهران بالجزائر وزار بعض الأولياء مثل الإمام الغوث أبي مدين والتقى بالسادة البلقايدية وتبادلا الأسانيد وألقى محاضرة عامة عن الإمام الشافعي بالزاوية في رمضان ١٤٣٥ هـ.

وسافر إلى السودان وشرح كتاب الشمائل المحمدية بمسجد سيدي علي الميرغني بأم درمان والتقى بالسادة الأشراف وذلك في نوفمبر ٢٠١١ م. وسافر إلى المغرب وزار سيدي عبد السلام بن مشيش وأولياء المغرب في فاس وطنجة ومراكش وزار الساحة الريسونية والسادة البودشيشية بوجده في المولد النبوي.

كما زار الشيخ دولة أندونيسيا عدة مرات في سنة ٢٠١٧-٢٠١٨-٢٠١٩، وزار الأولياء العشر في أندونيسيا وهم الذين نشروا الإسلام في أندونيسيا، كما زار الشيخ بعض المعاهد الدينية التي بناها تلاميذه ومريديه.

ولقد التقى والحمد لله مع الكثير من الصالحين والأولياء والعلماء وطلاب العلم.

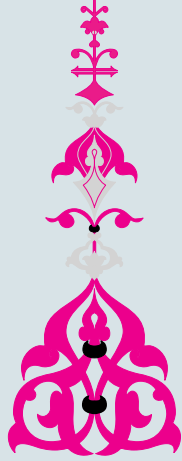
وشرح كتاب بهجة النفوس بكواللمبور بماليزيا بمسجد الشاكرين في ستة أيام في ديسمبر ٢٠١٣ م. وشرح الحكم العطائية وبعض مؤلفات الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري.

وما زال قائما على شرح كتب السنة بعد الفجر يوميا بمسجد الأشراف بالمقطم وكذا خطبة الجمعة أسبوعيا.

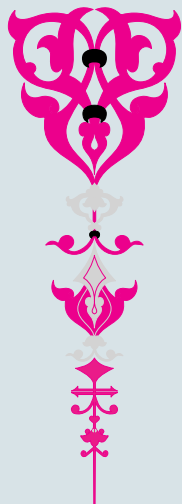
والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

http://www.yosrygabr.com	الموقع الرسمي:
http://twitter.com/Yosry_Gabr	تويتر:
http://www.facebook.com/dr.yosrygabr	صفحة الفيس بوك:
http://www.youtube.com/channel/UCHUZYEvS7utmviL1C3EYrwA/playlists	قناة اليوتيوب:
http://soundcloud.com/dryosrygabr	قناة الساوند كلاود:
E-mail : info@yosrygabr.com	الإيميل:

الموقع الرسمي يوجد به جميع الكتب والدروس السابقة كذلك على قناة الساوند كلاود واليوتيوب والفيس بوك ويتم عليه البث المباشر.



مظاهر الخلافة المحمرية في الألوان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الْبَرْزَخِ بَيْنَ الْأَحْدِيَّةِ وَالْوَحْدِيَّةِ، وَبَيْنَ الْبُطُونِ وَالظُّهُورِ، سِرِّ التَّجَلِّي الْأَعْظَمِ، أَحْمَدُ الْبِدَايَةِ وَالْبَشَارَةِ، مُحَمَّدُ النَّهَايَةِ وَالْهَدَايَةِ، مَحْمُودُ السَّيْرِ وَالسَّرِيرَةِ، مُصْطَفَى الْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عَدَدَ كَمَالِكَ وَكَمَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ.

أما بعد،

فموضوع الخلافة المحمدية في الأكوان غاب عن كثير من المسلمين بالرغم من وضوحه في القرآن الكريم، فسيدنا محمد ﷺ خليفة الله في الأكوان وسيدنا آدم عليه السلام خليفة الله في الأرض، وهناك فرق كبير بين الخلافة الكونية والخلافة الأرضية.

فسيدنا محمد ﷺ كان نبيا قبل خلق آدم عليه السلام، وقبل خلق الملائكة وقبل خلق الأكوان؛ لأنه أول روح خلقها الله ﷻ والتي تمثلت من النور وهو المخلوق الأول.

وخلق الله تعالى هذا النور ليظهر به مكنون علمه، لذلك قال ﷺ في الحديث القدسي: « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق في عرفوني »^(١).

وقال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ

(١) العجلوني في كشف الخفاء (٢٠١٦).

وَلَا غَرْبِيَّةٌ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ [النور: ٣٥]، أي الله ﷻ منور السموات والأرض، ومُظهرها، مثل نوره الذي أظهر به السموات والأرض وهو النور المحمدي الذي خلقه. ﴿كَمْشَكُورٌ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، وهو المُنُور في ذاته، وفي قراءة (دُرِّيٌّ)، وهو المنير لغيره. فنوره الذي خلقه ونسبه إليه تشريفا هو سيدنا محمد ﷺ فهو نور الشريعة ونور الحقيقة يهدي الله لنوره من يشاء.

وهذا النور المعظم تمثلت منه الروحانية المحمدية، وجعلها الله ﷻ واسطة الوسائط، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ [الفرقان: ٥٦]، وهذه الآية هي سر التخصيص والتفضيل للنبي ﷺ في القرآن. فمقامه عالي عند مولاه ولا يشاركه فيه مخلوق، وهو ﷺ رسول من ليس كمثله شيء فكان ﷺ ليس كمثله مخلوق.

والنبي ﷺ أول المخلوقات خلقا وآخرهم بعثا، وهو القائل: «جعلني فاتحاً وخاتماً»^(١)، وقال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، والإشارة في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ والنبي ﷺ يقول: «وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، ويقول ﷺ «جعلني فاتحاً وخاتماً»، ويقول: «أنا أول الناس خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيئُهُمْ إِذَا وَقَدُوا

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٤٨٣٧)، البزار في مسنده (٩٥١٨) بلفظ (وجعلتك فاتحاً وخاتماً)،

وعبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٣)،

(٢) البخاري (٢٤١٢)، الترمذي (٣١٤٨).

وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيُّسُوا لِيَوَاءَ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ»^(١). فإذا جمعنا بين قول الله ﷻ وقول النبي ﷺ سيتبين لنا أنه ﷺ أول الخلق في الأكوان. فكانت الإعادة صورة للبداية. فلما كان ﷺ الأول في الإعادة دل على أنه كان الأول في البداية ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ وكل ذلك من حيث الحقيقة، الروحانية لا من حيث الصورة البشرية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع»^(٢). فله أولية في الخلق وفي البعث وفي الشفاعة وفي دخول الجنة.

والنبي ﷺ أول مجيب لنداء ربنا يوم ألت بربكم، فهو أول من قال بلى، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. لذلك كان هو ﷺ أول المسلمين، بدليل قوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهِ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [١٣٣] [الأنعام: ١٦٣] ، وقوله تعالى في آية أخرى ﴿وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [١٢] [الزمر: ١٢]. فهو الأول حقيقة من حيث الروحانية ومن حيث البدء. ولم يقل أنا من المسلمين إلا في سورة النمل حيث قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٩١] [النمل: ٩١]، لأنه ارتبط بالبلدة، فكان الكلام على لسان الشخص المحمدي لا الروحانية المحمدية فقال من المسلمين.

(١) الترمذي (٣٩٩٦)، والدارمي (٥٠)، وأحمد (٣٩٨).

(٢) أبو داود (٤٦٧٣) والترمذي (٣١٤٨) وابن ماجه (٤٣٠٨) وأحمد (١٠٩٧٢).

وهناك دليل آخر على أوليته ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، لأنه الرحمة الممدة للعوالم كلها، فلا بد أن يسبق العوالم، وبهذه الرحمة ظهرت العوالم.

فدل على أنه الخليفة في جميع العوالم؛ لأنه مرآة لمرادات الله ﷻ ومجلى الكمالات الإلهية الأعظم. والمجلى هو المظهر، والمظهر مخلوق والظاهر قديم.

وهو ﷺ التجلي الأعظم المتمثل بالرحمة، ورحمة الله سبقت غضبه، فظهرت الأكوان من العدم بالرحمة، والنبي ﷺ هو البرزخ بين الأحدية والواحدية؛ لأن الواحدية قابلة للتجلي والنسبة، والأحدية لا تقبل النسبة.

والروحانية المحمدية سارية في سائر الأسماء والصفات ليظهر الله بها الخلق. فما من حي إلا ويستمد شعاع من هذه الروحانية، فهو الممد لذلك يقول ﷺ "من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، إنما أنا قاسم والله يعطي" (١). في جميع الأزمان بدلالة قوله «قاسم» بصيغة اسم الفاعل، حيث لم يجعلها مرتبطة بزمان، أي قاسم في الماضي والحاضر والاستقبال. وقال «والله يعطي» بصيغة المضارع لتجدد العطاء واستمراره من الله تعالى.

فالنبي ﷺ يمد جميع الأكوان، حتى العرش والكرسي واللوح والجنة والنار فما خط القلم في اللوح المحفوظ إلا بمدد هذه الروحانية، وما خلقت الجنة والنار والعرش والكرسي إلا بمدد هذه الروحانية المحمدية. وهذا ما وضحه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (٨) [الضحى: ٨]،

(١) سبق تخريجه.

أي وجدك عائلاً تعول الأكوان لكونك رحمة للعالمين فأغناك لتمد الأكوان، وهناك معنى آخر لكلمة (وجدك) أي بمعنى أوجدك، وجعلك على هيئة صالحة لتمد سائر الأكوان بما يصلحها وما يهديها.

وكما أن النبي ﷺ أول الخلق فهو أول الأنبياء، لقوله: «كنت نبياً وآدم منجلد في طيته»^(١) وفي رواية «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»^(٢). وهذه النبوة مرتبطة بروحه قبل ظهور بشريته، وهناك آية كريمة تشير إلى أنَّ النبوة حصلت للنبي ﷺ في حال روحانيته قبل حال بشريته في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَأَتْلُقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، أي بغير واسطة، والعلم اللدني هو الذي يكون من الله بغير واسطة، والألف واللام في كلمة القرآن للجنس أي تلقيت القرآن كله حال روحانيتك قبل خلق الخلق.

ولما بُعث الشخص المحمدي البشري نزل عليه سيدنا جبريل عليه السلام بالقرآن، لكونه بشراً فيحتاج للواسطة، وليذكره بما انطبع في روحانيته لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]، لذلك لما جاءه قال له: اقرأ، ومعلوم أن من يقول لك اقرأ ولا يحمل كتاباً أي اقرأ مما تحفظ، فقال له: ما أقرأ؟ أو

(١) أخرجه الإمام الترمذي (٣٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: وادم بين الروح والجسد)، وأخرجه الإمام أحمد (٢٠٥٩٦)، والطبراني في الكبير، وابن أبي شيبة (٣٦٥٥٣).

(٢) الإمام أحمد (٢٠٥٩٦) عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الخير قال قلت يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: (وادم بين الروح والجسد) والطبراني في الكبير (٨٣٤/٢٠) وابن أبي شيبة (٣٦٥٥٣) وإيضاً عبد الله بن شقيق بلفظ (كنت نبياً وادم بين الروح والجسد) والترمذي (٣٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: (وادم بين الروح والجسد).

ما أنا بقارئ، فغطه إليه غطا شديدا، ليظهر روحانيته على بشريته، وتضمحل البشرية؛ لأن سيدنا جبريل عليه السلام روح فغطه كي تقوى الروحانية المحمدية وتظهر على البشرية فيتذكر ما طبع في روحانيته، فقرأ القرآن بلسان عربي مبين، كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥: ١٩٣]. وطبيعة الإنسان النسيان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُحِذِّ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]، فلما جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله في صورة الإنسان واحتاج لمن يذكره أرسل ربنا سبحانه وتعالى إليه جبريل عليه السلام ليقوم بهذه المهمة.

وهناك دليل آخر على أن الإنسان ينسى، فكلنا لا نتذكر يوم ألت بربكم، مع العلم أننا قلنا بلى، ولكن لا نذكر هذا في حال دُنيانا على صورة الإنسان.

وبعد أن اعتاد النبي صلى الله عليه وآله نزول الوحي، وقويت الروحانية، وتذكر ما طبع فيها من كلام الله القديم، صار يسابق جبريل عليه السلام، وهذا ما بينه الله عز وجل في القرآن حين قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ تُرْبَعُ أَصْفًا ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨: ١٦]، وكأن الله تعالى غار أن تظهر هذه الحقيقة المحمدية وما حوت أمام الناس، فأمره أن يسترها ولا يسابق جبريل بالوحي؛ لأن كل حسناء لا بد لها من نقاب، والنبي صلى الله عليه وآله لا بد أن تختبئ حقيقته في نقاب بشريته، وقال له في سورة أخرى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

والنبي صلى الله عليه وآله هو واسطة البلاغ، ودل على ذلك في الشهادتين (محمد رسول الله) فكلمة رسول أي واسطة بين الله تعالى وبين خلقه.

ونلخص ما ذكرنا أنفاً في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١:٤]، فقوله (الرحمن) أي رحمته سبقت غضبه، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله (عَلَّمَ الْقُرْآنَ) للروحانية المحمدية قبل خلق الإنسان، لذلك قال له في آية أخرى ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦].

ثم لما صار نبيا عربيا بلغه بلسان عربي مبين، فالقرآن نزل مرتين، مرة إجمالاً حال روحانيته، وأخرى منجماً حال بشريته، تيسيراً على المسلمين في حفظه وتطبيقه، وتثبيتاً لقلبه ﷺ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢].

وهذه الرحمة المحمدية تجلت لما خلق الله تعالى العرش وكتب عليه (لا إله إلا الله)، فاهتز العرش من شدة الجلال، فكتب عليه (محمدٌ رسولُ الله) فثبت من شدة الجمال، وهذه الروحانية المحمدية هي التي تتلقى صعقات الجلال من الله تعالى وتقسمها على الخلق بالرحمة والجمال والهداية والإرشاد.

وهو ﷺ الخليفة في الدنيا، فقد ملكه الله تعالى الدنيا وخزائنها، لذلك قال: «وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا»^(١) ويقول سيدنا أبو هريرة ؓ فأنتم تتشلونها من يديه، فخزائن الأرض في يديه؛ لأنه يعول أهل الأرض من يده.

(١) البخاري (١٣٥٧) ومسلم (١١٩٦)، والنسائي (٣١٠٠)، وابن ماجه (٢٢٤).

ومن مظاهر خلافته ﷺ في الدنيا أن له التصريف في التشريع.

ومن أمثلة التصريف في التشريع أنه ﷺ عَرَضَ عليه أن يكون السواك شرطاً من شروط صحة الصلاة لكنه ﷺ حوله إلى سنة رحمة بأمته لذلك قال: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ»^(١).

وأيضا عندما سأله الصحابة عن الحج أفي كل عام يا رسول الله ؟ قال «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ»^(٢).

ومن أمثلة تصريفه ﷺ في التشريع، أنه أباح لسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام المكوث في المسجد وهو جنب. ومعلوم أن الجنب يحرم عليه المكوث في المسجد، إلا أنه ﷺ أباح هذا الأمر لسيدنا علي عليه السلام كما ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيِّ يَا عَلِيُّ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُجْنِبَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرِي وَغَيْرِكَ»^(٣). وهناك أمثلة أخرى كثيرة في السنة وفي كتب الفقه تدل على تصريفه ﷺ في التشريع كتخليه لبيع السلم، وبيع العرايا وغيرها كثير. فمن يريد الاستزادة فعليه بكتب السنة والفقه.

(١) البخاري (٨٩٥)، ومسلم (٦١٢)، وأبو داود (٤٧)، والترمذي (٢٢)، والنسائي (٧)، وابن ماجه (٣٠٢).

(٢) مسلم (٣٣٢١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ ثُمَّ قَالَ ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ. والنسائي (٢٦٣١)، وابن ماجه (٢٩٩٦).

(٣) الترمذي (٤٠٩٣).

ومن مظاهر التصريف في الدنيا أيضا أنه ﷺ أشار للقمر فانشق كما في حديث الترمذي « عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَأَلَ أَهْلَ مَكَّةَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ فَنَزَلَتْ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ إِلَى قَوْلِهِ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ »^(١).

وأمر النبي ﷺ الشمس فحبست له كما جاء في الحديث الشريف الذي يرويه جابر: « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ الشَّمْسَ فَتَأَخَّرَتْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ »^(٢)، وقد ردها النبي ﷺ لسيدنا علي عليه السلام حتى صلى العصر^(٣).

ومن الأمثلة على تصريفه في الدنيا، أنه دعا الشجرة فلبت النداء وانقادت لأمره، كما ورد في الحديث الذي يرويه مسلم عن جابر من حديث طويل أنه قال « فَذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِي حَاجَتَهُ فَاتَّبَعَتْهُ بِإِدَاوَةٍ مِنْ مَاءٍ فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَرِ شَيْئًا يَسْتَرُّ بِهِ فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الْوَادِي فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا فَقَالَ انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ حَتَّى آتَى الشَّجَرَةَ الْأُخْرَى فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا فَقَالَ انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا »^(١) الترمذي (٣٥٩٧).

(٢) الطبراني في المعجم الأوسط (٤٠٣٩).

(٣) قال العجلوني في كشف الخفاء (١٣٧٩): (رد الشمس على علي رضي الله عنه) قال الإمام أحمد لا أصل له وتبعه ابن الجوزي فأورده في الموضوعات، ولكن صححه الطحاوي وصاحب الشفاء، وأخرجه ابن مندة وابن شاهين عن أسماء بنت عميس، وابن مردويه عن أبي هريرة، وروى الطبراني في الكبير والأوسط بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار.

لَمْ يَبْنِيهِمَا يَعْنِي جَمَعَهُمَا فَقَالَ التَّيْمَا عَلَى بِإِذْنِ اللَّهِ فَالتَّامَّتَا قَالَ جَابِرٌ فَخَرَجْتُ أَحْضِرُ مَخَافَةً أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُرْبِي فَيَتَبَعَدَ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ فَيَتَبَعَدَ فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقْبِلًا وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدْ افْتَرَقَتَا فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ^(١).

ومن أقوى الأدلة على الخلافة في الدنيا أن الله سبحانه يخلق على لسان حبيبه ﷺ إذا ما قصد شيئاً وأراد، كما جاء في الحديث الشريف « أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِطَعَامٍ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ فَقَالَ نَاوِلْنِي الذَّرَاعَ فَنُؤُولَ ذِرَاعًا فَأَكْلَهَا قَالَ يَحْيَى لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا هَكَذَا ثُمَّ قَالَ نَاوِلْنِي الذَّرَاعَ فَنُؤُولَ ذِرَاعًا فَأَكْلَهَا ثُمَّ قَالَ نَاوِلْنِي الذَّرَاعَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا هُمَا ذِرَاعَانِ فَقَالَ وَأَيُّكَ لَوْ سَكَتَ مَا زِلْتُ أَتَاوُلُ مِنْهَا ذِرَاعًا مَا دَعَوْتُ بِهِ^(٢)، وهذا دليل على أن الصحابي لو لم يتكلم لخلق الله سبحانه وتعالى الذراع تلو الذراع ما دام النبي ﷺ يطلب ذلك. والأدلة على تصرفه ﷺ في الدنيا كثيرة جدا في كتب السنة والسيرة لمن أراد الاستزادة.

وهو ﷺ الخليفة في البرزخ، وخزائن عالم البرزخ في روحانيته وفي يده؛ لأن عالم البرزخ يحتاج للمدد، والموت لا يطرأ إلا على الجسد، والروح باقية وتحتاج إلى الإمداد، وهو الإنسان الوحيد الذي يُسأل عنه في سؤال

(١) مسلم (٧٧٠٥).

(٢) أحمد (٥١٨٤).

القبر، ماذا تقول في هذا الرجل؛ لأنه الخليفة في عالم البرزخ وهو عالم القبور قبل البعث والنشور.

والخلافة المحمدية تتجلى أيضا يوم القيامة، حين يُبعث الخلائق للحساب فيذهبون إلى أبينا آدم عليه السلام ثم إلى أبينا نوح عليه السلام ثم إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام ثم إلى سيدنا موسى عليه السلام ثم سيدنا عيسى عليه السلام وكل منهم يقول: نفسي نفسي لست لها لست لها، فيدلهم سيدنا عيسى عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فيقول أنا لها أنا لها، فهو الخليفة بحق. ولا يبدأ الحساب إلا به ﷺ وهو القائل «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أُيسُوا لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ»^(١).

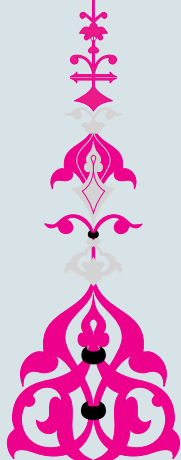
وهو ﷺ الخليفة في الجنة، بل هو الذي ملكه الله تعالى الجنة لذلك يقول: «مفتاح الجنة في يدي لا تفتح إلا بي ولي» ومن ملك المفتاح ملك التصرف والعطاء لذلك قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٢)، والضمان فرع الملك، ولا ضمان فيما لا تملك، وما دام صرح ﷺ بضمانه للجنة لمن يتصف بهذه الصفات فهذا دليل على أن الله تعالى ملكه الجنة، وكذلك قوله ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»^(٣) وكلمة زعيم بمعنى ضامن،

(١) الترمذي (٣٦١٠).

(٢) البخاري ٦٥٦٢.

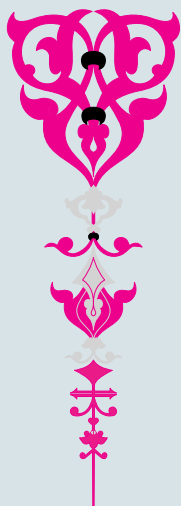
(٣) أبو داود (٤٨٠٢).

والتصرف والضمان لا يكون إلا من المالك فتراه يتصرف في الجنة فلا تفتح إلا به. وما دام يملك الجنة إذن هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخليفة في الجنة. ومما مضى تبين لنا بصورة واضحة جلية أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخليفة بحق في الأكوان.



شرح رسالة التوحيد

للشيخ أرسلان الرمشتي رحمته الله



ترجمة الشيخ أرسلان الرمشقي

هو الشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبري،
الدمشقي التركماني الشافعي.

ولد الشيخ رسلان سنة ٤٧٠ هـ واسمه الصحيح أرسلان بن يعقوب بن
عبد الرحمن، عاصر الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله وعاش نيفاً وثمانين عاماً،
ولُقّب بالدمشقي بعد أن انتقل إليها.

وكلمة أرسلان تركية الأصل معناها «الأسد».

كان أباه من المجاهدين، وكان الشيخ أرسلان من الذين نذروا أنفسهم
للجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام وترسيخه في الأرض. وصحب شيخه أبا
عامر المؤدّب، واتخذ حرفة له نَشَاراً للخشب، وظهرت على شيخنا أرسلان
علامات الصلاح والتقوى، إذ كان يقسّم الأجرة التي يأخذها من عمله أثلاثاً:
ثلث ينفقه على نفسه وثلث يتصدّق به وثلث لكسوته.

بقي الشيخ أرسلان عشرين سنة ينشر الخشب بمنشاره يتعبّد بالليل
ويعمل بالنهار، حتى كان يوم وهو ينشر بالمنشار إذا بالمنشار يخاطب الشيخ
رسلان ويقول له: يا أرسلان ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فتوقف سيدنا
الشيخ رسلان عن النشر وكذب أذنيه، ثم عاد للعمل ثانية، وإذا بالمنشار
يخاطبه ثانية: يا أرسلان ما لهذا خُلِقْتَ ولا بهذا أُمِرْتَ.

ويتلفّت حوله فلا يجد أحداً، فيظن أنه خاطر خطر له، فيعود للعمل فإذا
بالمنشار يخاطبه ثالثة: وينكسر المنشار ثلاث قطع. وهنا ترك سيدنا الشيخ
أرسلان العمل، وجلس في هذا المسجد يتعبّد ويخلو إلى ربه عزّ وجلّ.

أما ساعات العبادة كان يقضيها في المسجد المعروف الآن بمقامه.

وقيل: أن للمسجد بابين على أحدهما سقاية وعلى الآخر قناة، لا يعرف الباني لهما، الشيخ أرسلان يجلس بالجانب الشرقي منه للعبادة والنوم والتدريس، والشيخ أبو البيان (محمد بن محفوظ القرشي الذي كان يُعرف بابن الحوراني) أسس رباط مماثل للذي بناه الشيخ أرسلان وكان يقيم على الجهة الغربية، وعُرف رباطه باسم الرباط البياني. وقد توفي بعد الشيخ أرسلان بعشر سنوات. وإذا تساءلنا عن سر اختياره لهذه المنطقة، وقد عرفنا أنه ممن أُختير أيضاً للدفاع عن دمشق، ذكرت بعض المصادر أنه اختار ذلك المكان ليقوم ثغراً أو «رباطاً» في مكان الخيمة التي نصبها سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه خارج السور أيام الفتح العربي.

وفاته:

انتقل الشيخ أرسلان إلى الرفيق الأعلى في عام ٥٤١هـ، وذلك خلافاً لما ورد في بعض التواريخ، من أنه توفي سنة ٦٩٩هـ، وأنه أسهم في الحروب ضد التتار. رحم الله الشيخ «أرسلان»، ورحم الله السلف الصالح، الذين جعلوا القرآن الكريم والسنة الشريفة نبراساً قوياً لحياتهم. وفي الختام فلتقرأ هذه الأبيات التي امتدح فيها الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله، «الشيخ أرسلان» في مقدمة شرحه للرسالة «التوحيد».

عن أرسلان جاءت الحقائق	حيث اهتدى رسالة للخالق
وسقانا بكأسه منه صرفاً	فسكرنا بسائع الشرب رائق
كل حرف منها يشير لمعنى	سائق نحو ذروة المجد شائق
كلمات قد ازدهرت بمعان	كل من رامها لقطع العلائق

رسالة التوحيد

للسيخ أرسلاڤ الرمشتي (ت. ٥٤١ هـ)

١- كُلُّكَ شِرْكٌ خَفِيٌّ. وَلَا يَبِينُ لَكَ تَوْحِيدُكَ إِلَّا إِذَا خَرَجْتَ عَنْكَ؛ فَكُلُّهَا أَخْلَصَتْ يَكْشِفُ لَكَ أَنَّهُ هُوَ لَا أَنْتَ فَتَسْتَغْفِرُ مِنْكَ. وَكُلُّهَا وَحَدَّتْ بِأَنَّ لَكَ الشِّرْكَ، فَتَجِدُّ لَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَوَقْتٍ تَوْحِيدًا وَإِيمَانًا. وَكُلُّهَا خَرَجَتْ عَنْهُمْ زَادَ إِيمَانُكَ، وَكُلُّهَا خَرَجَتْ عَنْكَ قَوَى يَقِينِكَ.

٢- يَا أُسِيرَ الشَّهَوَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، يَا أُسِيرَ الْمَقَامَاتِ وَالْمَكَاشَفَاتِ، أَنْتَ مَغْرُورٌ، أَنْتَ مُشْتَغَلٌ بِكَ عَنْهُ، أَيْنَ الْإِشْتَغَالُ بِهِ عَنْكَ.

٣- وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ حَاضِرٌ نَاطِرٌ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، فَإِذَا كُنْتَ مَعَهُ حَبَبَكَ عَنْكَ، وَإِذَا كُنْتَ مَعَكَ اسْتَعْبَدَكَ لَهُ.

٤- الْإِيمَانُ خُرُوجُكَ عَنْهُمْ، وَالْيَقِينُ خُرُوجُكَ عَنْكَ. إِذَا زَادَ إِيمَانُكَ نُقِلْتَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَإِذَا زَادَ يَقِينُكَ نُقِلْتَ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ.

٥- الشَّرِيعَةُ جُعِلَتْ لَكَ، حَتَّى تَطْلُبَهُ مِنْهُ بِهِ -تَعَالَى- لَكَ. وَالْحَقِيقَةُ لَهُ حَتَّى تَطْلُبَهَا بِهِ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، حَيْثُ لَا حِينَ وَلَا أَيْنَ؛ فَالشَّرِيعَةُ حُدُودٌ وَجِهَاتٌ، وَالْحَقِيقَةُ لَا حَدَّ وَلَا جِهَةَ.

٦- الْقَائِمُ بِالشَّرِيعَةِ فَقَطْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالمُجَاهِدَةِ، وَالْقَائِمُ بِالحَقِيقَةِ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالمِنَّةِ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْمُجَاهِدَةِ وَالمِنَّةِ. الْقَائِمُ مَعَ الْمُجَاهِدَةِ مَوْجُودٌ، وَالْقَائِمُ مَعَ المِنَّةِ مَفْقُودٌ.

٧- الْأَعْمَالُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالشَّرْعِ الشَّرِيفِ، وَالتَّوَكُّلُ مُتَعَلِّقٌ بِالإِيمَانِ، وَالتَّوْحِيدُ مُتَعَلِّقٌ بِالكَشْفِ الصَّحِيحِ.

٨- النَّاسُ تَائِهُونَ عَنِ الْحَقِّ بِالعَقْلِ، وَتَائِهُونَ عَنِ الآخِرَةِ بِالهَوَى، فَتَيَّ طَلَبَتِ الْحَقَّ بِالعَقْلِ فَقَدْ ضَلَّتْ، وَمَتَى طَلَبَتِ الآخِرَةَ بِالهَوَى فَقَدْ ضَلَّتْ.

٩- الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، وَالْعَارِفُ يَنْظُرُ بِهِ إِلَيْهِ.

١٠- مَا دُمْتَ أَنْتَ مَعَكَ أَمْرُنَاكَ، فَإِذَا فَنَيْتَ عَنْكَ تَوَلَّيْنَاكَ، وَمَا تَوَلَّاهُمْ إِلَّا بَعْدَ فَنَائِهِمْ.

١١- مَا دُمْتَ أَنْتَ فَأَنْتَ مُرِيدٌ، وَإِذَا أَفْنَاكَ عَنْكَ فَأَنْتَ مُرَادٌ.

١٢- الْيَقِينُ الْأَدْوَمُ فِي غَيْبَتِكَ عَنْكَ، وَوُجُودُكَ بِهِ، فَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَكُونُ بِأَمْرِهِ وَبَيْنَ مَنْ يَكُونُ بِهِ.

١٣- إِنْ كُنْتَ قَائِمًا بِأَمْرِهِ خَضَعْتَ لِكَ الْأَسْبَابِ، وَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا بِهِ تَضَعُضَعْتَ لِكَ الْأَكْوَانِ.

١٤- أَوَّلُ الْمَقَامَاتِ الصَّبْرُ عَلَى مُرَادِهِ، وَأَوْسَطُهَا الرِّضَا بِمُرَادِهِ، وَأَخْرُهَا أَنْ تَكُونَ مُحِبًّا لِمُرَادِهِ.

١٥- الْعِلْمُ طَرِيقُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ طَرِيقُ الْعِلْمِ.

١٦- وَالْعِلْمُ طَرِيقُ الْمَعْرِفَةِ، وَالْمَعْرِفَةُ طَرِيقُ الْكَشْفِ، وَالْكَشْفُ طَرِيقُ الْفَنَاءِ.

١٧- مَا صَلَحَتْ لَنَا وَفِيكَ بَقِيَّةٌ لِسَوَانَا، فَإِذَا حَوَّلْتَ السَّوَى أَفْنَيْنَاكَ عَنْكَ، فَصَلَحَتْ لَنَا فَأَوْدَعْنَاكَ سِرَّنَا.

١٨- إِذَا لَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ حَرَكَةٌ لِنَفْسِكَ كُلِّ يَقِينِكَ، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَكَ وَجُودٌ عِنْدَكَ كُلِّ تَوْحِيدِكَ.

١٩- أَهْلُ الْبَاطِنِ مَعَ الْيَقِينِ، وَأَهْلُ الظَّاهِرِ مَعَ الْإِيمَانِ، فَمَتَى تَحَرَّكَ قَلْبُ صَاحِبِ الْيَقِينِ نَقَصَ يَقِينُهُ، وَمَتَى لَمْ يَخْطُرْ لَهُ خَاطِرٌ كُلِّ يَقِينِهِ، وَمَتَى تَحَرَّكَ قَلْبُ صَاحِبِ الْإِيمَانِ بِغَيْرِ الْأَمْرِ نَقَصَ إِيْمَانُهُ، وَمَتَى تَحَرَّكَ بِالْأَمْرِ كُلِّ إِيْمَانُهُ.

٢٠- مَعْصِيَةُ أَهْلِ الْيَقِينِ كُفْرٌ، وَمَعْصِيَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ نَقْصٌ.

٢١- الْمُتَّقِيُّ مُجْتَهِدٌ، وَالْمُحِبُّ مُتَكَلِّمٌ، وَالْعَارِفُ سَاكِنٌ، وَالْمَوْجُودُ

مُفْقُودٌ.

٢٢- لَا سَكُونٌ لِمَتَّقٍ، وَلَا عِزٌّ لِمُحِبٍّ، وَلَا حَرَكَةٌ لِعَارِفٍ، وَلَا وَجُودٌ لِمَفْقُودٍ.

٢٣- مَا تَحْصُلُ الْمَحَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ الْيَقِينِ.

٢٤- الْمُحِبُّ الصَّادِقُ قَدْ خَلَا قَلْبُهُ مِمَّا سِوَاهُ، وَمَا دَامَ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ مَحَبَّةٍ لِسِوَاهُ فَهُوَ نَاقِصُ الْمَحَبَّةِ.

٢٥- مَنْ تَلَذَّذَ بِالْبَلَاءِ فَهُوَ مُوجِدٌ، وَمَنْ تَلَذَّذَ بِالنِّعَةِ فَهُوَ مُوجِدٌ، فَإِذَا أَفْنَاهُم عَنْهُمْ، ذَهَبَ التَّلَذُّذُ بِالْبَلَاءِ وَالنِّعَةِ.

٢٦- الْمُحِبُّ أَنْفَاسَهُ حِكْمَةً وَالْمُحِبُّوبُ أَنْفَاسَهُ قُدْرَةً.

٢٧- الْعِبَادَاتُ لِلْمُعَاوَضَاتِ، وَالْمَحَبَّةُ لِلْقُرْبَاتِ.

٢٨- أُعِدَّتْ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ: لَمَّا أَرَادُونِي لِي أُعْطِيَهُمْ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ.

٢٩- إِذَا أَفْنَاكَ عَنْ هَوَاكَ بِالْحِكْمَةِ، وَعَنْ إِرَادَتِكَ بِالْعِلْمِ، صِرْتَ عَبْدًا صَرَفًا لَا هَوَى لَكَ وَلَا إِرَادَةَ.

٣٠- فَيَنْتَظِرُ يُكْشِفُ لَكَ عَنْ نَفْسِكَ، فَتَضْمَحِلُّ الْعِبُودِيَّةُ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ، فَيَفْنَى الْعَبْدُ وَيَبْقَى الرَّبُّ تَعَالَى.

٣١- الشَّرِيعَةُ كُلُّهَا قَبْضٌ، وَالْعِلْمُ كُلُّهُ بَسْطٌ، الْمَعْرِفَةُ كُلُّهَا دَلَالٌ.

٣٢- طَرِيقَتُنَا كُلُّهَا مَحَبَّةٌ لَا عَمَلٌ، وَفَنَاءٌ لَا بَقَاءٌ.

٣٣- إِذَا دَخَلْتَ فِي الْعَمَلِ كُنْتَ لَكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ فِي الْمَحَبَّةِ كُنْتَ لَهُ.

٣٤- الْعَابِدُ رَأَى لِعِبَادَتِهِ، وَالْمُحِبُّ رَأَى لِمَحَبَّتِهِ.

٣٥- إِذَا عَرَفْتَهُ كَانَتْ أَنْفَاسُكَ بِهِ وَحَرَكَاتُكَ لَهُ، وَإِذَا جَهِلْتَهُ كَانَتْ حَرَكَاتُكَ لَكَ.

٣٦- الْعَابِدُ مَا لَهُ سُكُونٌ، وَالزَّاهِدُ مَا لَهُ رَغْبَةٌ، وَالصَّدِيقُ مَا لَهُ ارْتِكَانٌ، وَالْعَارِفُ مَا لَهُ حَوْلٌ وَلَا لَهُ قُوَّةٌ وَلَا اخْتِيَارٌ وَلَا إِرَادَةٌ وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا سُكُونٌ.

٣٧- الْمَوْجُودُ مَا لَهُ وَجُودٌ.

٣٨- إِذَا اسْتَأْنَسْتَ بِهِ اسْتَوْحَشْتَ مِنْكَ.

٣٩- مَنْ اشْتَغَلَ بِنَا لَهُ أَعْمِينَاهُ، وَمَنْ اشْتَغَلَ بِنَا لَنَا بَصَرِنَاهُ.

٤٠- إِذَا زَالَ هَوَاكَ يُكْشَفُ لَكَ عَنْ بَابِ الْحَقِيقَةِ فَتَفْنَى إِرَادَتُكَ

فِيُكْشَفُ لَكَ عَنِ الْوَاحِدِيَّةِ، فَتَحَقَّقْتَ بِهِ أَنَّهُ هُوَ بَلَا أَنْتَ مَعَهُ.

٤١- إِنْ سَلَّمْتَ إِلَيْهِ قَرَبَكَ، وَإِنْ نَازَعْتَهُ أَبْعَدَكَ.

٤٢- إِنْ تَقَرَّبْتَ إِلَيْهِ بِقُرْبِكَ، وَإِنْ تَقَرَّبْتَ إِلَيْهِ بِكَ أَبْعَدَكَ.

٤٣- إِنْ طَلَبْتَهُ لَكَ كَلَّفَكَ، وَإِنْ طَلَبْتَهُ لَهُ دَلَّلَكَ.

٤٤- قُرْبُكَ خُرُوجُكَ عَنْكَ، وَبَعْدُكَ وَقُوفُكَ مَعَكَ.

٤٥- إِنْ جِئْتَ بِمَا أَنْتَ قَبْلَكَ، وَإِنْ جِئْتَ بِكَ حُجِبَكَ.

٤٦- الْعَامِلُ لَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْ رُؤْيَا عَمَلِهِ، فَكُنْ مِنْ قَبِيلِ الْمُنَّةِ، لَا تَكُنْ مِنْ قَبِيلِ الْعَمَلِ.

٤٧- إِنْ عَرَفْتَهُ سَكَنْتَ، وَإِنْ جَهِلْتَهُ تَحَرَّجْتَ، الْمُرَادُ أَنْ يَكُونَ وَلَا تَكُونَ.

٤٨- الْعَوَامُ أَعْمَالُهُمْ مَتَهَمَاتٌ، وَالْخَوَاصُّ أَعْمَالُهُمْ قُرْبَاتٌ، وَخَوَاصُّ الْخَوَاصِّ أَعْمَالُهُمْ دَرَجَاتٌ.

٤٩- كُلَّمَا اجْتَنَبْتَ هَوَاكَ قَوِيَ إِيمَانُكَ، وَكُلَّمَا اجْتَنَبْتَ ذَاتَكَ قَوِيَ تَوْحِيدُكَ.

٥٠- ائْتَلَقُ حِجَابٌ وَأَنْتَ حِجَابٌ، وَالْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، وَمُحْتَجِبٌ عَنْكَ بِكَ، وَأَنْتَ مُحْجُوبٌ عَنْكَ بِهِمْ، فَانْفَصِلْ عَنْكَ بِهِمْ، فَانْفَصِلْ عَنْكَ تَشْهَدُهُ، وَالسَّلَامُ.

شرح رسالة الشيخ أرسلان الرمشقي رحمته الله

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وبارك
وعظم وعلى آله وصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فقد أرسل إليّ أخ فاضل من كندا لم أقابله من قبل، ويبدو أنه عرفني من
خلال متابعتة لبعض الدروس لنا على النت واسمه (لؤي حباب) وهو رفاعي
حسيني، وأصوله من الشام ويسكن في كندا ليكمل اختصاصه في الطب،
وطلب مني في رسالته أن أشرح له «رسالة التوحيد» للعارف بالله الشيخ
أرسلان الدمشقي، وهي رسالة مشهورة معلومة اهتم العلماء بشرحها على
مر العصور، فارتأيت أن أشرحها للمسلمين عامة لتعم الفائدة منها عوضاً أن
أكتبها مشروحة في رسالة وأبعثها للأستاذ لؤي حباب.

ومصنف هذه الرسالة العظيمة الشيخ أرسلان الدمشقي أصله تركماني،
ولد حوالي سنة ٤٧٠ هـ، وتوفي حوالي سنة ٥٤١ هـ أيام الحروب الصليبية،
فولد في قرية صغيرة بجوار الرقة بسوريا وأجداده من التركمان، ووالده كان
جندياً يحارب الصليبيين وعمل في النجارة وورث مهنة النجارة عن أبيه، وكان

الشيخ متفرغاً للعبادة والعلم والذكر، وكان يربي أبناءه حوله، ويحثهم على جهاد الصليبين، فكانوا يقومون بالليل عنده يصلون وبالنهار يقاتلون، وكان يقيم بجوار القبة التي نصبها سيدنا خالد بن الوليد^(١) على مشارف دمشق عند حصار دمشق ويسمونها «قبة خالد» والآن بنوا مكانها مسجداً، فأقام هناك إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى، ودفن بجوار قبة سيدنا خالد بن الوليد^(٢)، وكتب مؤلفات كثيرة، لكن أهمها «رسالة التوحيد» وهي على نفس نمط «منازل السائرين» للشيخ الهروي^(٣)، وعلى نمط «الحكم العطائية» لأحمد بن عطاء الله السكندري^(٤)، فالحقيقة واحدة، وكل واحد من الأولياء يعبر عنها

(١) هو سيدنا خالد بن الوليد بن المغيرة، أبو سليمان، المخزومي القرشي، الصحابي، سيف الله الفاتح الكبير، كان من أشرف قريش في الجاهلية، وأسلم قبل فتح مكة سنة ٧هـ فسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه الخيل. ولما ولي أبو بكر رضي الله عنه، وجهه لقتال مسيلمة ومن ارتد من أعراب نجد، ثم سيره إلى العراق ففتح الحيرة وجانبها عظيمًا منه، ثم أمره بالمسير إلى الشام مدداً للمسلمين باليرموك. وكان له أثره في النصر ولما ولي عمر رضي الله عنه عزله عن قيادة الجيوش بالشام وولى أبا عبيدة بن الجراح، فلم يثن ذلك من عزمه، واستمر يقاتل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تم لهما الفتح سنة ١٤هـ. قال أبو بكر: عجزت النساء أن يلدن مثل خالد. روى له المحدثون ١٨ حديثاً. [الإصابة ١ / ٤١٣، والاستيعاب ٢ / ٤٢٧، والأعلام ٢ / ٣٤١].

(٢) الإمام، القدوة، الحافظ الكبير، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، مصنف كتاب (دَمَّ الْكَلَام)، وشيخ خراسان من ذرية صاحب النبی - صلى الله عليه وسلم - أبي أيوب الأنصاري. مولده: في سنة ست وتسعين وثلاث مائة. صاحب كتاب «الأربعين»، وكتاب «منازل السائرين»، وكتاب «دَمَّ الْكَلَام وأهله». المتوفى سنة ٤٨١ هـ.

(٣) الامام تاج الدين احمد ابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة (٧٠٩هـ) كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه قال الذهبي: كان ابن عطاء يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفس ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم فكثر أتباعه صاحب أبو العباس المرسي رضي الله عنه وكان وارث حاله. قال عنه الشيخ أبو العباس المرسي: والله لا يموت هذا = الشاب حتى يكون داعياً إلى الله. له مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب (الحكم العطائية) ولأهميته شرح هذا الكتاب و

بلسان حاله، والشيخ ابن رسلان كان معاصراً للإمام الهروي صاحب كتاب منازل السائرين والذي شرحناه بفضل الله تعالى وطبع تحت عنوان «التيسير المعين في شرح منازل السائرين».

و«رسالة التوحيد» شرحها الشيخ زكريا الأنصاري المصري شيخ الإسلام المدفون بجوار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٩١٥ هجرية، وعَمَّرَ حتى جاوز المائة حتى إن أحفاده صاروا مشايخ كبار في العلم في حياته، إلى أن توفاه الله وهو في كمال عافيته الذهنية والبدنية، فلم يُصَلِّ قاعداً ولم يترك صيام رمضان أبداً طول حياته، حفظ الله عليه عافيته إلى أن توفاه الله وجاوز المائة، وكان شافعي المذهب، وكان شيخاً للجامع الأزهر، وكان صوفيًا وشرح «الرسالة القشيرية» وشرح «البردة المباركة» للإمام البوصيري بجانب شروحه في المذهب الشافعي والأصول وغيرها، وشرح «رسالة التوحيد» للشيخ أرسلان الدمشقي في كتاب سماه «فتح الرحمن بشرح رسالة الولي أرسلان». وشرحها أيضا علي بن صدقة الشافعي المتوفى سنة ٩٧٥ هجرية بعنوان «نهاية البيان في شرح رسالة أرسلان» وشرحها أيضا علي الحموي المتوفى سنة ٩٣٥ هجرية بعنوان «شرح الرسلانية»، شرحها أيضا الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ هجرية في «خمرة الحان ورنه الألحان في

وتم تحقيق الشرح المبارك عشرات بل مئات المرات وللشيخ يسري جبر الحسني أكثر من شرح على الحكم وموجود في على اليوتيوب ونحن نعمل الآن على جمع وتفرغ وترتيب المحاضرات كي تكون في كتاب أن شاء الله . يتكون كتاب الحكم من (٢٦٤ حكمة) تبدأ بالحكمة الأولى (من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل) وينتهي بالحكمة أربع وستون بعد المائتين (الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان وفكرة شهود وعيان فالأولى لا ريب الاعتبار والثانية لا ريب الشهود والاستبصار).

شرح رسالة أرسلان» وبلغ شروحها حوالي اثنا عشر شرحاً، والمطبوع منها قليل، وإن شاء الله سوف نشرحها دون اطلاق على شروح غيرنا، حتى نشرحها كما نفهمها من غير تأثر بشروح غيرنا وأنا أحب هذه الطريقة في شرح كتب السلوك، حتى أشرحها كما أفهمها كي لا يكون هناك تكرار وكل هذا بمدد مشايخنا جزاهم الله عنا خيراً والكل يستمد من النبي ﷺ وهو منبع الأسرار وترياق الأغيار.

يقول سيري العارف بالله أرسلان الرمشتي قرس الله سره:

١- كُلُّكَ شِرْكٌ خَفِيٌّ. وَلَا يَبِينُ لَكَ تَوْحِيدُكَ إِلَّا إِذَا خَرَجْتَ عَنْكَ؛ فُكُلُهَا أَخْلَصْتَ يُكْشَفُ لَكَ أَنَّهُ هُوَ لَا أَنْتَ فَتَسْتَغْفِرُ مِنْكَ. وَكُلُّهَا وَحَدَّتْ بَانَ لَكَ الشِّرْكُ، فَتَجَدُّ لَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَوَقْتٍ تَوْحِيدًا وَإِيمَانًا. وَكُلُّهَا خَرَجْتَ عَنْهُمْ زَادَ إِيْمَانُكَ، وَكُلُّهَا خَرَجْتَ عَنْكَ قَوِيَ يَرْيُنُكَ.

يقول المصنف: (كُلُّكَ شِرْكٌ خَفِيٌّ وَلَا يَدِينُ لَكَ تَوْحِيدُكَ إِلَّا إِنْ خَرَجْتَ عَنْكَ).

كلك أيها الإنسان شرك خفي؛ لأنك ترى أن لك حولاً وقوة وإرادة، وأنت موجود مع الله ﷻ، فكأنك اعتقدت أن مع الله شيئاً فأين التوحيد إذن؟! والتوحيد: أن تعتقد أنه ليس مع الله ﷻ شيء، فحتى لو قلت بلسانك: لا إله إلا الله، وأنت ترى نفسك وقوتك وحولك وتشعر بذاتك، فهذا هو عين الشرك، وإن كان خفياً لا تدركه، تظن أن لك عملاً والعامل في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، وتظن أن لك ذكراً والذاكر هو الله سبحانه وتعالى، وتظن

أن لك إرادة والمريد هو الله سبحانه وتعالى، وتظن أن لك عبادةً والمُقَوِّي عليها هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول (كُلُّكَ شِرْكٌ خَفِيٌّ) أي بالنظر إلى حولك وقوتك واغترارك بنفسك كما قال الكافر ^(١): ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

فأنت تقول ذلك بلسان حالك لا بلسان مقالك: (أنا فعلتُ، وأنا اجتهدتُ، وأنا فهمتُ، وأنا قلتُ، وأنا وأنا وأنا) من أنت؟؟!! فلا يقول أنا إلا الله سبحانه وتعالى، لأنك لست موجوداً مع الله حتى تقول أنا، بل أنت موجود به، فلا أنا لك أصلاً. والذي يقول أنا بحق هو القائم على كل شيء ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] إذن (كلك شرك خفي) وما زلت تشعر بنفسك وهذه إثنيية، فأين التوحيد؟!

ثم قال المصنف: (وَلَا يَبِينُ لَكَ تَوْحِيدُكَ إِلَّا إِنْ خَرَجْتَ عَنْكَ) أي بالتبري من حولك وقوتك، وأن تعلم أنه لا وجود لك مع الله ﷻ، بل وجودك به لا معه. فإذا علمت ذلك بدأت بنفسك وانتهيت به ﷻ، بدأت لله وانتهيت بالله، فالبداية لله اجتهداً منك وظناً أن الاجتهاد صدر منك فيكون اجتهداك وعملك معلولان من البداية، حتى تكتشف ذلك بنور التوفيق، فتعلم أن الذي خلق فيك الفعل هو الله ﷻ، والذي وفَّقك وقوَّاك هو ﷻ، فتتبرأ من حولك وقوتك فتخرج عنك أي: عن نفسك وعن إرادتك وعن قدرتك فتعبده بالافتقار فلا تعتمد على عملك كما قال ابن عطاء الله السكندري: (من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل).

قول الشيخ المصنف: (وَلَا يَبِينُ لَكَ تَوْحِيدُكَ إِلَّا إِنْ خَرَجْتَ عَنْكَ)،
وسيدي إبراهيم الدسوقي^(١) يشير إلى هذا المعنى، فيقول: (وخذني إليك
مني، وارزقني الفناء عني، ولا تجعلني مفتوناً بنفسي، محجوباً بحسني)
فالمعنى واحد من العارفين يعبر عنها بطريقته.

ولقد عبرت عن هذا المعنى في الصلوات اليسرية بطريقة أخرى (فأكون
فانياً في عين بقائك، وباقياً في عين فنائي).

وقال سيدنا أبو يزيد البسطامي^(٢) في إحدى مواقفه ومخاطباته لله ﷻ

(١) العارف بالله والقطب الكبير، السيد إبراهيم بن أبي المجد بن قريش وينته نسبه إلى سيدنا الحسين
بن علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ولد
سنة ثلاث وثلاثين وستمائة من الهجرة، ولد ونشأ في أحضان والده، وتعلم على يديه وكان نبوغه
واضحاً، حفظ القرآن الكريم صغيراً ودرس مذهب الإمام الشافعي وتفقه به. بعدها انقطع منذ
صغره للعبادة، ودخل الخلوة وما خرج منها حتى توفي والده فخرج للصلاة عليه. وأراد أن يدخل
الخلوة مرة أخرى فحلف عليه الفقراء إلا يدخلها وأن يقيم معهم ويعلمهم ويربيهم فاستجاب لهم.
بعد أن دخل الخلوة فتح الله عليه من العلوم الوهية ما لا حصر لها. وصار متصلاً بربه في حضرة
القدس حيث يفنى في المشاهدة عن كل شيء حتى عن فناءه. قال ﷺ: (قد يقذف الله في قلب وليه
مالاً يطلع عليه أحد من العلماء. وإذا تجلى عروس الكلام في رتبة الإلهام طلعت شمس المعارف
وتجلى البدر المنير في الليل البهيم، فهم سكارى الظواهر صحة البواطن والضماير). وهكذا سطع
نجم السيد الدسوقي رضي الله عنه في العلوم والمعارف. وانتشرت طريقته وعرفت (بالإبراهيمية
أو الدسوقية). ولقد كان الظاهر يبهرس يتبرك به ويبجله، وقام ببناء زاوية كبيرة له ولمريديه وعينه
شيخاً للإسلام حتى توفي السلطان واعتذر عنها. توفي رضي الله عنه في دسوق محل مولده سنة
ست وسبعين وستمائة من الهجرة وهو ساجد وبنيت فوق قبره زاوية صغيرة لكنها تحولت إلى
مسجد من أكبر مساجد مصر الآن.

(٢) أَبُو يَزِيدَ الْبُسْطَامِيُّ طَيْفُورُ بْنُ عِيسَى ﷺ سُلْطَانُ الْعَارِفِينَ، أَبُو يَزِيدَ طَيْفُورُ بْنُ عِيسَى بْنِ شَرْوَسَانَ
الْبُسْطَامِيِّ، قَالَ السُّلَمِيُّ فِي (تَارِيخِ الصُّوفِيَّةِ): تُوْفِيَ أَبُو يَزِيدَ عَنْ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَلَهُ كَلَامٌ
حَسَنٌ فِي الْمُعَامَلَاتِ. قِيلَ لِأَبِي يَزِيدَ: بِأَيِّ شَيْءٍ وَصَلْتَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ، فَقَالَ: بِبَطْنٍ جَائِعٍ وَبَدَنٍ

قال لربه يخاطبه بـكله: (ربّ كيف أجذك؟ قال: فخاطبني من داخلي: اترك نفسك تجِدني).

ثم قال المصنف: (فكلما أخلصت يُكشف لك أنه هو لا أنت، فتستغفر منك) فكلما أخلصت أيها المكلف يُكشف لك أنه هو الذي خلّصك له، وهو الذي أعطاك وأولاك وقربك، وهو الذي أوجدك من البداية وأمدك في أثناء وجودك ووفقك، فهو الفاعل على الحقيقة (فكلما أخلصت) أي خلّصت أعمالك من رؤية نفسك فيها، سيكشف لك أنه هو الفاعل لا أنت، ولذا قال سيدي محيي الدين بن عربي^(١):

العبد رب والرب عبدٌ يا ليت شعري من المكلف

عار، وكان يقول: دعوت نفسي إلى طاعة الله فلم تجبني فمنعتها الماء سنة، وقال: إذا رأيتم الرجل قد أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود والوقوف عند الشريعة، قال ابن خلكان وله مقامات ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة، توفي سنة إحدى وستين ومائتين.

(١) محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي، ويلقب «محيي الدين» و«سلطان العارفين». ولد رضي الله عنه في ليلة الإثنين السابع عشر من رمضان سنة ستين وخمسائة هـ في مرسية في شرق الأندلس. وهو كغيره رضي الله عن جميعهم عن أهل الله الذين تربوا في أحضان القرآن الكريم والعلم الشريف حفظاً ودراسة وتذوقاً.

فهو يصرح كثيراً بأن القرآن الكريم خزانة علمه ومنبع فتحه، وإلى ما حباه به مولاه من إيمان قوى واتباع محمدي وخلق كريم وسلوك حكيم إلي غير ذلك من القواعد المؤسس عليها سيرة في طريق الخاصة المقربين.

فعلوم هذه أسسها السليمة وهذه منابعها الصافية لهي علوم الوارثين المحفوظين من الخروج عن الجادة المحمدية، شهد بذلك المنصفون واغترف من هذا المنهل المحبون السائرون، وأشهر مؤلفاته كتاب الفتوحات المكية، يقول سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتاب الطبقات الكبرى: أجمع المحققون من أهل الله عز وجل على جلالته في سائر العلوم كما يشهد لذلك كتبه. وما أنكر

فلما وجد المكلف أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى على جوارحه، والذاكر هو الله تعالى على لسانه، وأنه لا وجود له أصلاً فتعجب، فالعبد في مظاهر كماله ما هو إلا تجلي مظهر الربوبية، ومظاهر الربوبية في مظاهر الافتقار ما هي إلا مظاهر العبودية، وكأن الربوبية تنقبت في العبودية، والعبودية تحققت بالربوبية، فلما احتار قال هذا الكلام، فعبر عنه بطريقة ملتبسة، وليس كل ولي يستطيع أن يعبر عن الحقيقة بطريقة غير ملتبسة لكن يزول الالتباس عندما تعرف مشربه، فتفهم كلامه؛ لأنك شربت من مشربه، فتفهم أنه يقصد معنى آخر وليس مسألة حلول واتحاد واتصال.

فالحلول: أن تظن أن هناك مع الله شيئاً يحل فيه، والحقيقة أن الله ليس معه شيء ليحل فيه أو ينتقل إليه، فالذين قالوا: إن الصوفية يقولون بالحلول، ظنوا أن لهم وجوداً منفصلاً عن الله، فقالوا: إن الله حل في شيء، وهذا غير متصور عند الولي وغير مقصود عنده، حيث إنه لا يرى موجوداً مع الله وكل ما سوى الله موجود به، فالمعية صفة الرب والفناء صفة العبد، ولذلك قال سيدي محي الدين بن عربي رحمه الله: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) لأنه لا يوجد أنا إلا الله والمعنى واحد.

(فَتَسْتَغْفِرُ مِنْكَ) لأنك به لا بنفسك، فتستغفر من الاعتماد على العمل، فتنتقل من الاعتماد على نفسك إلى الاعتماد على الله عز وجل، فلا تكن مفتوناً

من أنكر عليه إلا لدقة كلامه لا غير فأنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة خوفاً من حصول شبه في معتقده يموت عليها ولا يهتدي لتأويلها على مراد الشيخ. توفي رضي الله عنه بدمشق ودفن بسفح قاسيون بالصالحية منها في ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هـ وشيد على ضريحه مقام ومسجد كبير.

بنفسك محجوباً بحسك، لأن هذا الذي تحسه أينما توليت فثم وجه الله، أي وجه من وجوه التجلي، فأنت بالله وكل ما سواه هو به سبحانه وتعالى، فاسألوا الله من فضله.

ثم قال المصنف: (وَكُلَّمَا وَحَدَّثَ بَانَ لَكَ الشُّرْكُ)، لأنك أيقنت أنه سبحانه مصدر الوجود، والله هو الواحد وصور الوجود كثيرة وهذا معنى «وَحدة الوجود» عند الصوفية، فلم يقصدوا أن الله حل في موجود؛ لأنه لا موجود بحق إلا الله تعالى، فيتضح لك أن كل من رأى أن معه شيئاً لم يوحد ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، أكبر الشهود أن ترى الله، فإن رأيت الله لا ترى معه شيئاً.

ثم قال المصنف: (وَتُجَدِّدُ لَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَوَقْتٍ تَوْحِيدًا وَإِيمَانًا) في كل لحظة يردك إليه، فتجد توحيداً جديداً، فتُرد مع كل لحظة إليه، فتتغير أحوالك ويردك إليه، ويتجدد الإيمان باستمرار، فأنت محتاج إلى أن تجدد التوحيد مع كل نفس.

والصوفية عندهم عبادة يقولون عنها (عبادة النفس) فتجدد له مع كل ساعة، والمقصود بالساعة هنا: الوقت، وليس المقصود بها الساعة الزمنية المتكوّنة من ستين دقيقة، ولذلك قال ابن عطاء الله السكندري في الحكم: (علمتُ أن مرادك مني أن تتعرف إليّ في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء).

ثم قال المصنف: (وَكُلَّمَا خَرَجْتَ عَنْهُمْ زَادَ إِيْمَانُكَ)، فكلما خرجت عن مظاهر الوجود، زادك إيماناً؛ لأنه هو القائم على كل نفس بما كسبت، وأنه هو الظاهر في المظاهر، دون أن يتقيد بالمظاهر سبحانه وتعالى. فقلوه: (تخرج عنهم)، أي عما سوى الله ﷻ، فيزداد إيمانك.

ثم قال المصنف: (وَكُلَّمَا خَرَجْتَ عَنْكَ قَوِيَّ يَقِينُكَ) فعندما تخرج عن نفسك يزداد يقينك؛ لأن نفسك من الأكوان وعندما تنظر ﴿فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فيزداد إيمانك، فإذا تبرأت حتى من نفسك تصل إلى مقام ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وإلى مقام ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، فتتحقق باليقين بعد خروجك عن نفسك.

٢- يَا أَسِيرَ الشَّهَوَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، يَا أَسِيرَ الْمَقَامَاتِ وَالْمُكَاشَفَاتِ، أَنْتَ مَغْرُورٌ، أَنْتَ مُشْتَغَلٌ بِكَ عَنْهُ، أَنْ الْاِشْتَغَالَ بِهِ عَنْكَ؟!

قال المصنف: (يَا أَسِيرَ الشَّهَوَاتِ وَالْعِبَادَاتِ) جعل الله ﷻ الشهوات حجاباً، قيّدك به فصرت أسيراً لهذه الشهوات، فأنت تحتاج للطعام، وللشراب، وللزوجة، والولد، والثياب، وتحتاج للمأوى والسكن، وتحتاج للهواء للتنفس، وتحتاج للأرض لتسير عليه، أو تحتاج للنوم لتستريح، وتحتاج وتحتاج وتحتاج... إلخ

فأنت فقير في كل أحوالك، وأسير لشهواتك، ثم وأنت في عبادتك كذلك منشغل بالعبادة عن المعبود، وبالمذكر عن المذكور، فصرت أسير العبادة، ولست عبداً لله.

ثم قال المصنف: (يَا أَسِيرَ الْمَقَامَاتِ وَالْمُكَاشَفَاتِ) من انشغل في سلوكه إلى الله ﷻ بمراحل الترقّي فرّ من كونٍ إلى كونٍ، والله يقول ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

ثم قال المصنف: (أَنْتَ مَغْرُورٌ) بتوهم وجود شيء معه؛ لأنه لو كشف

لك، ما وجدت موجوداً إلا الله تعالى، فتصل لحالة تُسمى (حال الفناء اللحظي)، في لحظة تعلم أنه لا موجود إلا الله ﷻ؛ لأن وجودك مستمد منه، فلو تأخر مدد الوجود منه لحظة لعدت عدماً، فأنت تشعر بوجودك في لحظات الإمداد وهذا وهم، وفي لحظات آنيات الإمداد يعني بين المدد والمدد هناك آنية ولو لطيفة تكون عدماً ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فلا يوجد شيء فيما بين لحظات الإمداد، فإذا استشعرت لحظات وآنيات الافتقار للإمداد فنيّت، وإذا استشعرت بتوالي الإمداد وجدت، ولذلك قال بعدها:

قال المصنف: (أَنْتَ مُشْتَغِلٌ بِكَ عَنْهُ) فالإنسان قد يعبد الله ﷻ؛ لأنه يحب العبادة، ويقرأ القرآن لأنه يحب قراءة القرآن، فأنت مشغول برغباتك حتى في وسط العبادة، فأنت تعبد الله لأجل ثواب العبادة، أي تعبد له شيء آخر لا له سبحانه وتعالى، فتعبده لأجل جنة، أو ثواب، أو لذة القرب، أو لتشعر بسكينة التوكل والرضا والقوة في الاعتماد عليه، فأنت بذلك تعبد من أجلك لا من أجله، ولذلك قال الإمام البوصيري^(١) في «برأته» المشهورة بالبردة:

وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلت المرعى فلا تُسم

(١) وهو: الشيخ الإمام العارف الكامل الهمام المتفطن المتحقق البليغ الأديب المدقق الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن هلال الصنهاجي. ولد سنة (٦٨٥هـ) صاحب أبو العباس المرسي رضي الله عنه وساعده لحظة وهمته إلى أن أفاق أهل زمانه كان من عجائب الدهر في النظم والنثر ولو لم يكن له إلا قصيدته المشهورة (البردة) التي تسبب نظمها عن وقوع الفالج به أعيا الأطباء ففكر في إكمال قصيدة في النبي ﷺ يتشفع بها إليه ثم به إلى ربه فأنشأها فرآه ماسحاً بيده الكريمة عليه فعوفي لوقته لكفاه ذلك شرفاً وتقدماً كيف وقد ازدادت شهرتها إلى أن صار الناس يتدارسونها في البيوت والمساجد. (من كتاب المنح المكية في شرح الهمزية ص ٧٠) للعلامة ابن حجر الهيتمي.

يعنى: راع نفسك فقد تُشغَل بالعبادة عن المعبود، وتلتذ بحلاوة الذكر عن المذكور، فأنت تذكر للمذكور لا لحلاوة الذكر، فإن حلاوة الذكر وحلاوة العبادة فيها سم قاتل يشغلك بها عن المعبود، فلا بد أن تكون صاحب بصيرة حتى لا تأخذ السم في الدسم.

ثم قال المصنف: (أَيَّنَ الاِشْتِغَالَ بِهٖ عَنْكَ) إذا كنت معه حجبك عنك، وإذا كنت معك أي: مع نفسك استعبدك له، فكلما ردّك لنفسك ردّك للعبودية فأنت مكلف، وكلما أخذك عن نفسك فأنت مع الربوبية فأنت في كمال، فأنت بين النظر لكمال الربوبية وفقر العبودية، فالعبودية عجز وغفلة وجهل، والربوبية غنى وعلم وقدرة، تحقق بصفاتك يسترِكَ ويزينك بصفاته، فكلما تحققت بصفات العبودية غطّاك بوصفه، تحقق بوصفك ونعتك ليغطّيك بوصفه ونعته، تحقّق بالعجز ليقدركَ، تحقق بالجهل ليعلمكَ، تحقق بالفقر فيغنيك ولذلك يقول:

٣- وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ حَاضِرٌ نَازِرٌ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]
 فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، فَإِذَا كُنْتَ مَعَهُ حَاكَ عَنْكَ، وَإِذَا كُنْتَ مَكَ
 اسْتَعْبَدَكَ لَهُ.

قال المصنف: (وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ حَاضِرٌ نَازِرٌ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِذَا كُنْتَ مَعَهُ حَجَبَكَ عَنْكَ) أي: من وجد الله وجد كل شيء.

ثم قال المصنف: (وَإِذَا كُنْتَ مَعَكَ)، أي: مع قدراتك (اسْتَعْبَدَكَ لَهُ) بأخذك للأسباب؛ لأنك مع نفسك وتريد أن تكون مع الله، فاعبد، وصلِّ، وصم،

واذهب للمسجد، وتحرك، وجاهد الأعداء، فكلما كنت مع نفسك وجدت الشرع يكلفك، وكلما كنت مع الله ﷻ غبت عن ذلك كله فكنت به، ولذا الذي مع نفسه يقاسي شدائد الشرع والتكاليف، والذي مع الله ﷻ لا يشعر بصعوبة التكاليف، ولذلك من عادى الأولياء وكفرهم لأن منهم من قال: (رفع عني التكليف) لم يفهموهم، فليس المعنى رُفع عني التكليف بالشرع فلا أصلي بعد ذلك، وإنما صرت أصلي بالسجدة مثلما أتفلس بالسجدة، فلا أشعر بعناء الصلاة، فالمعنى رفع عني التكلف في العبادة، وصارت العبادة عندي سجدة، كالنفس الذي يخرج ويدخل بلا عناء، فالإنسان لا يعاني عن النفس، فلما رُفع عنه التكليف في العبادة صار لا يشعر بكلفة العبادة ولا مشقتها، فهو يعبد به، أي بقدرة الله، أما إذا عبدته بنفسك عانيت مشقة التكليف، فتصوم فتعاني مشقة الجوع، وتصلي فتعاني مشقة طول القيام، وتقرأ القرآن فتعاني اضطراب النفس وجفاف الريق والملل وتنميل الأعضاء والحركة؛ لأنك تعبده بك، فإذا وصلت لمرحلة أن تعبده به يرفع عنك التكلف والتكليف والمشقة، فتصير العبادة فيك سجدة، انظر لكلام نبيك ﷺ يقول: «وَجَعَلْتُ قُرْءَةً عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١) ويقول ﷺ: «يَا بَلَاءُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(٢) يعني لا يوجد عناء، وهذا معنى رفع التكليف، وليس معناه ترك الصلاة والعبادات الأخرى، ومن يقل: لا نصلي يكون زنديقاً، والأولياء لم يقولوا ذلك، بل هم أكثر الناس عبادة

(١) النسائي (٣٩٥٦) عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجُعِلَ قُرْءَةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وأحمد (١٢٤٨٧).

(٢) أبو داود (٤٩٨٧) عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ قَالَ مِسْعَرٌ أَرَاهُ مِنْ خُرَاعَةِ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَأَسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَا بَلَاءُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا». وأحمد (٢٣٥٥٨).

وصلاة، فيجب أن نفهم كلامهم وماذا يقصدون، فهم يقصدون رفع التكليف النفسي، فعندما جاهدوا أنفسهم صارت عبادتهم لله سجية تسير مجرى النفس، ولذلك أهل الجنة يُلهَمُونَ التسبيح كما تُلهَم أنت النفس في الدنيا، فأهل الجنة يذكرون مع كل لحظة بدون تكلف، وهو ما عبر عنه الشاعر أحمد رامي: (لقيت روعي في عز جفاك بفكر فيك وأنا ناسي) نفس المعنى لكن باللغة المصرية العامية، في عز جفاك أي في عز انشغالي عنك بنفسي، فالكاف هنا ليس كاف الفاعل بل المفعول، فيصير ذكره فيك سجيةً، حيث إنك في لحظة غفلاتك تنظر لنفسك وستجدها ذاكرة، فلا توجد لك غفلات فصار الذكر فيك بلا تكلف وهذا معنى رفع التكليف، ولم يفهمها ابن تيمية ولا ابن القيم ولا الوهابية وصاروا يتهمون الأولياء؛ لأنهم لم يذوقوا مثل هذه المقامات، وعانوا معاناة التكاليف حتى ماتوا فلم يرتقوا عن أنفسهم، عاشوا إلى أن ماتوا وهم يعبدون الله بأنفسهم، فإذا وكلّك لنفسك وكلّك للضعف، ووكّلك للعجز، وإذا صرت عاجزاً فأنت مكلف تعاني التكاليف، أما إذا قام بك رفع عنك التكاليف وكل المشقات، فالحقيقة واحدة، ويشار إليها بأساليب مختلفة؛ لأن أنفاس الأولياء مختلفة، وكل واحد له نفس في التعبير والمذاقات، وكل واحد له مذاق خاص فيعبر عنه بالأسلوب الذي يسر الله عز وجل له وعلى حسب قدراته اللغوية.

٤-الإيمانُ خُروجُكَ عَنْهُمْ، وَالْيَقِينُ خُروجُكَ عَنْكَ. إِذَا زَادَ إِيمَانُكَ
نُلتَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَإِذَا زَادَ يَقِينُكَ نُلتَ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ.

قال المصنف: (الإيمانُ خُرُجُكَ عَنْهُمْ) أي خروجك عن هذه الشهوات والتكاليف، فالإسلام انشغالٌ بالتكاليف: من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، والإيمان أن تجعل هذه الأعمال المختلفة لجهة واحدة وهو الله تعالى، فلا تنشغل بالتكاليف عن المكلف، ولا بالنعمة عن المُنعم، ولا بالبلاء عن المُبلي، ولا بالعطاء عن المُعطي، ولا بالضرر عن الضار، ولا بالنفع عن النافع، فأنت لست عبد النعمة بل أنت عبد المُنعم، فالإيمان خروجك عنهم.

ثم قال المصنف: (واليقين خروجك عنك)، فالإيمان ألا ينظر العبد إلى أي شيء سوى الله ﷻ أثناء عبادته، فإذا وصل لليقين خرج عن نفسه، ولقد فصلنا ذلك في شرح كتاب (منازل السائرين) وملاك ذلك كله كسر العوائد، فتخرج عنك؛ لأنك مجموعة من العادات، والعوائد، والطباع، والاهتمامات، والآمال، والشهوات، والرغبات، فلا بد أن تخرج عن ذلك كله بأن تحرق العوائد، فتُحرق لك العوائد.

ثم قال المصنف: (إِذَا زَادَ إِيمَانُكَ نُقِلْتَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَإِذَا زَادَ يَقِينُكَ نُقِلْتَ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ)

ذكر الشيخ الأحوال والمقامات، فالأحوال لا تدوم؛ لأنها من حال يحولُ يعني يتغير، ولذلك يقال: دوام الحال من المحال، لأنه لو دام ما كان حالاً، فالحال شيء عرضي ويزول مثل لمح البرق فيظهر ويختفي. وكلما أتى حال فهو حال جديد، حتى لو دمت في نفس الحال، فتكون أحوالاً متعددة متكررة فتظن أنها واحدة وهي متعددة، ولذلك كلما ازدادت في أعمال الطاعات والجوارح فهذه من أعمال الإيمان؛ لأن للإيمان شعب كثيرة، فتنتقل من حال إلى حال، أما في اليقين فتستقر؛ لأن اليقين فيه استقرار.

ومن أجل ذلك، فالإيمان ينقلك في الأحوال، واليقين ينقلك في المقامات، فتبدأ مؤمناً ثم تنتهي موقناً، واليقين أعلى من الإيمان، فاليقين تحقق والإيمان نية ومقصد مصحوب بعمل، وتكرر عليك الأعمال فتتكرر عليك الأحوال، مرة ذاكر، ومرة صائم، ومرة مصل، ومرة صادق، ومرة شاكِر، وأخرى خائف وراضٍ أو مسرور وحزين وهكذا.

فالإيمان ثمرته الأعمال، واليقين ثمرة الأعمال، والإيمان شجرة فروعها كثيرة يتفرع عنها الأعمال، ولذلك سماها النبي ﷺ (شعب الإيمان) فتبدأ من أهل الأحوال، وتنتهي بأهل المقامات التي هي بمثابة الثمرة من الشجرة، ومعناه استمر في أعمال الإيمان حتى تقطف ثمرة أعمالك وتصير متيقناً، والأعمال يكون أثرها في القلب أحوال، واليقين أثره في القلب المقام.

٥- الشَّرِيعَةُ جُعِلَتْ لَكَ، حَتَّى تَطْلُبَهُ مِنْهُ بِه - تَمَای - لَكَ. وَائِيَّةٌ
بِهِ حَتَّى تَطْلُبَ أَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَيْثُ لَا حِينَ وَلَا أَنْ؛ فَالشَّرِيعَةُ حُدُودٌ
وَجِهَاتٌ، وَائِيَّةٌ لَا حَدَّ وَلَا جِدَّةَ.

قال المصنف: (الشَّرِيعَةُ جُعِلَتْ لَكَ حَتَّى تَطْلُبَهُ مِنْهُ بِه تَعَالَى لَكَ، وَالْحَقِيقَةُ لَهُ حَتَّى تَطْلُبَهَا بِهِ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، حَيْثُ لَا حِينَ وَلَا أَيْنَ) الشريعة أوامر ونواهٍ وأحكام، فالشريعة جُعِلَتْ لَكَ تكليفاً حتى تعبد به فتصل بفضلها إليه فتطلبه تشريعاً، ومدداً، وقوةً، وتوفيقاً.

(لَكَ) أي: تنتقل من التكليف للتشريف، أي لأجل تشريفك بعد تكليفك. أما الحقيقة لا يطرأ عليها تغيير فهي ثابتة، والشريعة بالنسبة للمكلف أحوالها

متغيرة وأحكامها تتغير، يطلب منك الشارع الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، ويطلب منك الوضوء، فإذا فقدت الماء طلب منك التيمم، ويطلب منك أن تصلي قائماً فإذا لم تستطع القيام جاز أن تصلي قاعداً وهكذا، فتتغير أحكام الشريعة بتغير أحوال المكلف، وبالنسبة لصدورها من الله تعالى فهي غير متغيرة. أما الحقيقة فهي ثابتة لا تتغير؛ لأنها تعلقت به سبحانه والشريعة لها تعلقان: تعلق بالله وهو حكم الله القديم، وتعلق بالعبد وهو حادث يتغير. أما الحقيقة فلها تعلق بالله فقط، فلما تعلقت بالله والله دائم باقٍ لا يتغير صارت له.

ثم قال المصنف: (حَيْثُ لَا حِينَ وَلَا أَيْنَ) يعني لا زمان ولا مكان فالحين للزمان، والأين للمكان، أي: كان الله ولم يكن شيء معه قبل خلق الزمان والمكان، وبعد خلق الزمان والمكان دائم على ما عليه كان، لا يطرأ عليه تغير؛ لأنه خلق الخلق بكنْ وَبِتَجَلِّيهِ في الأشياء، فما ظهرت الأشياء إلا به، فلا يوجد شيء معه، بل كل شيء به، وأهل التصوف كانوا يقولون ومنهم سيدي المرسى أبو العباس^(١) وهو من مشايخنا ومن سلسلة طريقتنا

(١) المرسى أبو العباس هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخزرجي الأنصاري المرسى يتصل نسبه بالصحابي الجليل سعد بن عباد الأنصاري (رضي الله عنه) سيد الخزرج وصاحب سقيفة بن ساعدة التي تمت فيها البيعة لأبي بكر الصديق بالخلافة. وكان جده الأعلى قيس بن سعد أميراً علي مصر من قبل الإمام علي كرم الله وجهه عام ٣٦هـ (٦٥٦م). ولقد ولد أبو العباس المرسى بمدينة مرسية سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) ونشأ بها وهي إحدى مدن الأندلس وإليها نسب فقيل المرسى من أكابر العارفين، وكان يقال إنه لم يرث علم الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه غيره، وهو أجل من أخذ عنه الطريق رضي الله عنه، ولم يضع رضي الله عنه شيئاً من الكتب.

الشاذلية كان يقول : (الشرعية أن تعبد، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهد، والإسلام شريعة، والإيمان طريقة، والإحسان حقيقة، والإسلام عبادة، والإيمان عبودية، والإحسان عبودة) كل هذا معانٍ متقاربة، ولكن بأساليب مختلفة، والكل يُعبر عنها حسبما يراه، فالحقيقة واحدة والإشارات إليها متعددة .

فالله تعالى تعبدك بظاهرك بالشرعية كالصلاة والصيام والحج والزكاة والجهد، وتعبدك في الباطن بالحقيقة والرضا بالقضاء والتوكل والتفويض والمعرفة والمراقبة والصدق والإخلاص، فالشرعية على الجوارح والحقيقة في القلب.

ثم قال المصنف: (فَالشَّرِيعَةُ حُدُودٌ وَجِهَاتٌ) فالشرعية أحكام متعلقة، فنعرف بحركة الشمس وقت دخول الصلاة، ونعرف بالقمر والأهلة دخول صيام رمضان وأشهر الحج، ونعرف وجوب الزكاة بمرور حول كامل، ونصاب معين، وقدر معين، وإذا صليت لا بد أن تتجه للقبلة، وهكذا.

ثم قال المصنف: (وَالْحَقِيقَةُ لَا حَدٌّ وَلَا جِهَةٌ) فأينما تولوا فثم وجه الله هذه حقيقة وقوله ﴿فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، هذه شريعة، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ شريعة، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقيقة، فالقرآن أمرك بالشرعية

وكان رضي الله عنه يقول علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لا تحملها عقول عموم الخلق، وكذلك شيخه أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لم يضع شيئاً، وكان يقول كتبي أصحابي. وقد ظل الشيخ أبو العباس المرسى يدعو إلي الله ملتزماً طريق التقوى والصلاح ناشراً للعلوم والمعارف بين الخلق ومهذباً لنفوس الطلاب والمريدين حتى وفاته في الخامس والعشرين من ذي القعدة ٦٨٥هـ. (١٢٨٧م). ودفن في قبره المعروف خارج باب البحر بالإسكندرية.

وذلك على الحقيقة، وفي السنة النبوية الشريفة (اِحْرَضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ) شريعة و(وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ)^(١) حقيقة.

٦- الْقَائِمُ لِرِيَّةٍ فَطُ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالمُجَاهَدَةِ، وَالْقَائِمُ لِنِيَّةٍ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِإِنِّهِ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْمُجَاهَدَةِ وَالْمِنَةِ، الْقَائِمُ مَعَ الْمُجَاهَدَةِ مَوْجُودٌ، وَالْقَائِمُ مَعَ الْمِنَةِ مَفْقُودٌ.

قال المصنف: (الْقَائِمُ بِالشَّرِيعَةِ فَقَطُ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالمُجَاهَدَةِ) القائم بالأحكام الشرعية والطاعات والبعد عن المنهيات تفضل الله عليه بمجاهدة النفس، وهذا أخذ بالأسباب.

ثم قال المصنف: (وَالْقَائِمُ بِالحَقِيقَةِ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالمِنَةِ) لأنه يدرك الحقيقة وهي من فضل الله تعالى وتوفيقه لا بجهده، فإدراك ثمرة العمل يحتاج إلى فضل الله ﷻ، لأن الحقيقة ثمرة العمل ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾^(٦٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(٦٤) [الواقعة: ٦٤] ، فأنت تحرث الأرض للزراعة (شريعة) ولكن ظهور ثمرة هذا الحرث من فضل الله ﷻ، فالأول أخذ بالأسباب كما في قوله تعالى ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنِ يُنِيبُ﴾^(١٣) [الشورى: ١٣]، والثانية حقيقة كما في قوله ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾^(١٤) [الشورى: ١٣].

(١) مسلم (٦٩٤٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ اِحْرَضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». ورواه ابن ماجه (٨٣) وأحمد (٨٩٥١).

ثم قال المصنف: (وَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْمُجَاهِدَةِ وَالْمِنَةِ) شتان بين العمل وبين ثمرة العمل، وشتان بين العلم وخشية الله ﷻ، فثمرة العلم الخشية. وعندما تتعلم العلم بدون الخشية لم تُؤتِ الثمرة، فصار العلم حجاباً، والعمل كالعلم لا بد أن تأتية الثمرة وهي الحقيقة، وهي منة من الله ﷻ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فشتان بين المجاهدة؛ لأنها منك وبين المنة؛ لأنها منه سبحانه وتعالى، فما كان منك إليه يغلب عليه النقص وما كان منه إليك فهو عين الكمال ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ، أَدْخِلْنِي﴾ [الإسراء: ٨٤].

قال المصنف: (الْقَائِمُ مَعَ الْمُجَاهِدَةِ مَوْجُودٌ، وَالْقَائِمُ مَعَ الْمِنَةِ مَفْقُودٌ) لأن نفسه قد تتأقل في المجاهدة أحياناً، وتنشط أحياناً، وتتعب أحياناً، فيشعر بوجوده فهو في مقام الفرق.

ثم قال: (وَالْقَائِمُ مَعَ الْمِنَةِ) الحقيقة (مَفْقُودٌ)، لأنه صار بالله ﷻ فانتقل من نفسه إليه، فصار به بعدما كان بنفسه، وهذا معنى قول سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله: (وخذني إليك مني، وارزقني الفناء عني) وكما جاء في الدعوات: (اللهم خذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك)

فهي تشير كذلك إلى تلك المعاني.

٧- الْأَعْمَالُ مَتْلَمَةٌ لِمَرْعِ الشَّرِيفِ، وَالتَّوَكُّلُ مَتْلَمَةٌ قِيَامِ الْإِيمَانِ،
وَالتَّوْحِيدُ مَتْلَمَةٌ قِيَامِ الْكُشْفِ الصَّحِيحِ.

قال المصنف: (الْأَعْمَالُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالشَّرْعِ الشَّرِيفِ) لأنه لا عمل إلا بالشرع الشريف، فلا بد أن تكون متأدباً بآداب الشرع ومتقيداً بقيوده،

فلا تجوز الصلاة من غير وضوء، ولا تجوز النافلة من غير فاتحة وركوع وسجدين، فلا بد أن تتقيد كما كان يصلي صاحب الشرع، تريد أن تصلي مطلق نافلة وتطوع ولكن وفق صلاة النبي ﷺ كما قال «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(١) فالأعمال متعلقة بالجوارح.

ثم قال المصنف: (وَالْتَوَكَّلُ مُتَعَلِّقٌ بِالْإِيمَانِ) أي: في القلب؛ لأنها عبادة قلبية وله صورة في الجوارح وهي الأخذ بالأسباب، ولكن الأصل في القلب، ومعناها عدم النظر بالقلب إلى السبب ولا الاعتماد عليه، فالتوكل متعلق بالإيمان؛ لأن الإيمان بالقلب، والقلب لا يكون ناظرًا إلا للحق وليس للعمل، ولا ينظر للعبادة بل للمعبود.

ثم قال المصنف: (وَالْتَوْحِيدُ مُتَعَلِّقٌ بِالْكَشْفِ الصَّحِيحِ) التوحيد متعلق بالروح، فالشريعة متعلقة بالأركان والجوارح، والتوكل متعلق بالقلب، والتوحيد متعلق بالروح، فصرت كلك له وبه وعليه وفيه سبحانه وتعالى.

٨- النَّاسُ تَائِبُونَ عَنِ اتِّقَى بِأَقْلٍ، وَتَائِبُونَ عَنِ الْآخِرَةِ بِالْهَوَى،
مَنْ طَلَّتْ اتِّقَى بِأَقْلٍ فَدَّ ضَمَّتْ، وَمَنْ طَلَّتْ الْآخِرَةَ بِالْهَوَى فَقَدْ
ضَمَّتْ.

(١) البخاري (٦٣١) عَنْ أَبِي قَلَابَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ، أَنَّنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَابَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عَشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَمَيْنَا أَهْلَنَا - أَوْ قَدِ اشْتَفْنَا - سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرَنَاهُ، قَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا - وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤْذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤْمِكُمْ أَكْبَرُكُمْ» ورواه أحمد

قال المصنف: (النَّاسُ تَائِهُونَ عَنِ الْحَقِّ بِالْعَقْلِ، وَتَائِهُونَ عَنِ الْآخِرَةِ بِالْهَوَى) فالعقل حجاب وموصل في آن واحد، فإذا استخدمت العقل بطريقته الصحيحة وصلَّك إلى فهم الشرع الشريف والوحي. وإذا استخدمت العقل بطريقة خطأ لم يوصلك بل يقطعك، فإن العقل يعتمد على مقدمات ينتهي بها إلى نتائج، فلا بد أن تكون المقدمات سليمةً، والتفكير المنطقي خال عن الهوى، حتى تحصل على النتيجة السليمة. فإذا كان هناك خلل في ترتيب المقدمات فلا يصل العقل إلى الصواب ولذلك فالأزهر الشريف يعلم الطلبة علم المنطق لما له من فائدة عظيمة، فإنه يرتب عقلك فترتب المقدمات الصحيحة فتستنتج منها النتائج الصحيحة.

فلو استخدمت العقل بغير منطق سليم كان حجاباً لك، لأن الإنسان إذا نظر للمقدمات بهواه ولديه نتيجة مسبقة على حسب هواه فسوف يطوع المقدمات على النتيجة التي في عقله فلا يرى الحق.

إذن: علّة العقل الهوى، فلا تفكر بعقلك متأثراً بهواك ولا بحكم مُسَبِّق، ولذلك الناس تائهون عن الحق بالعقل المُغَطَّى بالهوى أو غير المرتب، أي يفكر من غير تفكير منطقي أو يفكر من خلال هواه، ومعناه: أن العقل نعمة كبيرة إذا خلع عنه منظار الهوى ومنظار الجهل، فليكني تتعلم وتعقل فلا بد أن تسلك سبيل العقلاء.

والعقل يدلك على العلم الذي يدلك على الله تعالى، لأن الله غيب لا تراه، والعقل بالتفكير السليم يدلك على الغائب بالحاضر، فأعداء العقل:

الهوى والجهل، ولكي تتعلم العلم الصحيح لابد من عالم يعلمك ويأخذ بيدك ويوفقك إلى الفهم الصحيح.

فهناك بعض الناس من كثرة إعجابه بعقله لا يطلب العلم على الشيخ ويقول: (هل يفهم أكثر مني؟؟) ومن كان بهذه الصورة صار عقله وذكاؤه حجاباً عن الحق، لأن الحق ليس في عقله بل هو خارج عنه، فهو يكتفي بعقله ويظن أن الحق في عقله. فيجب على الإنسان ألا يغتر بما آتاه الله سبحانه وتعالى من فرط ذكاء وعقل راجح فيكتفي بهما عن طلب الحق من أهله، فالعقل قد يكون حجاباً من جهات عديدة، من جهة الهوى فيغطي الحق، أو من جهة اعتماده على عقله بسبب الإمكانات الكبيرة والكثيرة التي حباها الله إياه من سرعة فهم وسرعة حفظ وذكاء مع غياب الضوابط والقواعد الصحيحة للفهم فيقع في الخطأ.

كان الإمام الشافعي^(١) ذكياً، وعنده سرعة فهم عجيبة، فرحمه الله ﷺ من أن يعتمد على عقله، فطلب العلم على علماء عصره، فتتلمذ على يد

(١) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع. من بني المطلب من قريش. أحد أئمة المذاهب الأربعة، وإليه ينتسب الشافعية. جمع إلى علم الفقه القراءات وعلم الأصول والحديث واللغة والشعر. قال الإمام أحمد: « ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي عليه منة ». كان شديد الذكاء. نشر مذهبه بالحجاز والعراق. ثم انتقل إلى مصر (١٩٩ هـ) ونشر بها مذهبه أيضاً وبها توفي. من تصانيفه: « الأم »، في الفقه، و « الرسالة » في أصول الفقه، و « أحكام القرآن »، و « اختلاف الحديث » وغيرها. [الأعلام للزركلي، وتذكرة الحفاظ ١ / ٣٢٩، وطبقات الحنابلة ١

المدرسة الحنفية على يد الإمام محمد بن الحسن الشيباني^(١) وأبي يوسف^(٢) رحمهما الله بعدما تتلمذ على يد الإمام مالك بن أنس^(٣) رحمهم الله بالمدينة،

(١) محمد بن الحسن (١٣١ - ١٨٩ هـ) هو محمد بن الحسن بن فرقد. نسبته إلى بني شيان بالولاء. أصله من (حرسا) من قرى دمشق، منها قدم أبوه العراق، فولد له محمد بواسط، ونشأ بالكوفة. إمام في الفقه والأصول، ثاني أصحاب أبي حنيفة بعد أبي يوسف. من المجتهدين المتسبين. هو الذي نشر علم أبي حنيفة بتصانيفه الكثيرة. ولي القضاء للرشد بالرقعة، ثم عزله واستصحبه الرشد في مخرجه إلى خراسان، فمات محمد بالري. من تصانيفه: «الجامع الكبير»، و«الجامع الصغير»، و«المبسوط»، و«الزيادات». وهذه كلها التي تسمى عند الحنفية كتب ظاهر الرواية. وله «كتاب الآثار»، و«الأصل». [الفوائد البهية ص ١٦٣، والأعلام للزركلي ٦ / ٣٠٩، والبداية والنهاية ١٠ / ٢٠٢]

(٢) أبو يوسف (١٨١ هـ) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب. القاضي الإمام. من ولد سعد بن حبة الأنصاري صاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أخذ الفقه عن أبي حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو المقدم من أصحابه جميعاً. ولي القضاء للهادي والمهدي والرشد. وهو أول من سمي قاضي القضاة، وأول من اتخذ للعلماء زياً خاصاً. وثقه أحمد وابن معين وابن المديني. روي عنه أنه قال: «ما قلت قولاً خالفت فيه أبا حنيفة إلا وهو قول قاله ثم رغب عنه» قيل: إنه أول من وضع الكتب في أصول الفقه. من تصانيفه: «الخراج»، و«أدب القاضي»، و«الجوامع» [الجواهر المضية ص ٢٢٠ ٢٢٢، وتاريخ بغداد ١٤ / ٢٤٢، والبداية والنهاية ١٠ / ١٨٠]

(٣) مالك (٩٣ - ١٧٩ هـ) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الأنصاري إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. أخذ العلم عن نافع مولى ابن عمر، والزهرى، وربيعه الرأي، ونظرائهم. وكان مشهوراً بالثبوت والتحري: يتحرى فيمن يأخذ عنه، ويتحرى فيما يرويه من الأحاديث، ويتحرى في الفتيا: لا يبالي أن يقول: «لا أدري». وروي عنه أنه قال: «ما أفتيت حتى شهد سبعون شيخاً أُنِي موضع لذلك». اشتهر في فقهه باتباع الكتاب والسنة وعمل أهل المدينة. كان رجلاً مهيباً: وجه إليه الرشد ليأتيه فيحدثه فأبى وقال: العلم يؤتى. فأتاه الرشد فجلس بين يدي مالك. وقد امتحن قبل ذلك، فضربه أمير المدينة ما بين ثلاثين إلى مائة سوط. ومدت يده حتى انحلت كتفاه. وكان سبب ذلك أنه أبى إلا أن يفتي بعدم وقوع طلاق المكره. ميلاده ووفاته بالمدينة. من تصانيفه: «الموطأ»، و«تفسير غريب القرآن»، وجمع فقهه في «المدونة». وله «الرد على القدرية»، و«الرسالة» إلى الليث بن سعد. [الديباج المذهب ص ١١ - ٢٨، وتهذيب التهذيب ١٠ / ٥، ووفيات الأعيان ١ / ٤٣٩]

ومدرسة سفيان بن عيينة^(١) رحمه الله بمكة فلم يمنعه ذكاؤه المفرط من أن يجلس ويتلمذ على يد مدارس فقهية متعددة، ولذلك يقول: (ولولا رحمة ربي لظننت أن الناس كلهم عبيدي)

ولذلك نجد أن الإنسان المتوسط الذكاء دائماً متواضعاً، لماذا؟؟ لأن عقله متوسط ويقول لك: أسأل الشيخ وأتعلم مع الناس البسطاء، لكن انظر إلى من وهبه الله ذكاءً شديداً فيفطم نفسه عن العلماء مبكراً ويعتمد على عقله وعلى قراءاته ومعلوماته فيُحجَبُ عن الحق، وبالتالي إذا أوتي الإنسان نعمة فعلية أن يعرف كيف يستخدمها، فالعقل نعمة واستخدامه الصحيح في تنقيته من كل هوى ومن الاعتماد عليه، بل تخرج به إلى أهل الحق فتأخذ الحق من أهله ولا تظن أن الحق معك.

فبعضهم تعرض عليه أحكام الشرع فيرد عليك قائلاً: رأيي كذا، وأنا أرى هذا، أو هذا كان مناسباً للأمم السابقة لكن الآن الأحوال تغيرت فلا يصلح لزماننا، مع أن المولى عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، أي: لا تقدموا عقولكم، ولا أفهامكم، ولا شهواتكم، ولا رغباتكم على مراد الله سبحانه ومراد رسوله ﷺ وإلا صار علمك حجة عليك لا لك.

(١) ابن عيينة (١٩٨ هـ) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران، أبو محمد، الهلالي، الكوفي . سكن مكة، أحد الثقات الأعلام، أجمعت الأمة على الاحتجاج به، وكان قوي الحفظ، وقال الشافعي: ما رأيت أحداً من الناس فيه جزالة العلم ما في ابن عيينة، وما رأيت أحداً فيه من الفتيا ما فيه ولا أكف عن الفتيا منه. روى عن عبد الملك بن عمير وحמיד الطويل وحמיד بن قيس الأعرج وسليمان الأحول وغيرهم. وعنه الأعمش وابن جريج وشعبة والثوري ومحمد بن إدريس الشافعي وغيرهم. [تهذيب التهذيب ٤ / ١١٧، وميزان الاعتدال ٢ / ١٧٠، وشذرات الذهب ١ / ٣٥٤].

ثم قال المصنف: (وَتَأْتُهُونَ عَنِ الْآخِرَةِ بِالْهَوَى) فإذا عقل الإنسان الحق بعقله وكان هواه قوياً لا يريد أن يطوع نفسه طبقاً للحق فيتوه عن الآخرة بهواه. كل الناس تعلم أن السرقة حرام بما فيهم السارق نفسه، فلماذا يسرق؟؟ لأنه تاه عن رضا الله ﷻ وخوف الآخرة بسبب هواه، وما هو هواه؟؟ جمع المال من أيسر طريق، وأيسر طريق له أن يخطف الشيء ويأخذه خفية دون علم أحد، ولا يعمل ويُتعب نفسه من أجل أن يحصل عليه بالحلال، بل يأخذه عن طريق السرقة، فهواه دَلَّه على الحصول على المال عن طريق غير الشرع، فلم يعمل للآخرة.

وكل الناس تعلم حرمة الزنا، حتى الزاني نفسه يعلم حرمة ذلك، فما الذي جعله يدخل في هذه الكبيرة؟ لأن الهوى تسلط عليه.

فالهوى إن أشربته بعقلك في البداية تُهتَ عن الحق، وإن لم تخالفه حال الوصول للحق يمنعك من العمل بمقتضاه، فليس المقصود العلم بالحق وإنما المقصود العمل بالحق.

فأمامك عقبتان: عقبة معرفة الحق، ثم عقبة العمل بالحق بعد معرفته، فعليك أن تخطو خطوتين: خطوة تخطو فيها بالعقل إلى العلم متخل عن الهوى ومتخلص من أسباب الجهل فإذا علمت فعليك أن تخطو الخطوة الثانية وهي العمل بما علمت.

إذن: قد تعلم ولا تعمل، فالحائل بين العلم والعمل هو الهوى، والحائل بين الحق ومعرفته هو العقل المتأثر بالهوى.

فالهوى عدو لدود، لا بد أن تتخلص منه في خطوتين، فتتخلص منه في حال تحصيلك العلم، حتى ترى الحق معلوماً، ثم تتخلص منه بعد ذلك في أثناء السلوك والعمل بمقتضى ما علمت.

ثم قال المصنف: (فَمَتَى طَلَبْتَ الْحَقَّ بِالْعَقْلِ فَقَدْ ضَلَلْتَ) لا بد أن تطلب الحق بالوحي لا بالعقل، لأن الوحي معصوم من الهوى، والوحي هو القرآن والسنة، والحق هو الله ﷻ ومراد الله ومراد رسوله ﷺ، بمعنى لو جعلت العقل فوق الشرع وفوق الوحي، وقست الوحي بالعقل فما كان مطابق للعقل أخذته وما كان مخالف لعقلك رفضته وقعت في الضلال؛ لأنه لا بد أن تجعل العقل فوق الهوى، والوحي فوق العقل، فتجعل هواك مطابقاً للشرع كما عقله عقلك بالفهم الصحيح، ثم تجعل بعد ذلك الشرع قائداً للنفس، فهذه مراحل لا بد من معرفتها يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فإذا عقلت أمراً في المرحلة العقلية لا بد أن تنظر إلى مقياس الشرع فيه، فإن كان مطابقاً للشرع فبها ونعمت، وإن كان مخالفاً فاتهم عقلك ولا تتهم الشرع.

فالخلاصة فيما سبق: الوحي فوق العقل، والعقل يتدبره ليفهم، والعقل فوق الهوى ليطوعه على وفق الوحي، فيعمل بالشرع سلوكاً ونشاطاً.

لم يخالف أهل السنة المعتزلة؟

المعتزلة جعلوا العقل حاكماً على الشرع، وبسبب ذكاءهم المفرط أرادوا أن يصلوا إلى الحق بذكائهم ومنطقهم وعقلهم.

فقال أهل السنة لهم: الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطاكم المنطق والعقل وجعل له قائدا وهو (الوحي) الذي يقود عقولكم، لا أن تجعلوا العقل قائدا للوحي، بل العقل أداة لإدراك الوحي وفهمه قبل تطبيقه، وليس قيما على الوحي ينتقي ما يراه ملائما لفهمه..

وهذه هي المشكلة الحقيقية بين أهل السنة والمعتزلة، وبني عليها فيما بعد فروع كثيرة؛ لأنهم وصلوا المرحلة تأليه العقل، فجعلوه الميزان الذي يزنون به الشرع، ولذلك أنكروا رؤية الله تعالى في الآخرة؛ لأن عقولهم لم تستوعب ذلك، والله تعالى يقول ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ﴾ [القيامة: ٢٣]، والنبي ﷺ يقول: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ كِلَةَ الْبَدْرِ لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(١) فالرؤية واردة ومعلومة في القرآن والسنة، أما المعتزلة قالوا: لا، فالرؤية بالعقل تحتاج أن يكون هناك آلة، ويكون المرئي في جهة، ويكون هناك ضوء واصل بينهما، والرؤية تقتضي الإحاطة، والله ليس في جهة ولا يحاط به، وبالتالي ليس هناك رؤية، فجعلوا المقياس هنا هو العقل لنفي الرؤية، وكأن عقولهم لم يستطع أن يتخيل أن هناك رؤية بغير إحاطة ولا جهة، ولقد خلق الله سبحانه الإنسان وجعله يرى المنامات، ولو انتبهوا لذلك لم ينكروا الرؤيا، فأنت تنام وترى الرؤيا فترى بغير عين، و تتحرك بغير انتقال، كأن ترى وأنت نائم بأنك تطوف حول الكعبة وأنت في بيتك في القاهرة، ولم

(١) البخاري (٥٥٣) عَنْ قَيْسٍ عَنْ جَرِيرٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَظَنَرُ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ثُمَّ قَرَأَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ قَالَ إِسْمَاعِيلُ افْعَلُوا لَا تَفُوتَنكُمْ». ورواه مسلم (١٤٦٦)، أبو داود (٤٧٣١)، الترمذي (٢٧٥٢)، ابن ماجه (١٨٢)، احمد (١١٢٨٩).

تنتقل من مكانك، ولم تفتح عينيك وهي آلة البصر، فترى في المنام بغير عينيك وتتحرك بغير انتقال؛ لأن الله ﷻ يريد أن يقول لعقلك: يا عقل لا تزن كل أمور الشرع بنفسك في يقظتك؛ لأن هناك ما هو فوق العقل وهي قدرة الله ﷻ، فلا تقيد قدرة الله ﷻ بعقلك، ولذلك متى طلبت الحق بعقلك ضللت، بل تطلب الحق بالوحي والنبوة، ولذلك خلق الله ﷻ الناس بعقولهم وأرسل لهم أنبياء ورسلا. ولم أرسل الله ﷻ إليهم الرسل؟؟ لأن العقل غير كافٍ لإدراك مراد الله من الإنسان وتفاصيل تكاليفه الشرعية.

ف نجد أن بعض الفلاسفة أيقنوا بوجود الله ﷻ وأنكروا وجود الرسل، وقالوا: وصلنا بالعقل لمعرفة الله فلا نحتاج للرسل. فبعضهم وحدوا الله ﷻ ووصفوه بكل كمال، ولم يجعلوا معه ولدا ولا صاحبة، ولكن وقعوا بعقولهم في مشكلة إنكار الرسل؛ لأنهم أرادوا الوصول إلى الحق بالعقل، أما نحن فنصل إلى الحق بالحق؛ لأنك لو عرفت وجود الله ﷻ بعقلك فكيف تعرف مراده منك بغير وحي الرسل.

ولذلك يقول سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: (عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي) يعني عرفت الحق بالحق.

ثم قال المصنف: (وَمَتَى طَلَبْتَ الْآخِرَةَ بِالْهُوَى فَقَدْ ضَلَلْتَ) لماذا؟؟ لأنه إذا اختلط العمل الأخروي بالهوى يصير دنيوياً، فتعبد الله ليقال عليك عابداً، فيقبل الخلق عليك تبركا بك ليقضوا لك حاجاتك، وقد تعمل العمل الصالح من أجل راحة نفسك، فأنت بهذا تعبد لنفسك لا لربك، وقال عز وجل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: أعبدك لا بنفسك بل مستعيناً بكن مستمداً منك، ومهتدياً بهديكن قاصداً إياك لا شيء سواك.

٩- الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ نُورَ اللَّهِ، وَالْعَارِفُ يَنْظُرُ بِهِ إِلَيْهِ.

قال المصنف: (الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، وَالْعَارِفُ يَنْظُرُ بِهِ إِلَيْهِ) كما في الحديث الشريف «كُنْتُ سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»^(١) ونور الله هو الشرع الشريف، والشرع الشريف هو سيدنا محمد ﷺ؛ لأنه كان قرآنًا يمشي على الأرض، فنحن ننظر بالنبي ﷺ. واليهود عندما طعنوا في النبي ﷺ قالوا: ﴿وَرَعَيْنَا لَيَّا بِلَيْسِنِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، والدين هنا هو النبي ﷺ لأنهم طعنوا فيه، فأنت لابد أن تنظر إلى أحوالك من خلال منظر النبي ﷺ.

وقول الشيخ: (وَالْعَارِفُ يَنْظُرُ بِهِ إِلَيْهِ) أي العارف ينظر بالنبي ﷺ إلى الله سبحانه، فالمؤمن ينظر بالنبي ﷺ لمعرفة الحق فإذا استقرت المعارف في قلبه رأى الله سبحانه وتعالى من خلال النبي ﷺ.

فقد تجد إنسانًا كل همه ضبط الأحكام الشرعية وغفل عن أنه يفعلها لله تعالى، فهذا مشغول بإتقان العبادة عن النظر لله ﷻ، فيكون محجوبًا.

والمؤمن ينظر بنور الله وهو سيدنا محمد ﷺ فهو الواسطة بينك وبين الوصول إلى الله تعالى، فهو واسطة بذاته قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وسيدنا محمد ﷺ واسطة بإشارته

(١) البخاري (٦٥٨١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتُهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ.

وهديه وسنته والكتاب الذي أنزل عليه، قال الله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فإذا ارتقى السالك صار ينظر بالنبي ﷺ إلى الله ﷻ، ولذلك قال سيدي عبد السلام بن مشيش^(١) رحمه الله عن سيدنا محمد ﷺ الحجاب الأعظم في صيغة صلاته على النبي ﷺ قال: (واجعل الحجاب الأعظم حياة روعي وروحه سر حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي).

(١) هو القطب الأكبر، والعالم الأشهر، والطود الأظهر، عبد السلام بن سليمان بن أبي بكر بن علي الحسني، ولد سنة تسع وخمسين وخمسمائة من الهجرة في منطقة بني عروس بالغرب من طنجة في المغرب العربي، ثم انتقل للعيش في جبل العلم قرب العرائش، وهناك توفي سنة خمس وعشرين وستمائة من الهجرة شهيداً على يد قوم بعثهم ابن أبي الطواجين السامر المدعي النبوة. يقول الشيخ عبد الحليم محمود في كتابه القطب الشهيد: مما وقع له أثناء سياحته أنه بات ليلة في مغارة وبينما هو يتعبد إذ رأى شيخاً يدخل عليه المغارة فقال له: من أنت؟ قال الشيخ: أنا شيخك منذ أن كنت ابن سبع سنين وكل ما يصلك من النازلات فهو مني، وهي كذا وكذا فحدثه بجميع ما جرى له من الأمور.

وشيخه هو سيدي (عبد الرحمن بن الحسن المدني الشريف) المدعو (بالزيات) سكناه بحارة الزياتين بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. تلميذه ووارثه أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، كان سيدنا أبو الحسن الشاذلي ذا همة عالية عليه لا يرتضي غير القطب كي يكون شيخه وقائده في طريق السير إلى الله. فخرج من المغرب العربي وسار في البلدان وقطع الصحاري والبحار والتقى الكثير من العلماء والفقهاء والأولياء حتى وصل إلى العراق. يقول القطب أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه متحدثاً عن نفسه (لما دخلت العراق التقيت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله، وكان مطلبي على القطب فقال لي «أنت تطلب القطب وهو ببلاذك ارجع إلى بلادك تجده»).

فرجع سيدنا أبو الحسن الشاذلي إلى المغرب والتقى بشيخه عبد السلام بن مشيش قال رضي الله عنه: لما قدمت عليه وهو ساكن مغارة برباطة في رأس الجبل اغتسلت في عين أسفل الجبل وخرجت عن علمي وعملي وطلعت عليه فقيراً وإذا به هابط عليّ، فلما رأيته قال: (مرحباً بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار) وذكر لي نسبي إلى رسول الله ﷺ ثم قال لي: يا علي طلعت البنا فقيراً عن علمك وعملك أخذت منا غنى الدنيا والآخرة. فأخذني منه الدهش فأقمت عنده إلى أن فتح الله علي بصيرتي ورأيت له خرق عادات من كرامات وغيرها.

فالنبي ﷺ حجابٌ أعظم. لماذا؟ لأنه حجب من عصاه عن الوصول إلى الحق، ووصل من اتبعه إلى الله عز وجل، فمثاله كالمنظار على عينك لو كان الزجاج الذي عليها مشوشاً، فسوف يمنع الرؤية، ولو كان مناسباً لنظرك (ورقيق ونقي) ويمنع المشوشات سيكون موصلاً للرؤية الواضحة، فهذه النظارة يمكن أن تكون حجاباً وممكن أن تكون وسيلة لتوضيح الرؤية. والنبي ﷺ كذلك يكون حجاباً ويكون موصلاً، فهو الموصل القاطع الذي يقطع كل من أنكر نبوته عن الوصول إلى الله ﷻ، ويوصل كل من اعترف بنبوته وأحبه فوق نفسه إلى الوصول للحق.

١٠- مَا دُمْتَ أَنْتَ مَعَكَ أَرْنَاكَ، فَإِذَا فَنَيْتَ عَنْكَ تَوَيْنَاكَ، وَمَا تَوَلَّاهُمْ إِلَّا دَفَنًا مِّمًّا.

قال المصنف: (مَا دُمْتَ أَنْتَ مَعَكَ أَرْنَاكَ) أي أمرناك أن تخرج منك، فالإنسان مع نفسه ومع التكاليف تحت الأمر والنهي. فإذا كنت تشعر بنفسك وكيونتك فأنت عبدٌ ومكلفٌ وهذا مقام الفرق. فما دمت أنت معك فمجهود (إياك نعبد)، وما دمت أنت معي فمحمول (إياك نستعين).

ثم قال المصنف: (إِذَا فَنَيْتَ عَنْكَ تَوَلَّيْنَاكَ) فإذا فنيت عن نفسك وحولك وقوتك وتبرأت منها توليناك، وإذا فنيت عن حولك إلى حوله وعن قوتك إلى قوته وفنيت حتى عن علمك إلى علمه وعن عملك إلى سابق فضله فعندئذ يتولاك، ولذلك تجد الولي أكثر الناس افتقاراً واضطراراً إلى الله تعالى، أما المحجوب فيقول بنفسه وبخبرتي وبقوتي وبجهدي بياء المتكلم دائماً.

فإذا شعرت بنفسك فأنت مكلف، وإذا استشعرت افتقارك إلى الله ﷻ فأنت محمول مكرم، فتفعل التكليف بغير عناء.

فالولي منشرح الصدر دائماً؛ لأنه يستقبل الأوامر من الله بالله إلى الله ﷻ، أي منه وإليه، وغير الولي تجده منقبضاً؛ لأنه يستشعر نفسه فيها.

ثم قال المصنف: (وَمَا تَوَلَّاهُمْ إِلَّا بَعْدَ فَنَائِهِمْ) عن كل وصف ذميم يحجبهم عن التوكل على الله ﷻ، والتفويض والثقة في الله ﷻ وعدم النظر إلى سواه.

١١- مَا دُمْتَ أَنْتَ فَأَنْتَ مُرِيدٌ، وَإِذَا أَفْنَاكَ عَنْكَ فَأَنْتَ مُرَادٌ.

قال المصنف: (مَا دُمْتَ أَنْتَ فَأَنْتَ مُرِيدٌ) مع مقاساة المجاهدات، فأنت مرید مُجاهد نفسك متوجهاً لمولاك.

ثم قال المصنف: (وَإِذَا أَفْنَاكَ عَنْكَ فَأَنْتَ مُرَادٌ) صرت محبوباً محمولاً مُجتباً مُعاناً موفقاً.

١٢- الْيَقِينُ الْأَدْوَمُ فِي يَتِكَ عَنْكَ، وَوُجُودُكَ بِهِ، فَكَمْ نَ مَنْ يَكُونُ بِأَمْرِهِ وَيَبِينُ مَنْ يَكُونُ بِهِ.

قال المصنف: (الْيَقِينُ الْأَدْوَمُ فِي غَيْبَتِكَ عَنْكَ، وَوُجُودُكَ بِهِ) اليقين الدائم أن تكون مع الدائم، ولو كنت مع سوى الدائم سيزول ذلك اليقين؛ لأن كل ما سوى الله زائل ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ثم قال المصنف: (فَكَمْ يَبِينُ مَنْ يَكُونُ بِأَمْرِهِ وَيَبِينُ مَنْ يَكُونُ بِهِ) فكم من مسافة طويلة ومرتبة متفاوتة بين من هو مشغول بأمر الله ﷻ مجاهداً لنفسه حال كونه مريداً وبين من يكون مستعيناً بالله معتمداً عليه عابداً له به، فهناك فرق كبير بين المريد والمراد، وبين المنيب والمجتبى.

١٣- إِنْ كُنْتَ قَائِماً بِأَمْرِهِ خَضَعْتَ لَكَ الْأَسْبَابُ، وَإِنْ كُنْتَ قَائِماً بِهِ تَضَعُ خَضَعْتَ لَكَ الْأَكْوَانُ.

قال المصنف: (إِنْ كُنْتَ قَائِماً بِأَمْرِهِ خَضَعْتَ لَكَ الْأَسْبَابُ) فحينما تكون مع الله ﷻ قائماً بأمره تخضع لك الأسباب.

ثم قال المصنف: (وَإِنْ كُنْتَ قَائِماً بِهِ تَضَعُ خَضَعْتَ لَكَ الْأَكْوَانُ) ذَلِكَ وَخَضَعْتَ واستسلمت لك الأكوان فصرت سيد الأكوان، وهذا ورد في الحديث: « كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا » وفي رواية بالمعنى (كُنْتُه). وورد في الأثر عن الأولياء (عبدى أطعني تكن عبداً ربانيا يقول للشئ كن فيكون)، لأنه يقول بالله لا بلسانه ونفسه.

١٤- أَوَّلُ الْمَقَامَاتِ الصَّبْرِ عَلَى مُرَادِهِ، وَأَوْسَطُهَا الرِّضَا بِمُرَادِهِ، وَآخِرُهَا أَنْ تَكُونَ مُرَّاً بِمُرَادِهِ.

قال المصنف: (أَوَّلُ الْمَقَامَاتِ الصَّبْرِ عَلَى مُرَادِهِ) فمقام الصبر قبل الرضا، فلا بد أن تصبر أولاً حتى تنتقل من الصبر إلى الرضا؛ لأن الصبر يكون على غير المرغوب لكي تُوطَدَ نفسك على أن تكون رغبتك هي مراده. فاذا واجهتك الأقدار بما تكرهه فليس أمامك إلا الصبر، والصبر سكون، أي: سكون

القلب تحت عجلة الأقدار فلا يشكو ولا يضجر، وهذا هو الصبر الجميل؛ لأن من يصبر ثم يشكو ويضجر ويتوجع ويشتكى الحق للخلق فصبره غير جميل، فالصبر الجميل على المكاره ينقلك مباشرة للرضا بقضائه، فأول المقامات الصبر على مراده، ومراده قد يكون شرعياً أو كونياً أو قدرياً.

فالمراد الشرعي: أوامر ونواهٍ تلتزمها وتجتنبها كإقامة الصلاة في أوقاتها لا أن تصلي يوماً وتترك يوماً، وصوم رمضان وحج البيت للمستطيع وإيتاء الزكاة من الأغنياء للفقراء وتجنب المحارم وحسن الأخلاق والإحسان للخلق وغير ذلك.

أما المراد الكوني: أن يجعلك الله ﷻ كائناً على هذه الحالة.

فأنت لا تختار المراد الشرعي ولكن الله ﷻ يختارك له، فأنت مع مراده الشرعي، كالصلاة والجهاد والصيام والسعي فيما يحبه الله ﷻ والصبر على ذلك، وكل ذلك يستدعي منك الحركة وبذل الجهد.

أما مع مراده الكوني: فالصبر فيه سكون لأقداره، فالله ﷻ يتعبدك بالحركة وبالسكون ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣]، فلا بد أن تسكن لأقدار الله، ولا بد أن تتحرك بشرع الله.

ثم قال المصنف: (وأوسطها الرضا بمراده) لأنك إن اعتدت على الصبر ستنتقل إلى الرضا بقضاء الله ﷻ، فتقوم بالطاعات عن رضا لا عن مجاهدة ومشقة، فتصير الطاعات فيك سجية.

ولا بد أن يكون الصبر على المكاره عند الصدمة الأولى، كي يكون صبراً محموداً مثاباً عليه الثواب الأكمل، فالرضا يكون بالقضاء والمقضي، وكذا بحكمه الشرعي من أمر ونهي.

ثم قال المصنف: (وَأَخْرُهَا أَنْ تَكُونَ مُحِبًّا لِمُرَادِهِ) من قبل أن تعرف مراده، فتبدأ صابراً وتتوسط راضياً، ثم تصير محباً محبوباً.

ويُعبّر العوام عن هذه المرحلة الأخيرة بقولهم « ضرب الحبيب كأكل الزبيب » فحينما يكون الله ﷻ حبيبك ستكون أقداره محبوبةً، فتصير بعد ذلك به لا بنفسك، فكل ما يأتي من المحبوب مرغوب.

١٥- العلم طريق العمل، والعمل رُق العلم.

١٦- والعلم طريق المعرفة، والمعرفة طريق الكشف، والكشف رُق الفناء.

العلم علمان:

الأول: العلم الكسبي وهو المقصود في هذه العبارة، وهو الذي تتعلمه على يد الشيخ وفق الكتاب والسنة والأدلة الشرعية، فلا بد أن تتعلم لتعمل؛ لأن العمل بلا علم قد يكون باطلاً، أو فاسداً، أو ناقصاً.

فإذا عملت بما علمت أورثك الله علم ما لم تعلم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وهذا هو العلم الثاني: وهو العلم الوهبي الذي يؤدي إلى المعرفة بالله.

والصوفية يُفرّقون بين العلم والمعرفة، فالعلم عندهم: هو الذي يفتقر إلى دليل، والمعرفة: هي التي تستغني عن الدليل، فالمعرفة أقوى من العلم؛ لأنها من الله ﷻ، فإذا وهبك الله علماً في قلبك لا يفتقر إلى دليل صار معرفة.

فلا بد أن تعبد الله ﷻ بالعلم حتى تنبت في قلبك شجرة المعرفة، والمعرفة بداية المشاهدة فيصير الله ﷻ في قلبك لا يحتاج إلى دليل، فهو ضروري الوجود، كما قال سيدنا علي عليه السلام (عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي) أما الأعرابي فقال: (البعرة تدل على البعير) فالأعرابي سار مع الدليل فأوصله إلى الله ﷻ، وسيدنا علي عليه السلام سار مع الله فأوصله الله، فهذا مقام وهذا مقام.

قال المصنف: (والعلمُ طريقُ المعرفة، والمعرفةُ طريقُ الكشف) والكشف أعلى من المعرفة؛ لأن فيه المعاينة والمعايشة.

ثم قال المصنف: (والكشفُ طريقُ الفناء) لأنه إذا انجلت أمامك الحقائق فنت الأكوان، فلا تجد إلا الله ﷻ فتفنى عما سوى الله، فترى الله بالله، وترى الباقي بالباقي ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، فلا شيء مع الله ﷻ وإنما كل شيء بالله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، والنبي ﷺ يقول: «أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ»^(١) فإذا كنت به كان سمعك وبصرك،

(١) مسلم (١٨٤٨) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَأَعِزَّنِي لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ لَبِيتُكَ وَسَعَدْتُكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ وَإِذَا رَكَعَ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصْبِي وَإِذَا رَفَعَ قَالَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءَ السَّمَوَاتِ وَمِلءَ الْأَرْضِ وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ وَإِذَا سَجَدَ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ

فالكشف طريق الفناء، والفناء يعرفك وحدة الوجود عند الصوفية التي لم يفهمها كثير من الناس، وهي أن الموجود واحد والتجليات متعددة في صور متعددة، فلا تشغل بالتجليات عن المتجلي، فتعلم أنه هو لا سواه وتعرف أنك به لا بنفسك، فالمتجلي واحد والتجليات متعددة غير منحصرة، والفناء عما سوى الله يجعلك تعيش معنى لا حول ولا قوة إلا بالله

١٧- مَا صَلَّحْتَ لَنَا وَفِيكَ بَقِيَّةٌ لِسَوَانَا، فَإِذَا حَوَّتِ السَّوَى أَفْنِيَاكَ عَنْكَ، فَصَلَّحْتَ نَا فَأَوْدَعْنَاكَ سِرَّنَا.

قال المصنف: (مَا صَلَّحْتَ لَنَا وَفِيكَ بَقِيَّةٌ لِسَوَانَا) وهذا من باب المخاطبات عند الصوفية، أي: يخاطبك الله ﷻ في نفسك؛ لأنه أقرب إليك منك ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وهذا حدث مع سيدنا أبي يزيد البسطامي رحمه الله حيث قال (خاطبني في داخلي فقلت له: كيف أصل إليك يا ربي؟ فخاطبني وقال: اترك نفسك تجدني) أي: لا تصلح لنا إذا التفت لغيرنا، فإن أردت سوانا ما صلحت لنا، أي لحضرتنا ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ثم قال المصنف: (إِذَا حَوَّتِ السَّوَى أَفْنِيَاكَ عَنْكَ) لأن نفسك من السوى، فاقطع كل العلائق عن الله حتى نفسك، قال سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله في الصلاة الدسوقية (خذني إليك مني وارزقني الفناء عني) وقلت في صلاة الباقي من صلوات أسماء الله الحسنى (فأكون فانيا في عين بقائك، وباقيا في عين فنائي).

تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ الشَّهْدِ وَالسَّلَامِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». ورواه أبو داود (٧٦٠)، الترمذي (٣٧٥٠)، النسائي (٩٠٥).

ثم قال المصنف: (فَصَلَّحْتَ لَنَا فَأَوْدَعْنَاكَ سِرَّنَا)، أي: سر الوجود، فلا يوجد معه شيء ولا موجود إلا هو، وهي المرتبة التي وصل إليها الحلاج^(١) وتكلم على لسان الموجود فأخطأوا فهمه حين قال: (ما في الجبة إلا الله)، أي: ما في الكون إلا الله ﷻ ظاهراً، وسواه مظاهر فانية، وهم فهموا أنه يقصد الجبة هي التي يلبسها. أما الجبة في نظر الحلاج هو حجاب الكون، فلما نظر في حجاب الكون وفتشه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فتحقق بقوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]، فهو يتكلم من بحر الفناء، فأخطأوا فهمه؛ لأنهم في بحر البقاء فكفروا ثم قتلوه، وقتل؛ لأنه أفشى السر، ومن أفشى السر حُكم عليه بالقتل؛ وإن لم يقتل سيصير فتنة للناس؛ لأنه في صورة المخلوق ويكلمهم على لسان الخالق، فقتل بسيف الشريعة ونجا ببرهان الحقيقة.

(١) أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج (رحمه الله) ولد (٢٤٤هـ) نشأ بالعراق وصحب الجنيـد والثوري وعمرو بن عثمان المكي والشعري والسبلي وغيرهم رحمهم الله أجمعين اختلف المشايخ في أمره فمنهم أبوا أن يكون له قدم في التصوف وقبـله الباقيـن وأثنوا عليه. قال محمد بن حنيف (الحسين بن منصور عالم رباني). وكما نرى استشهد بكلامه الامام القشيري في ذكر عقيدة الصوفية وجعله من أئمتهم في كتابة الرسالة القشيرية. من كلامه رحمه الله عندما سُئل عن المريد فقال: (هو الرامي بأول قصده إلى الله تعالى فلا يعرج حتى يصل). وكان يقول (من لاحظ الأعمال حُجب عن المعمول له ومن لاحظ المعمول حُجب عن الأعمال) (الطبقات الكبرى للشعراني). قال الشعراني رحمه الله في كتابه لطائف المنن ج ٢ ص ٨٤ (وقد كان الشيخ أبو العباس المرسـي رضي الله عنه يقول أكره من الفقهاء خصلتين: قولهم بكفر الحلاج وقولهم بموت الخضر عليه السلام أما الحلاج فلم يثبت عنه ما يوجب القتل وما نقل عنه يصح تأويله). وقال عنه الشيخ عبد القادر الجيلاني (رضي الله عنه) (عثر الحلاج في زمانه فلم يجد من يأخذ بيده ولو كنت في زمانه لأخذت بيده). قُتل رحمه الله في بغداد (٣٠٩هـ) ودفن هناك وله مقام يزار إلى يومنا هذا.

١٨- إِذَا لَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ رَءْيُ نَفْسِكَ كُلِّ يَمِينِكَ، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَكَ
وُجُودٌ عِنْدَكَ كُلُّ تَوْحِيدِكَ.

قال المصنف: (إِذَا لَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ حَرَكَةُ لِنَفْسِكَ كَمَلُ يَقِينِكَ) إِذَا لَمْ تَكُن
كل حركة تفعلها لله ﷻ لم يكمل يقينك.

ثم قال المصنف: (وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَكَ وُجُودٌ عِنْدَكَ كَمَلُ تَوْحِيدِكَ)، لِأَنَّ
الله واحد ولا يوجد معه أحد، فطالما تشعر بوجود نفسك صارت اثنيانية خالق
ومخلوق، فأين التوحيد؟؟

والتوحيد أن لا يوجد معه أحد، فلا تستشعر بوجود ذاتي منفصل عن الله
ﷻ، ولا بد أن تستشعر أنك موجود به لا معه (مَا وَحْدَهُ إِلَّا الْوَاحِدُ) أي: وحد
نفسه على لسان خلقه، وإن وحده واحد بنفسه صار جاحداً؛ لأنه اعتبر نفسه
موجوداً معه فله فعل منفصل عن الله ﷻ وهو عين الجحود.

اعلم أن فهمك لهذا الكلام وتذوقه بداية الولاية، لأن هناك أناساً لا
يستطيعون فهم هذا الكلام وإشارته.

١٩- أَهْلُ الْبَاطِنِ مَعَ الْيَقِينِ، وَأَهْلُ الظَّاهِرِ مَعَ الْإِيمَانِ، فَمَتَى تَرَكَّ
قَلْبُ صَاحِبِ الْيَقِينِ نَقَصَ يَقِينُهُ، وَمَتَى لَمْ يَرُءْ خَارِ كُلِّ يَمِينِهِ،
وَمَتَى تَرَكَّ قَلْبُ صَاحِبِ الْإِيمَانِ بَغَيْرِ الْأَمْرِ نَقَصَ إِيْمَانُهُ، وَمَتَى تَرَكَّ
بِالْأَمْرِ كُلِّ إِيْمَانُهُ.

قال المصنف: (أَهْلُ الْبَاطِنِ مَعَ الْيَقِينِ)، لِأَنَّهُمْ مَعَ الْحَقَائِقِ، فَهُمْ أَهْلُ
معرفة.

ثم قال المصنف: (وَأَهْلُ الظَّاهِرِ مَعَ الْإِيمَانِ)، لأنهم مع الدليل، والدليل ظاهر، والدليل وسيلة الوصول للإيمان.

ثم قال المصنف: (فَمَتَى تَحَرَّكَ قَلْبُ صَاحِبِ الْيَقِينِ نَقَصَ يَقِينُهُ) لأن اليقين سكون على مراد الله ﷻ ورضاه، فعندما يتحرك ويفرض نقص يقينه بقدر حركته. والمقصود بحركة القلب الهم واليأس والفرح مع الغفلة، والركون للنعم، وتلهف القلب لتغير الحال الذي أقامك الله فيه، فصاحب اليقين مطمئن وساكن تحت مطارق الأقدار.

ثم قال المصنف: (وَمَتَى لَمْ يَخْطُرْ لَهُ خَاطِرٌ كَمَلَ يَقِينُهُ) أي: خاطر نفساني (شهوة ملحة) أو خاطر شيطاني (غفلة أو معصية) لسكونه تحت مراد مولاه فلا تتلاعب به الخواطر لكمال يقينه.

ثم قال المصنف: (وَمَتَى تَحَرَّكَ قَلْبُ صَاحِبِ الْإِيمَانِ بَغَيْرِ الْأَمْرِ نَقَصَ إِيْمَانُهُ)، لأن المؤمن يمشي مع الدليل الشرعي، والدليل يطالبك بالصلاة أو الزكاة أو الطاعة مطلقا، فمتى تحرك القلب بخلاف الأمر فوقع بالمخالفة إما استهانة بالأمر أو تسويفا فحينئذ ينقص إيمانه بقدر حركة هذا الخاطر. ومتى تحرك القلب بخلاف الأمر الكوني القدري الذي فيه اختبار كانت أيضا مخالفة ينبني عليها نقص الإيمان.

ثم قال المصنف: (وَمَتَى تَحَرَّكَ بِالْأَمْرِ كَمَلَ إِيْمَانُهُ) لأن الشرع إما أن يأمرك بالفعل أو الترك، وعليك أن تنصاع لفعل الأوامر دون تسويق أو تكاسل أو تردد، ومن مقتضيات الإيمان التسليم والانقياد لحكم الله فيما قدره عليك من إقامة؛ لأن الله أقام العباد فيما أراد؛ فتحمدته عند النعمة وتصبر عند الشدة وتسارع بالتوبة عند المعصية فإذا فعلت ذلك كمل إيمانك.

٢٠- مَعْصِيَةُ أَهْلِ الْيَقِينِ كُفْرٌ، وَمَعْصِيَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ نَقْصٌ.

قال المصنف: (مَعْصِيَةُ أَهْلِ الْيَقِينِ كُفْرٌ) لأن اليقين هو التصديق الجازم، وهو غير المفتقر للدليل، فحينما تشك في اليقين تقع في الكفر، أي كفر نعمة، وكفر عمل، أو كفر اعتقاد أي غطيت نعمة اليقين بالجحود.

ثم قال المصنف: (وَمَعْصِيَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ نَقْصٌ) لأن النبي ﷺ عَلَّمَنَا أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ^(١)، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. ومن هذا يتضح (أن)

(١) قال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية: والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب، والسنة، والآثار السلفية كثيرة جداً: منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١٢٤] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رُجْسًا إِلَى رُجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم النساء بنقصان العقل والدين، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، والمراد نفي الكمال، ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان، وحديث الشفاعة، وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان.

فكيف يقال بعد هذا: إن إيمان أهل السماوات والأرض سواء؟! وإنما التفاضل بينهم بمعانٍ آخر غير الإيمان؟!.

وكلام الصحابة - رضي الله عنهم - في هذا المعنى كثير أيضاً: منه: قول أبي الدرداء - رضي الله عنه - من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص. وكان عمر - رضي الله عنه - يقول لأصحابه: هلموا نردد إيماناً، فيذكرون الله عز وجل. وكان ابن مسعود - رضي الله عنه - يقول في دعائه: اللهم زدنا إيماناً، و يقيناً، وفقهاً. وكان معاذ بن جبل - رضي الله عنه - يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن ساعة. ومثله عن عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - وصح

حسنت الأبرار سيئات المقربين) أي: حسنت الأبرار من أهل اليمين سيئات عند المقربين من أهل اليقين، حيث أنهم لا يرجون سوى الله ﷻ بغير نظر إلى جنة أو نار، فهم متوجهون إلى الله مستأنسون به غير ملتفتين لسواه، ولا شك أن الثواب والعقاب من السوى.

٢١- الْمُتَّقِي مُجْتَهِدٌ، وَالْحَبُّ مَتْلٌ، وَالْعَارِفُ سَكَنٌ، وَالْمَوْجُودُ مَفْقُودٌ.

قال المصنف: (الْمُتَّقِي مُجْتَهِدٌ) لأنه يجاهد نفسه ويراقب ربه، ثم قال (وَالْمَحَبُّ مَتْلٌ) لأنه محمول برضاه وأنسه بمولاه، ثم قال (وَالْعَارِفُ سَاكِنٌ) أَسْكَانُ الْقَلْبِ؛ لأنه اطمئن بالله الذي يحركه كيف يشاء، قال ثم قال (الْمَوْجُودُ مَفْقُودٌ) فالموجود بالله مفقود عن نفسه إذ لا شعور له إلا بأنه قائم بالله ﷻ، فصار باقيا بالله في عين فناءه عن نفسه.

٢٢- لَا سُكُونَ لِتَقِيٍّ، وَلَا عَزْمَ لِحَبٍّ، وَلَا حَرَكَةَ لِعَارِفٍ، وَلَا وَجُودَ لِمَفْقُودٍ.

قال المصنف: (لَا سُكُونَ لِتَقِيٍّ) لأن المتقي مجتهد متحرك لطاعة ربه فلو سكن وقع في المعاصي فالتقوى كمال الانتباه.

ثم قال: (وَلَا عَزْمَ لِمَحَبٍّ) لأن العزم هو النية والإرادة والاختيار، فالمحب ترك اختياره لمحبه، فصار هواه مطابقا لمراد مولاه.

عن عمار بن ياسر - رضي الله عنه - أنه قال: ثلاث من كن فيه، فقد استكمل الإيمان: إنصاف من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم. ذكره البخاري - رحمه الله - في صحيحه.

ثم قال: (ولا حركة لعارف) فالعارف بمواقع الأقدار وتفويضه لتدبير مولاه سكن قلبه، فلا حركة فيه من قلق أو لهفة أو ضجر لكمال استسلامه وانقياده فهو في مقام التفويض.

وعندنا التفويض أعلى من التوكل فالتوكل مقام المحبين، والتفويض مقام العارفين، والمجاهدة مقام المتقين، كما قال ربنا ﷻ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤) [الصفات: ١٦٤].

ثم قال: المصنف: (لا وجود لمفقود) يعنى: إن فقدت نفسك ووجودك صرْتَ به ولم تجد إلا الله ﷻ، أما لو صرت مع نفسك حُجبت بها عن مولاك، فلا وجود نفساني لمفقود عن شهوته لوجوده بالموجود ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

٢٣- مَا تَحْصُلُ الْمَحَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ الْيَقِينِ.

قال المصنف: (مَا تَحْصُلُ الْمَحَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ الْيَقِينِ) لأن المحبة ثمرة اليقين الذي يدعوك إلى فعل ما أمرك الله به، والاجتهاد فيما أحبه الله ﷻ بفعل الطاعات والمستحبات ﴿وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ﴾^(١) فانتقل العبد بعد فعل الفرائض والنوافل إلى مقام المحبة، والله تعالى أعلى وأعلم.

٢٤- الْمُحِبُّ الصَّادِقُ قَدْ خَلَّاهُ سِوَاهُ، وَمَا دَامَ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِّمَّةٍ سِوَاهُ فَهُوَ نَاقِصُ الْمَحَبَّةِ.

(١) سبق تخريجه.

قال المصنف: (الْمُحِبُّ الصَّادِقُ قَدْ خَلَا قَلْبُهُ مِمَّا سِوَاهُ) أي: خلا قلبه من كل تعلق سوى الله ﷻ، إذ ليس مع الله شيء، وكل ما سواه عدم، وكل شيء بالله لا مع الله ﷻ.

ثم قال المصنف: (وَمَا دَامَ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مَحَبَّةٍ لِسِوَاهُ فَهُوَ نَاقِصُ الْمَحَبَّةِ) بقدر يقينك أنه ليس معه شيء بقدر خلوصك لله ﷻ، وبقدر نقص ذلك بقدر نقصك.

٢٥- مَنْ تَذَّرَ بِالْبَلَاءِ فَوُجُودٌ، وَمَنْ لَمْ يَذَّرْ بِالنِّعْمَةِ فَهُوَ مَوْجُودٌ، فَإِذَا أَفْنَاهُمْ عَنْهُمْ، ذَهَبَ التَّلَذُّذُ بِالْبَلَاءِ وَالنِّعْمَةِ.

قال المصنف: (مَنْ تَلَذَّذَ بِالْبَلَاءِ فَهُوَ مَوْجُودٌ، وَمَنْ تَلَذَّذَ بِالنِّعْمَةِ فَهُوَ مَوْجُودٌ) بعض الأولياء لا يشعر بمرارة البلاء، وذلك لكمال رضاه عن مولاه ﷻ، بل يتلذذ بالقضاء. فمثلاً سيدنا أبو بكر الشبلي رحمته الله (١) أخبروه أن ابنه مات، فقام يرقص، فالشبلي تلذذ بالبلاء. وهذه من علامات عدم الكمال فهو مع اللذة لا مع الله ﷻ فلا يزال عنده بقية شعور، أما النبي ﷺ حينما علم بموت ابنه إبراهيم عليه السلام بكى عليه، لأنه أراد أن يظهر العبودية، التي معناها الافتقار بإظهار الحزن الذي أراده الله ﷻ منه، فهو مع مراد الله ﷻ، ومراده تعالى من الابتلاء ألا تركز إلى النعمة فيبتليك بزوالها، وفي نفس الوقت يريد أن يظهر

(١) شيخ الطائفة أبو بكر الشبلي البغدادي، ولد في سامراء عام ٢٤٧ هجري، كان أبوه من كبار حجاب الخلافة، صحب الشبلي الامام الجنيد وغير ممن كانوا في عصره، كان الشبلي فقيها على مذهب الامام مالك، صار شيخ وقته: حالا وعلمًا ومقالًا، توفي سنة ٤٣٣ هجري ودفن في بغداد وله مقام يزار.

آثار زوالها فيك كعبد. ومن آثار زوالها الحزن لبيان الافتقار لفضل الله ﷻ، فهو مع كمال رضاه ﷻ يبكي كما يبكي العبد، ويحزن كما يحزن العبد، فهو متحقق بكمال العبودية، قائم بحقوق الربوبية، فيقول ﷻ: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَاللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمَ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»^(١) فيعطي لكل ذي حق حقه.

ثم قال المصنف: (فَإِذَا أَفْنَاهُمْ عَنْهُمْ) أي: عن أغراضهم وعن شهواتهم (ذَهَبَ التَّلَذُّدُ بِالْبَلَاءِ وَالنَّعْمَةِ) لأنه صار بالله ﷻ وتحقق به، وهو الذي يقبض ويبسط، فمن كان بالله لا يقبضه شيء ولا يبسطه شيء.

٢٦- الْمُحِبُّ أَنْفَاسَهُ حِكْمَةً وَالْمَحْبُوبُ أَنْفَاسَهُ قُدْرَةً.

قال المصنف: (الْمُحِبُّ أَنْفَاسَهُ حِكْمَةً وَالْمَحْبُوبُ أَنْفَاسَهُ قُدْرَةً) أنفاسه أي: أوقاته مشغلة بأسباب المحبة، فالحكمة عالم الأسباب، عالم الطاعة، عالم الوسيلة، فأنفاس المحب تسير مع مراد الله منه.

ثم قال: (وَالْمَحْبُوبُ) فهذا أعلى لأنه مراد من الله ﷻ (أَنْفَاسُهُ)، أي: أوقاته (قُدْرَةً) فهو مع الله ﷻ، فالمحب مشغول بالوسيلة، والمحبوب

(١) رواه البخاري (٦١٦٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وُلِدَ لِيَ اللَّيْلَةُ عَلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَى أُمِّ سَيْفٍ امْرَأَةٍ قَالَتْ لَهُ أَبُو سَيْفٍ فَأَنْطَلَقَ يَأْتِيهِ وَاتَّبَعْتُهُ فَأَنْتَهَيْتُنَا إِلَى أَبِي سَيْفٍ وَهُوَ يَنْفُخُ بِكَبِيرِهِ قَدْ امْتَلَأَ الْبَيْتُ دُخَانًا فَأَسْرَعْتُ الْمَشْيَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا أَبَا سَيْفٍ أُمْسِكْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمْسَكَ فَدَعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّبِيِّ فَصَمَّمَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ فَقَالَ أَنَسُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ وَهُوَ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَاللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمَ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ».

مشغول بالمتوسِّلِ إليه. فمثلاً من يسافر إلى مكان معين وغرضه المكان سيكون مشغولاً بوسيلة السفر وتجهيزها، وسبل الراحة، والطريق المناسب، والوقت المناسب للسفر، فهذا هو المحب لأن له هدفاً يريد الوصول إليه. أما المحبوب فهو محمول مثل الطفل النائم الذي يحمله والده فيفتح عينيه يجد نفسه في المكان المراد، فالمحبوب محمول مع القدرة والمحب سائر.

٢٧- الْعِبَادَاتُ لِلْمُعَاوَضَاتِ، وَالْمَحَبَّةُ لِلْقُرْبَاتِ.

قال المصنف: (الْعِبَادَاتُ لِلْمُعَاوَضَاتِ) العباد يبحثون عن العبادات من حيث ثوابها، فمثلاً فضل صلاة الجماعة سبع وعشرون درجة، والصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وبالمسجد الأقصى بخمسمائة صلاة، فهم مشغولون دائماً بالمعاوضات كأنهم تُجَّار.

ثم قال: (وَالْمَحَبَّةُ لِلْقُرْبَاتِ) فالعابد يثاب، والمحبوب يُقرب، والعابد تعطى له الصدقة من وراء الباب، أما المحبوب فيفتح له الباب ويدخل الحضرة؛ لأنه محبوب.

٢٨- أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَرَعَ قَلْبٌ مَرَّ: مَا أَرَادُونِي لِي أُعْطِيَهُمْ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ.

قال المصنف: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(١) لَمَّا أَرَادُونِي لِي؛ أي: لما أحبوني لي، أي: لذاتي لا للثواب ولا خوفاً من العقاب (أعطيتهم ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت).

٢٩- إِذَا أَفْنَاكَ عَنْ هَوَاكَ بِإِلْكَمَةٍ، وَعَنْ إِرَادَتِكَ بِالْعِلْمِ، صَرْتَ عَبْدًا صَرَفًا لَا هَوَى لَكَ وَلَا إِرَادَةَ.

قال المصنف: (إِذَا أَفْنَاكَ عَنْ هَوَاكَ بِالْحِكْمَةِ) أي: شغلك بتكاليف شرعية قد تأتي على خلاف هواك، فمثلاً يأمر بك صلاة الفجر وهواك يريد النوم.

ثم قال: (وَعَنْ إِرَادَتِكَ بِالْعِلْمِ) أي: عن مراداتك بالعلم به؛ لأنه يختار لك ما لا تحسن اختياره، فتعلم أن اختياره أفضل من اختيارك، فيخرجك بالعلم مما يريد أفضل مما تريد. ولذلك سيدنا أبو يزيد البسطامي رحمه الله في مخاطباته مع ربه ﷻ حين خاطبه من داخله وقال له يا أبا يزيد ماذا تريد؟ قال أبو يزيد: أريد ألا أريد؛ أي: أفنى عن إرادتي؛ لأن أبا يزيد البسطامي في مقام الرضا عن الله ﷻ، فلما سمع ذلك سيدنا محي الدين بن عربي رحمه الله وهو يتكلم من مقام المحبة قائلاً: لو كنت مكان أبي يزيد لقلت له: أريد ما تريد، أي: تصبح إرادتي تحب إرادتك قبل أن تعلمها، وهذا مقام أعلى وكلاهما من الأولياء وله مقام يخصه.

(١) رواه البخاري (٣٢٨٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ». ومسلم (٧٣١٠)، والترمذي (٣٥٠١).

ثم قال: (صرت عبدا صرفا لا هوى لك ولا إرادة) أي: لا شهوة لك ولا إرادة ولا اختيار.

٣٠- فَيُخَيِّدُ يُكْشِفُ لَكَ عَنْ نَفْسِكَ، فَتَضَمَّحِلُ الْعُبُودِيَّةَ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ، فَيَفْنَى الْعَبْدُ وَيَبْقَى الرَّبُّ تَمَامًا .

قال المصنف: (فَيُخَيِّدُ يُكْشِفُ لَكَ عَنْ نَفْسِكَ) فتبحث عن نفسك تجدها عدما ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، إلا وجه التجلي والإمداد.

ثم قال المصنف: (فَتَضَمَّحِلُ الْعُبُودِيَّةَ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ) لما يكشف لك عن نفسك ستجد نفسك سرايا ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]، فتخرج من العبودية إلى الوجدانية والربوبية، فأنت عدم محض إلا بتجليه، فتعلم أنك به متوحد لا متكرر ولا متعدد، لذلك قال المصنف: (فَيَفْنَى الْعَبْدُ وَيَبْقَى الرَّبُّ تَعَالَى).

٣١- الشَّرِيعَةُ كُلُّهَا قَبْضٌ، وَالْعِلْمُ كُلُّهُ سَطٌّ، الْمَعْرِفَةُ كُلُّهَا دَلَالٌ.

قال المصنف: (الشَّرِيعَةُ كُلُّهَا قَبْضٌ) لأنها تقبضك من هوائك إلى مراده. ثم قال: (وَالْعِلْمُ كُلُّهُ سَطٌّ) فكلما علمت أنك بالله انبسطت لك الأمور فاستعنت به فوجدته نِعَمَ المعين، وهذا هو معنى لا حول ولا قوة إلا بالله، (لا حول ولا قوة) قبض (إلا بالله) بسط، (لا حول ولا قوة) عبودية (إلا بالله) ربوبية، وهو نفس معنى (إياك نعبد وإياك نستعين) إياك نعبد عبودية، وإياك نستعين ربوبية، تبدأ عابداً لله ﷻ أي: له، وتنتهي عابداً بالله ﷻ أي: به، فالبداية في الصورة هي عين النهاية؛ لأن المبتدئ يعبد له والمنتهى يعبد به.

ثم قال: (الْمَعْرِفَةُ كُلُّهَا دَلَالٌ) لأنك تطلب من باب الكرم دون انتظار العمل؛ فالعارف يعلم أن مولاه هو الذي هداه ووفقه للطاعات قبل أن يطلب منه ذلك، فعلم أنه ﷺ يعطيه من دون عمل فلا يعتمد إلا على الكريم ولا يعتمد على العمل، المحب ناظر لفضل الله، والعابد ناظر لثواب العمل، والعارف ناظر لله.

٣٢- طَرِيقَتُنَا كُلُّهَا مَمَّةٌ لَا عَمَلٌ، وَفَنَاءٌ لَا بَقَاءٌ.

قال المصنف: (طَرِيقَتُنَا كُلُّهَا مَحَبَّةٌ لَا عَمَلٌ) طريق أهل الوصول لا تعب فيه؛ لأن المحب لا يتعب من خدمة حبيبه.

ثم قال المصنف: (وَفَنَاءٌ لَا بَقَاءٌ) فناء عن كل ما يحجب عن الله ﷻ، وبقاء في كل ما يرضي الله ﷻ.

٣٣- إِذَا دَخَلْتَ فِي الْعَمَلِ كُنْتَ لَكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ فِي الْمَحَبَةِ كُنْتَ .

قال المصنف: (إِذَا دَخَلْتَ فِي الْعَمَلِ كُنْتَ لَكَ) أي (إياك نعبد) فأنت في هذا المقام تعبد له خوفاً من النار وطمعاً في الجنة وسعة الرزق وتحصيل كل مرغوب وتجنب كل موهوب.

ثم قال (وِإِذَا دَخَلْتَ فِي الْمَحَبَةِ كُنْتَ لَهُ) وأقول زيادة على الإثنين: (إِذَا دَخَلْتَ فِي الْفَنَاءِ كُنْتَ بِهِ) وهذه لم يُنصَّ عليها المصنف: اعتماداً على فهمك، وكل لبیب بالإشارة يفهم.

٣٤- الْعَابِدُ رَأَى لِعِبَادَتِهِ، وَالْمُحِبُّ رَأَى رِئَاسَتِهِ.

قال المصنف: (الْعَابِدُ رَاءَ لِعِبَادَتِهِ) مراقبٌ لها ولأدائها، ثم قال (وَالْمُحِبُّ رَاءَ لِمَحَبَّتِهِ) فهو مشغول ومراقب لمحبوبه.

٣٥- إذا عرفته كانت أنفاسك به وحركاتك له، وإذا جهلته كانت ركتك لك.

فالمعرفة بالله تحقق بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله، وبالتالي وجودك به لا بنفسك، فتكون أنفاسك وحركاتك وسكناتك به، وإذا جهلته ظننت أن لك وجودا مستقلا، فتكون حركاتك بنفسك لنفسك لتحقيق شهوتك ورغبتك.

٣٦- الْعَابِدُ مَا لَهُ سُكُونٌ، وَالزَّاهِدُ مَا لَهُ رَغْبَةٌ، وَالصَّادِقُ مَا هُ ارْتِكَانٌ، وَالْعَارِفُ مَا هُ حَوْلٌ وَلَا لَهُ قُوَّةٌ وَلَا اخْتِيَارٌ وَلَا إِرَادَةٌ وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا سُكُونٌ.

قال المصنف: (الْعَابِدُ مَا لَهُ سُكُونٌ)؛ لأن العابد مشغول بالعبادة التي تقتضي الحركة والمجاهدة.

ثم قال: (وَالزَّاهِدُ مَا لَهُ رَغْبَةٌ) أي ما له تعلق بسوى الله ﷻ.

ثم قال المصنف: (وَالصَّادِقُ مَا هُ ارْتِكَانٌ)؛ أي ليس له اعتماد إلا على مولاه؛ إذ فضل الله جاءه قبل أن يعمل؛ فهل يتوقف فضل الله على علة؟! سبحانه وتعالى لا تحركه حكمة ولا توقفه علة.

ثم قال المصنف: (وَالْعَارِفُ مَا لَهُ حَوْلٌ وَلَا لَهُ قُوَّةٌ)؛ لأنه به، (وَلَا اخْتِيَارٌ) مع اختيار مولاه (وَلَا إِرَادَةٌ) ولا هوى له، (وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا سُكُونٌ) إلا بالله ﷻ.

٣٧- المَوْجُودُ مَا لَهُ وَجُودٌ.

قال المصنف: (المَوْجُودُ مَا لَهُ وَجُودٌ) أي: الموجود مع نفسه ليس له وجود مع ربه ﷻ، والموجود مع ربه ليس له وجود مع نفسه.

٣٨- إِذَا اسْتَأْنَسَتْ بِهِ اسْتَوْحَشْتَ مِنْكَ.

قال المصنف: (إِذَا اسْتَأْنَسَتْ بِهِ اسْتَوْحَشْتَ مِنْكَ) من علامة الإفلاس الاستئناس بالناس.

٣٩- مَنْ اشْتَغَلَ بِمَا هُمْ أَعْمِيَانَهُ، وَمَنْ اشْتَغَلَ بِأَنَا مَرَّانَهُ.

قال المصنف: (مَنْ اشْتَغَلَ بِمَا هُمْ أَعْمِيَانَهُ) أي: لنفسه (أَعْمِيَانَهُ) عن فضلنا وكرمنا فعاملناه بعدلنا. ثم قال: (وَمَنْ اشْتَغَلَ بِأَنَا مَرَّانَهُ) بفضائلنا وفواضلنا وخيرنا النازل الذي لا يتوقف على عمل.

٤٠- إِذَا زَالَ هَوَاكَ يُكْشَفُ لَكَ عَنْ بَابِ الْإِيَّةِ فَتَفْنَى إِرَادَتُكَ فَيُكْشَفُ لَكَ عَنِ الْوَاحِدِيَّةِ، فَتَحَقَّقَتْ بِهِ أَنَّهُ هُوَ بَلَا أَنْتَ مَعَهُ.

قال المصنف: (إِذَا زَالَ هَوَاكَ يُكْشَفُ لَكَ عَنْ بَابِ الْحَقِيقَةِ) لأن الهوى يعمي ويصم (فَتَفْنَى إِرَادَتُكَ) لا اختيار لك (فَيُكْشَفُ لَكَ عَنِ الْوَاحِدِيَّةِ).

الفرق بين الوجدانية والواحدية: الوجدانية مرتبة، والوجدانية وصف لهذه المرتبة، الواحدية واحدة، والوجدانية تتعدد؛ لأن مظهرها تجل مخلوق.

فإذا تحققت بالوجدانية أدركت وحدة الوجود ﴿﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا

ثم قال المصنف: (فَتَحَقَّقْتَ بِهِ أَنَّهُ هُوَ بِلَا أَنْتَ مَعَهُ) وحينما تتحقق
ستجد أن الله بلا أحد معه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فهو
الموجود وما سواه مفقود

٤١- إِنْ سَمَّيْتِ إِيَّاهُ قَرَّكَ، وَإِنْ نَازَعْتَهُ أَبْعَدَكَ.

قال المصنف: (إِنْ سَلَّمْتَ إِلَيْهِ قَرَّبَكَ) بالسكون لِقَدَرِهِ والرضا بقسمته
والقيام بعبوديته صِرَتْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. ثم قال: (وَإِنْ نَازَعْتَهُ أَبْعَدَكَ) لعدم رضاك
بقدره والقناعة بقسمته أو ارتكاب ما نهاك عنه فصرت مُبْعَدًا.

٤٢- إِنْ تَرَرَّتْ إِيَّاهُ قَرَّكَ، وَإِنْ تَرَرَّتْ إِيَّاهُ أَبْعَدَكَ.

قال المصنف: (إِنْ تَقَرَّبْتَ إِلَيْهِ بِهِ قَرَّبَكَ) به لا بنفسك، فالطاعة كلها
بمدد الله ﷻ وتوفيقه لا بفعلك أنت.

ثم قال: (وَإِنْ تَقَرَّبْتَ إِلَيْهِ بِكَ أَبْعَدَكَ)؛ لأنك معتمدٌ على عملك ومُعْجَبٌ
به وناظرٌ إليه، كما قال الكافر^(١): ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].
فتظن أن لك عملاً فتصير كاذباً جهولاً، والله لا يقرب الكذاب الجاهل
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].

٤٣- إِنْ طَلَبْتَهُ لَكَ كَلَّفَكَ، وَإِنْ طَلَبْتَهُ لَهُ دَلَّكَ.

قال المصنف: (إِنْ طَلَبْتَهُ لَكَ كَلَّفَكَ) أي: لأجل نفسك للشواب والعمل،
فمثلاً أن تطلبه للجنة، واللجنة حُقَّتْ بالمكافأة فهذا هو التكليف.

ثم قال: (وَإِنْ طَلَبْتَهُ لَهُ دَلَّكَ) فيجعل إرادتك إرادته أي: ما تعلق

به هو ما قسمه لك، فلا تشعر بالحرمان فتكون دائماً راضياً شاكراً. وبلغه المصريين نقول: (دلحك)، وكما قالت سيدتنا عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»^(١).

٤٤- قُرْبُكَ خُرُوجُكَ عَنْكَ، وَبُعْدُكَ وَقُوفُكَ مَكَ.

قال المصنف: (قُرْبُكَ) من الله (خُرُوجُكَ عَنْكَ) فكلما ابتعدت عن نفسك اقتربت منه ﷻ.

ثم قال: (وَبُعْدُكَ) من الله (وُقُوفُكَ مَعَكَ) أي محجوب بنفسك.

٤٥- إِنْ جِئْتَ بِلا أَنْتَ قَبْلَكَ، وَإِنْ جِئْتَ بِكَ حَاكَ.

قال المصنف: (إِنْ جِئْتَ بِلا أَنْتَ قَبْلَكَ) إِنْ جِئْتَ بِاللَّهِ ﷻ لا بنفسك معتمداً على فضل الله لا عملك قَبْلَكَ، ثم قال: (وَإِنْ جِئْتَ بِكَ حَاكَ) لأنك معتمدٌ على نفسك وعملك فيتركك لنفسك.

٤٦- الْعَامِلُ لَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْ رُؤْيَا، فَكُنْ مِنْ قَلِ الْمِنَّةِ، لَا تَكُنْ مِنْ قَلِ الْعَمَلِ.

قال المصنف: (الْعَامِلُ لَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْ رُؤْيَا عَمَلِهِ) مشغول باستمرار في رؤية عمله ومراقبته.

ثم قال: (فَكُنْ مِنْ قَبِيلِ الْمِنَّةِ) إذا رأيت العمل صادراً من الله ﷻ على

(١) رواه البخاري (٤٨٣٥) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَتْ كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبَنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقُولُ أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَرْجِيءُ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُوَوِّى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ قُلْتُ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يَسَارُعُ فِي هَوَاكَ. واحمد (٢٦٨٩٢).

جوارحك ستستريح؛ لأنك تعبد به فالقوة منه والتوفيق منه ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. (وَلَا تَكُنْ مِنْ قِبَلِ الْعَمَلِ).

٤٧- إِنْ عَرَفْتَهُ سَكَنْتَ، وَإِنْ جَهِلْتَهُ تَرَكْتَهُ، الْمُرَادُ أَنَّ يَكُونَ وَلَا تَكُونَ.

قال المصنف: (إِنْ عَرَفْتَهُ سَكَنْتَ) إِنْ عَرَفْتَ أَنَّهُ رَحِيمٌ بِكَ لَطِيفٌ كَرِيمٌ وَثِقْتَ فِي اخْتِيَارِهِ بِالرِّضَا وَتَرَكْتَ التَّلَهْفَ. ثُمَّ قَالَ: (وَإِنْ جَهِلْتَهُ تَحَرَّكَتَ) بِمَنَازَعَةِ الْأَقْدَارِ وَعَدَمِ الرِّضَا.

ثُمَّ قَالَ: (فَالْمُرَادُ أَنَّ يَكُونَ وَلَا تَكُونَ) أَنَّ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا تَكُونَ مَعَهُ؛ بَلْ تَكُونَ بِهِ فَلَا تَشْعُرُ أَنَّ لَكَ كَيُونَةً مُنْفَصِلَةً؛ بَلْ أَنْتَ بِهِ تَعَالَى.

٤٨- الْعَوَامُّ أَعْمَالُهُمْ قُرْبَاتٌ، وَالْخَوَاصُّ أَعْمَالُهُمْ قُرْبَاتٌ، وَخَوَاصُّ الْخَوَاصِّ أَعْمَالُهُمْ دَرَجَاتٌ.

قال المصنف: (الْعَوَامُّ أَعْمَالُهُمْ مَتَّهَمَاتٌ) أَي: قَلِيلَةُ الْخُشُوعِ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ وَمَعْلُولَةٍ.

ثُمَّ قَالَ: (وَالْخَوَاصُّ أَعْمَالُهُمْ قُرْبَاتٌ، وَخَوَاصُّ الْخَوَاصِّ أَعْمَالُهُمْ دَرَجَاتٌ) لِأَنَّهُمْ مُشْغُولُونَ بِاللَّهِ، أَمَا خَوَاصُّ الْخَوَاصِّ فَأَعْمَالُهُمْ ارْتِفَاعٌ فِي الدَّرَجَاتِ.

٤٩- كُلُّمَا اجْتَهَدْتَ هَوَاكَ قَوِيَ إِيمَانُكَ، وَكُلُّمَا اجْتَهَدْتَ ذَاتَكَ قَوِيَ تَوْحِيدُكَ.

قال المصنف: (كُلَّمَا اجْتَنَبْتَ هَوَاكَ قَوِيَ إِيمَانُكَ) أي: كلما هَذَّبْتَ نفسك على وفق الشرع الشريف يقوى إيمانك فتزيد أعمالك في الطاعة.

ثم قال: (وَكُلَّمَا اجْتَنَبْتَ ذَاتَكَ قَوِيَ تَوْحِيدُكَ) أي: لا ترى فعلاً ولا طاعةً؛ بل الفاعلُ هو الله ﷻ.

٥٠- اَلْحَقُّ حِجَابٌ وَأَنْتَ حِجَابٌ، وَالتُّقَى لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، وَمُتَجَبٌّ عَنْكَ لِكَ، وَأَنْتَ مَحْجُوبٌ عَنْكَ مِمَّ، فَانْفَصِلْ عَنْكَ مَدَّةً، وَالسَّلَامُ.

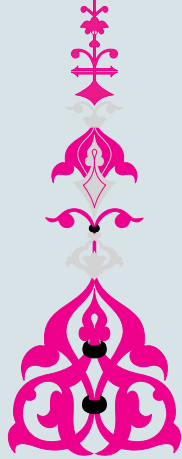
قال المصنف: (الْخَلْقُ حِجَابٌ وَأَنْتَ حِجَابٌ)؛ لأنك من الخلق، فمثلاً الرزق يأتيك عن طريق الخلق فهم حجاب والرازق هو الله ﷻ. فإذا تخلصت من حجاب الخلق بقي حجاب النفس لأنك من الخلق أيضاً.

ثم قال: (وَالْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، وَمُتَجَبٌّ عَنْكَ بِكَ) لأنه لا وجود لك فأنت موجود به فالحجاب وَهُمْ لا وجود له من أجل ذلك قال ابن عطاء في الحكم (ما قaddock شيء مثل الوهم).

ثم قال: (وَأَنْتَ مَحْجُوبٌ عَنْكَ بِهِمْ) أي: محجوب عن نفسك لانشغالك بالخلق، ثم قال: (فَانْفَصِلْ عَنْكَ تَشْهَدُهُ) أي: انفصل عن الخلق ثم انفصل عنك فلا تجد إلا موجوداً واحداً ﴿﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴿﴾ [الرعد: ٣٣].

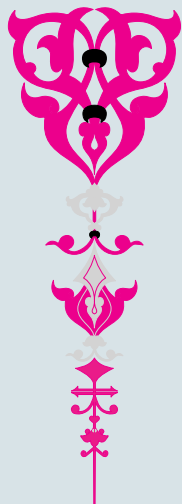
والله تعالى أعلى وأعلم، سبحانه اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك سبحانه ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

٣



شرح الحزب الكبير حزب البر

للعارف بالله أبي الحسن الشاذلي رحمه الله



العارف بالله أبو الحسن الشاذلي رحمته الله

هو الشيخ العارف بالله، قطب الأقطاب، علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطل بن علي بن أحمد بن محمد بن عيسى بن إدريس المبايع له ببلاد المغرب ابن عبد الله بن الحسن المثنى بن سيد شباب أهل الجنة وسبط خير البرية أبي محمد الحسن عليه السلام ابن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

عرف بالشاذلي، نسبة إلى شاذلة؛ وهي قرية بإفريقية (تونس حالياً) منشؤه بالمغرب الأقصى، إذ ولد عام ٥٩٣ هـ في قبيلة غمارة شمال المغرب، بإقليم سبتة؛ وهي بلاد شيخه مولاي عبد السلام بن مشيش.

لقاءه بشيخه عبر السلام بن مشيش رحمته الله:

خرج الشيخ الشاذلي يبحث عن القطب، استدلالاً به على مسالك النجاة، واستهداء إلى السبيل القاصد إلى الله، درءاً لموانع الطريق وقواطعه وآفاته؛ فقصد العراق. والعراق آنذاك قبلة القاصدين من طلاب الدنيا وطلاب الدين، حيث كانت بحق عاصمة العلم المكيّة، فضلاً عن كونها عاصمة الإدارة العباسية.

يروى الشيخ أبو الحسن الشاذلي قصة دخوله العراق، وسؤاله عن القطب، قائلاً: «لما دخلت العراق، اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي؛ فما رأيت بالعراق مثله؛ وكان مطلبي على القطب، فقلت له: قال

لي بعض الأولياء: أن القطب بالعراق، قال: القطب في بيلادك وهو جارك. فرجع إلى بلاد المغرب، واجتمع بشيخه القطب عبد السلام بن مشيش رحمته الله، وأخذ الطريق عنه، والشيخ عبد السلام عن أبي مدين شعيب عن سيدي عبد القادر الجيلاني رضوان الله عليهم أجمعين. وقد خلفه في الطريقة سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله تعالى .

فصحب القطب، وأقام عنده مدة إلى أن فتح عليه، فأذن له شيخه بالارتحال إلى تونس للدعوة إلى الله، وأخبره - كرامة - أنه ينتقل بعد ذلك إلى مصر، وبها يرث القُطْبَانِيَّة.

ثم رحل إلى تونس، وإلى جبل زغوان، حيث اعتكف للعبادة، وهناك ارتقى منازل عالية، كما

في الفكر الصوفي ودرس بها على أبي سعيد الباجي، واشتغل بعلوم الشريعة حتى أتقنها وصار يُناظر عليه مع كونه ضريرا، ثم انتهج التصوف واجتهد فيه حتى ظهر صلاحه وخيره، ورحل بعد ذلك إلى مصر وأقام بالإسكندرية، حيث تزوج وأنجب أولاده؛ شهاب الدين أحمد وأبا الحسن علي، وأبا عبد الله محمد وابنته زينب.

المعاصرون له من العلماء:

وقد عاصر الشاذلي أكابر علماء المسلمين وبحور علوم الشريعة الذين لا يدرك غورهم، ولا ينضب معينهم، كالإمام عز الدين بن عبد السلام المُلقَّب بسلطان العلماء، وابن دقيق العيد، وقطب الدين القسطلاني، والعارف بالله

الشيخ أحمد البدوي رحمته الله والعارف بالله الشيخ إبراهيم الدسوقي رحمته الله.. وغيرهم كثير حيث ذكر تلميذ تلميذه ابن عطاء الله في «لطائف المنن» بعضهم ممن شهد له، وأثنى عليه ضمن باب من أبواب هذا الكتاب، سماه: «في التعريف بشيخه، الذي أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من أهل زمنه من العلماء والأعيان، أنه قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل العيان».

من تلاميذه:

أبو العباس المرسي رحمته الله وهو من أشهر تلاميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمته الله حيث صحبه وأخذ عنه حتى اشتد عوده وبلغ أشده واكتملت لديه آلية التربية والتخليق.

ويروي أبو العباس المرسي قصة لقائه بشيخه، فيما ينقله تلميذ أبي العباس ابن عطاء الله، فيقول: «ما نزلت بتونس حين أتيت من «مرسية» وأنا إذ ذاك شاب، فسمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمته الله فقال لي رجل: «تمضي بنا إليه؟». قلت: حتى أستخير الله. فمنت تلك الليلة؛ فرأيت كأني أصعد إلى رأس جبل. فلما علوت فوقه، رأيت هنالك رجلا عليه برنس أخضر، وهو جالس؛ وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل. فنظرت إليه؛ فقال لي: «عثرت على خليفة الزمان» قال: فانتبهت.

فلما كان بعد صلاة الصبح، أتاني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ، فسرت معه. فلما دخلنا على الشيخ فرأيت على الصفة التي رأيته فوق الجبل، فدُهِشْتُ، فقال لي: «عثرت على خليفة الزمان، ما اسمك؟» فذكرتُ له اسمي ونسبي؛ فقال لي: «رُفِعَتْ إلي منذ عشرة أعوام».

أقوال العلماء فيه:

قال ابن عطاء الله في «لطائف المنن»: هو الشيخ الإمام حجة الصوفية، علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد في زمانه بالمعارف السنية والمفاخر، العالم بالله، والدال على الله، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب الغوث الجامع.

وذكره الشيخ عبد الوهاب الشعراني صاحب «الطبقات الكبرى» وأثنى عليه الثناء الجميل، إذ قال: شيخ الطائفة الشاذلية. وكان كبير المقدار، عالي المنار، له عبارات فيها رموز. وصحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني، وابن مشيش وغيرهما، وحج مرات عديدة.

وقال عنه الشيخ العارف بالله مكين الدين الأسمر: حضرت في المنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام، والشيخ مجد الدين على بن وهب القشيري المدرس، والشيخ محيي الدين بن سراقه والشيخ مجد الدين الأخرمي والشيخ أبو الحسن الشاذلي ورسالة القشيري تقرأ عليهم وهم يتكلمون والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم، فقال: يا سيدي نريد أن نسمع منك.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبرائه وقد تكلمتم، فقالوا لا بد أن نسمع منك، قال: فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله.

قال عنه الشيخ أبو علي الحسن الكوهن الفاسي المغربي في كتابه طبقات الشاذلية الكبرى: شيخ الطريقة الشاذلية، وأصل مددها، وعنصر

مشربها، وقطب دائرتها الذي تدور عليه، وهو السيد الأجل الكبير سيدنا وسننا ومولانا القطب الرباني العارف الوارث المحقق بالعلم اللدني، صاحب الإشارات العلية، والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية، والأسرار الربانية، والمنازلات العرشية، الحامل في زمانه لواء العارفين، والمقيم فيه دولة علوم المحققين، كهف الواصلين، وجلاء قلوب الغافلين، منشئ معالم الطريقة ومظهر أسرارها، ومبدئ علوم الحقيقة بعد خفاء أنوارها، ومظهر عوارف المعارف بعد خفائها واستتارها، الدال على الله وعلى سبيل جنته، والداعي على علم وبصيرة إلى جنبه وحضرته، أوجد أهل زمانه علما وحالا، ومعرفة ومقالا، الحسيب ذو السبطين الطاهرتين الروحية والجسمية، والسلالتين الطيبتين الغيبية والشاهدية، والوراثتين الكريمتين الملكية والملكوتية، المحمدي العلوي الحسني الفاطمي، الصحيح النسبتين، الكريم العنصرين، فحل الفحول إمام السالكين، ومعراج الوارثين، الأستاذ الواصل والمربي الكامل.

من كلامه ومواعظه وحكمه ﷺ:

من كلامه رضي الله عنه: عليك بالاستغفار وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار النبي ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه، وما تأخر هذا في معصوم لم يقترب ذنباً قط وتقدس عن ذلك فما ظنك بمن لا يخلو عن العيب، والذنب في وقت من الأوقات.

وكان رضي الله عنه يقول إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام، ولا المشاهدة

مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف، ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة.

وكان رضي الله عنه يقول: لقيت الخضر عليه السلام في صحراء عذاب فقال لي: يا أبا الحسن أصحابك الله اللطف الجميل، وكان لك صاحباً في المقام والرحيل.

وكان رضي الله عنه يقول إذا جاذبتك هواتف الحق فأياك أن تستشهد بالمحسوسات على الحقائق الغيبات وتردها فتكون من الجاهلين. واحذر أن تدخل في شيء من ذلك بالعقل. وكان رضي الله عنه يقول: إذا عرض عارض يصدقك عن الله فاثبت قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وكان يقول: كل علم يسبق إليك فيه الخواطر، وتميل إليه النفس، وتلد به الطبيعة فارم به وإن كان حقاً. وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله، واقتد به وبالخلفاء والصحابة والتابعين من بعده وبالأئمة الهداة المبرّين عن الهوى ومتابعته تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوي الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه. وماذا عليك أن تكون عبد الله، ولا علم، ولا عمل، وحسبك من العلم: العلم بالوحدانية، ومن العمل محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الصحابة، واعتقاد الحق للجماعة قال رجل: «متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها قال لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله فقال: المرء مع من أحب».

وكان يقول: إذا كثر عليك الخواطر والوساوس فقل سبحان الملك الخلاق ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ [إبراهيم: ١٩: ٢٠].

وكان يقول: لا تجد الروح والمدد ويصح لك مقام الرجال حتى لا يبقى في قلبك تعلق بعلمك، ولا جدك ولا اجتهدك وتيأس من الكل دون الله تعالى.

وكان رضي الله عنه يقول من أحصن الحصون من وقوع البلاء على المعاصي الاستغفار قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وكان يقول: إذا ثقل الذكر على لسانك وكثر اللغو في مقالك، وانبسطت الجوارح في شهواتك، وانسد باب الفكرة في مصالحك، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك أو لكون إرادة النطق في قلبك، وليس لك طريق إلا الطريق والإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص في دين الله تعالى، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦]، ولم يقل من المؤمنين، فتأمل هذا الأمر إن كنت فقيها.

وكان رضي الله عنه يقول: ارجع عن منازعة ربك تكن مؤجداً، واعمل بأركان الشرع تكن سنياً، واجمع بينهما تكن محققاً.

وكان يقول: قيل لي يا علي ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ عبد العظيم المنذري، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وكان يقول من أحب أن لا يعصي الله تعالى في مملكته فقد أحب أن لا تظهر مغفرته، ورحمته وأن لا يكون لنيبه ﷺ شفاعة.

وكان يقول: لا تشم رائحة الولاية، وأنت غير زاهد في الدنيا وأهلها.

وكان رضي الله عنه يقول: أسباب القبض ثلاثة: ذنب أحدثته أو دنيا ذهبت عنك أو شخص يؤذيكَ في نفسك أو عرضك فإن كنت أذنبت فاستغفر، وإن كنت ذهبت عنك الدنيا فارجع إلى ربك، وإن كنت ظلمت فاصبر واحتمل هذا دواؤك، وإن لم يطلعك الله تعالى على سبب القبض فاسكن تحت جريان الأقدار فأنها سحابة سائرة.

وكان رضي الله عنه يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله ما حقيقة المتابعة؟ فقال رؤية المتبوع عند كل شيء، ومع كل شيء، وفي كل شيء، وكان يقول الشيخ من ذلك على الراحة لا من ذلك على التعب.

وكان يقول: من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو بدعي، وكان يقول: من آداب المجالس للأكابر التخلي عن الأضداد، والميل، والمحبة، والتخصيص لهم، وترك التجسس على عقائدهم.

وكان يقول: إذا جالست العلماء فلا تُحدثهم إلا بالعلوم المنقولة، والروايات الصحيحة إما أن تفيدهم، وإما أن تستفيد منهم، وذلك غاية الربح منهم. وإذا جالست العباد، والزهاد فاجلس معهم على بساط الزهد والعبادة، وحل لهم ما استمروا به وسهل عليهم ما استوعروه، وذوقهم من المعرفة ما لم يذوقوه، وإذا جالست الصديقين ففارق ما تعلم تظفر بالعلم المسكون.

وكان يقول: إذا انتصر الفقير لنفسه، وأجاب عنها فهو والتراب سواء.

وكان يقول: إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة فلا تعباً به.

وكان يقول: من غلب عليه شهود الإرادة تفسخت عزائمه لسرعة الممراد وكثرته واختلاف أنواعه، وأي وقفة تسعه حتى يحل أو يعقد أو يعزم أو ينوي شيئاً من أموره مع تعداد إرادته، واضمحلال صفاته أين أنت من نور من نظر، واتسع نظره بنور ربه، ولم يشغله المنظور إليه عمن نظر به فقال: ما من شيء كان ويكون وإلا وقد رأيت الحديث.

وكان رضي الله عنه يقول: إذا استحسنت شيئاً من أحوالك الباطنة أو الظاهرة وخفت زواله فقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وكان يقول: ورد المحققين إسقاط الهوى ومحبة المولى أبت المحبة أن تستعمل محباً لغير محبوبه.

وفي رواية: ورد المحققين رد النفس بالحق عن الباطن في عموم الأوقات، وكان يقول لا يتم للعالم سلوك طريق القوم إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح.

وفاة أبي الحسن الشاذلي رحمته الله

وردتنا قصة وفاة الشاذلي على لسان الرحالة ابن بطوطة إذ ذكر في رحلته «أخبرني الشيخ ياقوت العرش عن شيخه الشيخ أبي العباس المرسى رضي الله عنهم أن أبا الحسن الشاذلي كان يحج كل سنة. فلما كان في آخر سنة خرج فيها؛ قال لخادمه: اصطحب فأساً وقفة وحنوطاً، فقال له الخادم:

ولماذا يا سيدي؟ فقال: في حميثرا سوف ترى، وحميثرا بصعيد مصر بالقرب من (أسوان)، فلما بلغ حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وصلى ركعتين وفي آخر سجدة من صلاته انتقل إلى جوار ربه، ودفن هناك.

الحزب الكبير

(حزب البر) لسيري أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا إِبْجَهْدَةً ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

الرَّ كَهَيْعَصَ حَمَّ عَسَقَ ﴿رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾﴾.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي بِالْجَهَالَةِ مَعْرُوفٌ، وَأَنْتَ بِالْعِلْمِ مَوْصُوفٌ، وَقَدْ
وَسَّعْتَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ جَهَالَتِي بِعِلْمِكَ فَسَّعَ ذَلِكَ بِرَحْمَتِكَ كَمَا وَسَّعْتَهُ
بِعِلْمِكَ، وَاعْفِرْ لِي إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَا اللَّهُ يَا مَالِكُ يَا وَهَّابُ،
هَبْ لَنَا مِنْ نِعَمِكَ مَا عَلِمْتَ لَنَا فِيهِ رِضَاكَ، وَانْكُسْنَا كِسُوءَةَ تَقْنَا بِهَا
مِنَ الْفِتَنِ فِي جَمِيعِ عَطَايَاكَ، وَقَدِّسْنَا بِهَا عَنْ كُلِّ وَصْفٍ يُوجِبُ نَقْصًا
مِمَّا اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، يَا اللَّهُ يَا عَظِيمُ يَا عَلِيُّ يَا كَبِيرُ،
نَسْأَلُكَ الْفَقْرَ مِمَّا سِوَاكَ وَالْغِنَى بِكَ حَتَّى لَا نَشْهَدَ إِلَّا إِيَّاكَ، وَالطُّفَّ
بِنَا فِيهِمَا لُطْفًا عَلَيْهِتُهُ يَصْلُحُ لِمَنْ وَالَاكَ، وَانْكُسْنَا جَلَابِيبَ الْعِصْمَةِ فِي
الْأَنْفَاسِ وَاللَّحْظَاتِ، وَاجْعَلْنَا عَبِيدًا لَكَ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ، وَعَلِمْنَا مِنْ
لَدُنْكَ عِلْمًا نَصِيرُ بِهِ كَامِلِينَ فِي الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ.

اللَّهُمَّ أَنْتَ الْحَمِيدُ الرَّبُّ الْمَجِيدُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، تَعْلَمُ فَرَحَنَا بِمَاذَا
وَلِمَاذَا وَعَلَى مَاذَا وَتَعْلَمُ حُزْنَنا كَذَلِكَ وَقَدْ أَوْجَبْتَ كَوْنَ مَا أَرَدْتَهُ فِينَا
وَمِنَّا، وَلَا نَسْأَلُكَ دَفْعَ مَا تُرِيدُ، وَلَكِنْ نَسْأَلُكَ التَّأْيِيدَ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِكَ
فِيمَا تُرِيدُ، كَمَا أَيْدَتِ أَنْبِيَاءَكَ وَرُسُلَكَ وَخَاصَّةَ الصِّدِّيقِينَ مِنْ خَلْقِكَ إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ
تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ [الزمر: ٦٤].

فَهَيِّئْ لِي عَرَفَكَ فَرَضِي بِقَضَائِكَ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفَكَ بَلِ الْوَيْلُ
 ثُمَّ الْوَيْلُ لِمَنْ أَقْرَبُ بَوَحْدَانِيَّتِكَ وَلَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِكَ، اللَّهُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ
 حَكَمْتَ عَلَيْهِمُ بِالذُّلِّ حَتَّى عَزُّوْا، وَحَكَمْتَ عَلَيْهِمُ بِالْفَقْدِ حَتَّى وَجَدُوا
 فَكُلُّ عَزٍّ يَمْنَعُ دُونَكَ فَتَسْأَلُكَ بَدْلَهُ ذُلًّا تَصْحَبُهُ لَطَائِفُ رَحْمَتِكَ، وَكُلُّ
 وَجَدٍ يَجِبُ عَنْكَ فَتَسْأَلُكَ عَوَضَهُ فَقَدْ تَصْحَبُهُ أَنْوَارُ مَحَبَّتِكَ فَإِنَّهُ قَدْ
 ظَهَرَتِ السَّعَادَةُ عَلَى مَنْ أَحَبَبْتَهُ، وَظَهَرَتِ الشَّقَاوَةُ عَلَى مَنْ غَيَّرَكَ مَلَكُهُ،
 فَهَبْ لَنَا مِنْ مَوَاهِبِ السُّعَدَاءِ، وَاعْصِمْنَا مِنْ مَوَارِدِ الْأَشْقِيَاءِ.

اللَّهُمَّ أَنَا قَدْ عَجَزْنَا عَنْ دَفْعِ الضَّرِّ عَنْ أَنْفُسِنَا مِنْ حَيْثُ نَعْلَمُ بِمَا
 نَعْلَمُ، فَكَيْفَ لَا نَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ لَا نَعْلَمُ بِمَا لَا نَعْلَمُ، وَقَدْ
 أَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا وَالْمَدْحَ وَالذَّمَّ أَلْزَمْتَنَا، فَأَخُو الصَّلَاحِ مَنْ أَصْلَحْتَهُ، وَأَخُو
 الْفَسَادِ مَنْ أَضَلَّاهُ، وَالسَّعِيدُ حَقًّا مَنْ أَغْنَيْتَهُ عَنِ السُّؤَالِ مِنْكَ، وَالشَّقِيُّ
 حَقًّا مَنْ حَرَمْتَهُ مَعَ كَثْرَةِ السُّؤَالِ لَكَ، فَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَنْ سُؤَالِنَا مِنْكَ،
 وَلَا تَحْرِمْنَا مِنْ رَحْمَتِكَ مَعَ كَثْرَةِ سُؤَالِنَا لَكَ، وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَا شَدِيدَ الْبَطْشِ يَا جَبَّارُ يَا قَهَّارُ يَا حَكِيمُ، نَعُوذُ بِكَ مِنْ
 شَرِّ مَا خَلَقْتَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ ظُلْمَةٍ مَا أَبَدَعْتَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ كَيْدِ
 النَّفُوسِ فِيمَا قَدَّرْتَ وَارَدْتَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْحُسَادِ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ،
 وَنَسْأَلُكَ عَزَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ كَمَا سَأَلَكَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ عَزَّ الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ
 وَالْمَعْرِفَةِ، وَعَزَّ الْآخِرَةُ بِاللِّقَاءِ وَالْمُشَاهَدَةِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَقْدِمُ إِلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ كُلِّ نَفْسٍ وَلِحْجَةٍ وَطَرْفَةٍ يَطْرِفُ بِهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَكُلِّ شَيْءٍ هُوَ فِي عِلْمِكَ كَائِنٌ أَوْ قَدْ كَانَ أَقْدِمُ إِلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِبَسْطِ يَدَيْكَ وَكَرَمِ وَجْهِكَ وَنُورِ عَيْنِكَ وَكَمَالِ أَعْيُنِكَ
أَنْ تُعْطِيَنَا خَيْرَ مَا نَفَذْتَ بِهِ مَشِيئَتَكَ، وَتَعَلَّقْتَ بِهِ قُدْرَتَكَ، وَجَرَى بِهِ
قَلْبُكَ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ، وَانْخَفْنَا شَرًّا مَا هُوَ ضِدُّ لَذَلِكَ، وَأَكْبَلْ لَنَا دِينَنَا
وَأَتِّمَّ عَلَيْنَا نِعَمَتَكَ، وَهَبْ لَنَا حِكْمَةَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ مَعَ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ
وَالْمَوْتَةِ الْحَسَنَةِ، وَتَوَلَّ قَبْضَ أَرْوَاحِنَا بِيَدِكَ، وَحُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَيْرِكَ فِي
الْبَرْزَخِ وَمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ بِنُورِ ذَاتِكَ وَعَظِيمِ قُدْرَتِكَ وَجَمِيلِ فَضْلِكَ، إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَا اللَّهُ يَا عَلِيٌّ يَا عَظِيمُ يَا حَلِيمُ يَا حَكِيمُ يَا كَرِيمُ
يَا سَمِيعُ يَا قَرِيبُ يَا مُجِيبُ يَا وَدُودُ، حُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَالنِّسَاءِ
وَالْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَظُلْمِ الْعِبَادِ وَسُوءِ الْخَلْقِ، وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَاقْضِ عَنَّا
تَبِعَاتِنَا وَاكْشِفْ عَنَّا السُّوءَ، وَنَجِّنَا مِنَ الْغَمِّ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْهُ مَخْرَجًا،
إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ يَا لَطِيفُ يَا رَزَّاقُ يَا

قَوِيَّ يَا عَزِيزُ، لَكَ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ تَشَاءُ
وَتَقْدِرُ، فَابْسُطْ لَنَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَوْصِلُنَا بِهِ إِلَى رَحْمَتِكَ، وَمِنْ رَحْمَتِكَ
مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نِقَمِكَ وَمِنْ حِلْمِكَ مَا يَسْعُنَا بِهِ عَفْوُكَ، وَاخْتِمْ لَنَا
بِالسَّعَادَةِ الَّتِي خَتَمْتَ بِهَا لِأَوْلِيَائِكَ، وَاجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِنَا وَأَسْعَدَهَا يَوْمَ
لِقَائِكَ، وَزَحْزَحْنَا فِي الدُّنْيَا عَنْ نَارِ الشَّهْوَةِ، وَأَدْخِلْنَا بِفَضْلِكَ فِي مَيَادِينِ
الرَّحْمَةِ، وَاكْسُنَا مِنْ لَدُنْكَ جَلَائِبَ الْعِصْمَةِ، وَاجْعَلْ لَنَا ظَهِيرًا مِنْ
عُقُولِنَا وَمُهَيِّمًا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَمُسَخِّرًا مِنْ أَنْفُسِنَا، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا، وَهَبْ لَنَا مُشَاهِدَةً تَصَحِّبُهَا مُكَلَّمَةٌ،
وَافْتَحْ أَسْمَاعَنَا وَأَبْصَارَنَا، وَادْكُرْنَا إِذَا غَفَلْنَا عَنْكَ بِأَحْسَنِ مِمَّا تَذْكُرُنَا بِهِ
إِذَا ذَكَرْنَاكَ، وَارْحَمْنَا إِذَا عَصَيْنَاكَ بِأَتْمِّ مِمَّا تَرْحَمُنَا بِهِ إِذَا أَطَعْنَاكَ، وَاغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا مَا تَقْدَمُ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ، وَالطُّفْ بِنَا لُطْفًا يَحْجُبُنَا عَنْ غَيْرِكَ وَلَا
يَحْجُبُنَا عَنْكَ فَإِنَّكَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

اللَّهُمَّ أَنَا نَسَأُكَ لِسَانًا رَطْبًا بِذِكْرِكَ، وَقَلْبًا مُنَعَّمًا بِشُكْرِكَ، وَبَدَنًا
هَيْنًا لِنَا لِطَاعَتِكَ، وَأَعْطِنَا مَعَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ،
وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُكَ ﷺ حَسْبَمَا عَلَّمْتَهُ بِعِلْمِكَ،
وَأَغْنِنَا بِلا سَبَبٍ، وَاجْعَلْنَا سَبَبَ الْغِنَى لِأَوْلِيَائِكَ وَبَرَزَخًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
أَعْدَائِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ أَنَا نَسَأُكَ إِيمَانًا دَائِمًا، وَنَسَأُكَ

قَلْبًا خَاشِعًا، وَنَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَنَسْأَلُكَ يَقِينًا صَادِقًا، وَنَسْأَلُكَ دِينًا قِيمًا، وَنَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ مِنْ كُلِّ بَلِيَّةٍ، وَنَسْأَلُكَ تَمَامَ الْعَافِيَةِ، وَنَسْأَلُكَ دَوَامَ الْعَافِيَةِ، وَنَسْأَلُكَ الشُّكْرَ عَلَى الْعَافِيَةِ، وَنَسْأَلُكَ الْغِنَى عَنِ النَّاسِ، اللَّهُمَّ أَنَا نَسْأَلُكَ التَّوْبَةَ الْكَامِلَةَ، وَالْمَغْفِرَةَ الشَّامِلَةَ، وَالْحُبَّةَ الْجَامِعَةَ، وَالْحِلَّةَ الصَّافِيَةَ، وَالْمَعْرِفَةَ الْوَاسِعَةَ، وَالْأَنْوَارَ السَّاطِعَةَ، وَالشَّفَاعَةَ الْقَائِمَةَ، وَالْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ، وَالدَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ، وَفَكَ وَثَاقَنَا مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَرِهَانَنَا مِنَ النِّعْمَةِ بِمَوَاهِبِ الْمِنَّةِ.

اللَّهُمَّ أَنَا نَسْأَلُكَ التَّوْبَةَ وَدَوَامَهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَأَسْبَابِهَا، فَذَكَّرْنَا بِالْخَوْفِ مِنْكَ قَبْلَ هُجُومِ خَطَرَاتِهَا، وَاحْمَلْنَا عَلَى النِّجَاحِ مِنْهَا وَمِنَ التَّفَكُّرِ فِي طَرَائِقِهَا، وَاحْمُ مِنْ قُلُوبِنَا حَلَاوَةَ مَا اجْتَنَيْنَاهُ مِنْهَا وَاسْتَبَدَّ لَهَا بِالْكَرَاهَةِ لَهَا وَالطَّعْمَ لِمَا هُوَ بِضِدِّهَا، وَأَفْضُ عَلَيْنَا مِنْ بَحْرِ كَرَمِكَ وَفَضْلِكَ وَجُودِكَ وَعَفْوِكَ حَتَّى نَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى السَّلَامَةِ مِنْ وَبَالِهَا، وَاجْعَلْنَا عِنْدَ الْمَوْتِ نَاطِقِينَ بِالشَّهَادَةِ عَالِمِينَ بِهَا، وَارْأَفْ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَنَزُولِهَا، وَارْحَنَا مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَغُمُومِهَا بِالرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ إِلَى الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا.

اللَّهُمَّ أَنَا نَسْأَلُكَ تَوْبَةً سَابِقَةً مِنْكَ إِلَيْنَا لِتَكُونَ تَوْبَتَنَا تَابِعَةً إِلَيْكَ مِنَّا، وَهَبْ لَنَا التَّلَقِّيَ مِنْكَ كَتَلَقَّى آدَمُ مِنْكَ الْكَلِمَاتِ؛ لِيَكُونَ قُدْوَةً

لَوْلَدِهِ فِي التَّوْبَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، وَبَاعِدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعِنَادِ وَالْإِضْرَارِ
وَالشَّبهِ بِإِبْلِيسَ رَأْسِ الْغَوَاةِ، وَاجْعَلْ سَيِّئَاتِنَا سَيِّئَاتٍ مَنْ أَحَبَّتْ، وَلَا
تَجْعَلْ حَسَنَاتِنَا حَسَنَاتٍ مَنْ أَبْغَضَتْ فَلَا إِحْسَانَ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْبُغْضِ
مِنْكَ، وَالْإِسَاءَةُ لَا تَضُرُّ مَعَ الْحُبِّ مِنْكَ، وَقَدْ أَهْمَتِ الْأَمْرَ عَلَيْنَا لِنَرْجُو
وَنُخَافَ، فَامِنْ خَوْفَنَا، وَلَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا، وَأَعْطِنَا سُؤْلَنَا فَقَدْ أُعْطِينَا
الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسْأَلَكَ، وَكُتِبَتْ وَحِبَّتْ وَزَيَّنَتْ وَكَرَّهَتْ وَأُطْلِقَتْ
الْأَلْسُنُ بِمَا بِهِ تَرَجَّمَتْ، فَنِعْمَ الرَّبُّ أَنْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ، فَاعْفِرْ
لَنَا وَلَا تُعَاقِبْنَا بِالسَّلْبِ بَعْدَ الْعَطَاءِ وَلَا بِكُفْرَانِ النِّعَمِ وَحِرْمَانِ الرِّضَا.

اللَّهُمَّ رَضِّنَا بِقَضَائِكَ، وَصَبِّرْنَا عَلَى طَاعَتِكَ، وَعَنْ مَعْصِيَتِكَ وَعَنْ
الشَّهَوَاتِ الْمَوْجِبَاتِ لِلنَّقْصِ أَوْ الْبُعْدِ عَنْكَ، وَهَبْ لَنَا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ
بِكَ حَتَّى لَا نَخَافَ غَيْرَكَ وَلَا نَرْجُو غَيْرَكَ وَلَا نُحِبَّ غَيْرَكَ وَلَا نَعْبُدُ شَيْئًا
سِوَاكَ، وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ نِعْمَائِكَ، وَغَطِّنَا بِرِدَائِ عَافِيَتِكَ، وَانصُرْنَا بِالْيَقِينِ
وَالْتَوَكَّلِ عَلَيْكَ، وَأَسْفِرْ وُجُوهَنَا بِنُورِ صِفَاتِكَ، وَأَضْحِكْنَا بِشَرِّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
بَيْنَ أَوْلِيَائِكَ، وَاجْعَلْ يَدَكَ مَبْسُوطَةً عَلَيْنَا وَعَلَى أَهْلِينَا وَأَوْلَادِنَا وَمَنْ مَعَنَا
بِرَحْمَتِكَ، وَلَا تَكُنَّا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةً عَيْنٍ وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ، يَا نِعَمَ
الْجُيْبِ، يَا نِعَمَ الْجُيْبِ، يَا مَنْ هُوَ هُوَ هُوَ فِي عُلُوِّهِ قَرِيبٌ،
يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا مُحِيطًا بِاللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، أَشْكُو إِلَيْكَ مِنْ غَمِّ

الْحِجَابِ، وَسُوءِ الْحِسَابِ، وَشِدَّةِ الْعَذَابِ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَوَاقِعٌ مَّالَهُ مِنْ دَافِعٍ
إِنْ لَمْ تَرْحَمْنِي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء: ٨٧] (ثلاثاً).

وَلَقَدْ شَكَى إِلَيْكَ يَعْقُوبُ خَلَصْتَهُ مِنْ حُزْنِهِ، وَرَدَدْتَ عَلَيْهِ مَا
ذَهَبَ مِنْ بَصَرِهِ، وَجَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلَدِهِ، وَلَقَدْ نَادَاكَ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ
فَنَجَّيْتَهُ مِنْ كَرْبِهِ، وَلَقَدْ نَادَاكَ أَيُّوبُ مِنْ بَعْدِ فَكَشَفْتَ مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ،
وَلَقَدْ نَادَاكَ يُونُسُ فَنَجَّيْتَهُ مِنْ غَمِّهِ، وَلَقَدْ نَادَاكَ زَكَرِيَّا فَوَهَّبْتَ لَهُ وَلَدًا
مِنْ صُلْبِهِ بَعْدَ يَأْسِ أَهْلِهِ وَكَبَّرَ سِنِّهِ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ مَا نَزَلَ بِإِبْرَاهِيمَ فَأَنْقَذْتَهُ
مِنْ نَارِ عَدُوِّهِ، وَأَنْجَيْتَ لُوطًا وَأَهْلَهُ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِقَوْمِهِ، فَهَا أَنَا ذَا
عَبْدُكَ إِنْ تُعَذِّبْنِي بِجَمِيعِ مَا عَلِمْتَ مِنْ عَذَابِكَ فَأَنَا حَقِيقٌ بِهِ، وَإِنْ تَرْحَمْنِي
كَمَا رَحِمْتَهُمْ مَعَ عَظِيمِ إِجْرَامِي فَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ وَأَحَقُّ مِنْ أَكْرَمَ بِهِ،
فَلَيْسَ كَرَمُكَ مَخْصُوصًا بِمَنْ أَطَاعَكَ وَأَقْبَلَ عَلَيْكَ، بَلْ هُوَ مَبْدُولٌ بِالسَّبْقِ
لِمَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ وَإِنْ عَصَاكَ وَأَعْرَضَ عَنْكَ، وَلَيْسَ مِنَ الْكَرَمِ
أَلَّا تُحْسِنَ إِلَّا لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ الْمِفْضَالُ الْغَنِيُّ، بَلْ مِنَ الْكَرَمِ أَنْ
تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ الرَّحِيمُ الْعَلِيُّ، كَيْفَ وَقَدْ أَمَرْنَا أَنْ
نُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَّا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ
تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) [الأعراف: ٢٣] (ثلاثاً).

[غافر: ٦٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى
سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ فِي
الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ، اللَّهُمَّ وَارِضْ عَنْ سَادَاتِنَا الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ أَبِي
بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَعَنِ الْحَسَنِ وَعَنِ الْحُسَيْنِ وَعَنْ أُمِّهِمَا فَاطِمَةَ
الزَّهْرَاءِ، وَعَنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ
أَجْمَعِينَ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى
الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

نَلَّ ابْنُ عَمَّادٍ فِي «الْمَفَاخِرِ الْعَلِيَّةِ» أَنَّ الْحِزْبَ الْكَبِيرَ وَرَدُّ بَعْدَ
الصُّبْحِ، قَالَ: وَلَا يَتَكَلَّمُ حَالَ تِلَاوَتِهِ، وَلَهُ سِرٌّ عَزِيمٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَا
يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

شرح حزب البر (الحزب الكبير) للشيخ أبي الحسن الشاذلي (رضي الله عنه)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشرح

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلّم وشرف وبارك وعظم وعلى صحابته والتابعين بإحسان لهم إلى يوم الدين وعلينا معهم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله.

أما بعد،

فتمتاز الطرق الصوفية أن شيوخ التربية وظفوا المريديهم أوراذاً وأحزاباً يشغلون بها أوقاتهم، حتى يصلوا من خلال تكرار معانيها إلى التربية الروحية المؤهلة لهم للوصول إلى حضرة مولاهم ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، ويسأل بعض الناس، ما معنى حزب؟ ولم الصحابة لم يكتبوا مثل هذه الأوراد والأحزاب؟

والجواب عليهم: أن الحزب له معاني كثيرة في اللغة، ونحن نتكلم على المصطلح المعروف عند أهل هذه الطائفة، فالحزب بمعنى الجماعة، فأى مجموعة تجمعوا على شيء ما فهم (حزب). وسميت غزوة الأحزاب؛ لأنهم تجمعوا من قبائل شتى على أمر معين فسموا حزباً، وكذلك (حزب الشيطان).

فالحزب: هو المجموع من نوع معين ويكون بينهم تجانس.

وفي الاصطلاح عند الصوفية: هو مجموعة من الدعوات الممزوجة بالآيات القرآنية، المحتوية على معانٍ روحية والتجاء إلى الله وتحقيق بالافتقار، فتح الله به على الولي أو شيخ الطريقة، ليدل أتباعه على الوصول إليه من أقرب طريق.

ولا شك، أن الدعاء يحتاج إلى الأدب، وقد يفتقر المريد في بداية طريقه إلى الأدب في التعبير عن مطلوبه، فيعلمه الشيخ من خلال هذه الأحزاب الأدب وكيف يعبر عن مطلوبه، وهذا اقتداء بسيدنا النبي ﷺ الذي علمنا أذكار الصباح والمساء وما بعد الصلاة، فهذه نماذج تتأدب بها.

ولما كان شيوخ الطريقة وراثاً للنبي ﷺ صاروا يعلمون أبنائهم كيف يصلون إلى مولاهم عن طريق توظيف هذه الأحزاب، ومن هذه الأحزاب (حزب البر) أو (الحزب الكبير) لسيدي أبي الحسن الشاذلي رحمته الله والذي تلقته الأمة بالقبول على اختلاف مشاربها.

وسيدنا أبو الحسن الشاذلي ولد سنة ٥٩١ هـ في غُمارة وهي بلدة في المغرب، وعاش في مصر، ومات في عيذاب في صحراء البحر الأحمر في مدينة تسمى (حميثرة)، والآن تسمى (مدينة أبو الحسن الشاذلي) ومات عندما كان في طريقه للحج. ولما مرض وهو في طريقه للحج دعا الله أن يدفن في أرضٍ لم يعص فيها منذ أن خلقها، وهذه الأرض كانت ميتة وحيث به بعد وفاته، حتى تعلم أن الولي أنفع بعد مماته مما كان عليه في حال حياته، لأنه في حال حياته مشغول في بشريته أما بعد وفاته انطلق من قيود البشرية إلى

إطلاق الروحانية، كذلك الحال في مدينة (طنطا) كانت قرية صغيرة تسمى (طنطدا) ولما دفن فيها السيد أحمد البدوي^(١) صارت محافظة كبيرة وكل ذلك لكرامته ومكانته وكذلك دسوق كبرت وصارت مزاراً كرامة لمقام السيد إبراهيم الدسوقي^(٢) وهذا بعد أن مات ودفن فيها.

(١) هو باب النبي ﷺ الولي الكبير والعالم النحرير، أبو الفتيان، بحر العلوم والمعارف، السيد المثلث، القطب الغوث أحمد بن السيد علي البدوي وينته نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. ولد (رضي الله عنه) في مدينة فاس بالمغرب عام ست وتسعين وخمسمائة من الهجرة، ونشأ في أحضان أسرته، حفظ القرآن، وتفقه على مذهب الإمام مالك، وشرع في دراسة العلوم الشرعية على منهج أهل السنة والجماعة. كان مستغرقاً طول الوقت في معرفة ربه، وشهود تجلياته، وكان إذا جن الليل يقرأ القرآن حتى الصباح. وكان زاهداً في الدنيا حتى أنه لم يورث سوى عباءته وجبته وقميصه ومسبحته وعمامته. وكان يقول لمريده عبدالعال معلماً ومربياً (يا عبدالعال اياك وحب الدنيا فإنها تفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل).

ومن مبادئ طريقته حث أتباعه على الجهاد في سبيل الله، فاشترك في الجهاد ضد الصليبيين، وظهرت له كرامات في الحرب تتجلى بإنقاذه للأسرى ومجيئه بهم. وأقام في طنطا أربعين سنة حتى وفاته سنة خمس وسبعين وستمائة من الهجرة، أقام في طنطا وبدأ الناس يتوافدون إليه من أقطار الأرض للتتلمذ على يديه ولاختباره ولرؤيته حتى صار عنده أتباع كثر.

(٢) العارف بالله والقطب الكبير، السيد إبراهيم بن أبي المجدد بن قريش وينته نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ولد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة من الهجرة، ولد ونشأ في أحضان والده، وتعلم على يديه وكان نبوغه واضحاً، حفظ القرآن الكريم صغيراً ودرس مذهب الإمام الشافعي وتفقه به. بعدها انقطع منذ صغره للعبادة، ودخل الخلوة وما خرج منها حتى توفي والده فخرج للصلاة عليه. وأراد أن يدخل الخلوة مرة أخرى فحلف عليه الفقراء إلا يدخلها وأن يقيم معهم ويعلمهم ويربيهم فاستجاب لهم. بعد أن دخل الخلوة فتح الله عليه من العلوم الوهية ما لا حصر لها. وصار متصلاً بربه في حضرة القدس حيث يفنى في المشاهدة عن كل شيء حتى عن فائه. قال ﷺ: «قد يقذف الله في قلب وليه ما لا يطلع عليه أحد من العلماء. وإذا تجلى عروس الكلام في رتبة الإلهام طلعت شمس المعارف وتجلى البدر المنير في الليل البهيم، فهم سكارى الظواهر صحابة البواطن والضمائر». وهكذا سطع

وهذا الحزب الكبير قد أثنى عليه سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمه الله وقال: (وما تلقيتُهُ كلمةً كلمةً إلا من الله ورسوله).

وقد يسأل بعض الناس ما معنى التلقي من الله ورسوله؟ وقد أجاب سيدنا أبو الحسن الشاذلي عن ذلك في هذا الحزب حيث قال في دعائه: (اللهم إني أسألك التلقي منك كتلقي آدم منك الكلمات؛ لأكون قدوة لولدي في الأعمال الصالحات)، والله يقول: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

ونقول لمن يقول أن التلقي خاص بالأنبياء أن التلقي يشمل الوراث أيضاً، قال الله عز وجل في حق أم سيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧]، والوحي هنا بمعنى (اللقاء) في قلبها شيء لا تستطيع أن تمتنع من تنفيذه، فالتلقي ليس واقفاً على الأنبياء بل يشمل الصالحين والأولياء.

والنبي ﷺ يقول «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِذَّنَّهُ»^(١) فيكون سمعه بالله، وبصره بالله، وكلامه بالله، أي يكون الخليفة بحق.

نجم السيد الدسوقي رضي الله عنه في العلوم والمعارف. وانتشرت طريقته وعرفت (بالإبراهيمية أو الدسوقية). ولقد كان الظاهر ببيرس يتبرك به ويجله، وقام ببناء زاوية كبيرة له ولمريديه وعينه شيخاً للإسلام حتى توفي السلطان واعتذر عنها. توفي رضي الله عنه في دسوق محل مولده سنة ست وسبعين وستمائة من الهجرة وهو ساجد وبنيت فوق قبره زاوية صغيرة لكنها تحولت إلى مسجد من أكبر مساجد مصر الآن.

وكذلك الأذان شُرع عن طريق التلقي في المنام لأحد الصحابة الكرام، ولقد تلقاه ابن عبد ربه الأنصاري رحمته الله في المنام، وسيدنا عمر بن الخطاب رحمته الله تلقاه أيضاً في المنام، ولما حدث سيدنا ابن عبد ربه رحمته الله النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى قال النبي صلى الله عليه وسلم علمه لبلال رحمته الله فلما أذن سيدنا بلال رحمته الله جاء سيدنا عمر بن الخطاب رحمته الله مسرعاً وقال للنبي صلى الله عليه وسلم والله يا رسول الله لقد رأيت مثله وهذا من التلقي^(١).

وسيدنا عمر بن الخطاب رحمته الله مُحدث، ويقول عنه النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»^(٢) والمُحدث هو الذي يتلقى من الملائكة الأعلى فتنتبج الحقائق في قلبه.

(١) رواه أبو داود (٤٩٨) عَنْ أَبِي عُمَيْرٍ بْنِ أَنَسٍ عَنْ عُمُومَةٍ لَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: «أَهْتَمَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلصَّلَاةِ كَيْفَ يَجْمَعُ النَّاسَ لَهَا فَقِيلَ لَهُ انْصَبْ رَأْيَةَ عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَاةِ فَإِذَا رَأَوْهَا أَذَّنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ قَالَ فَذَكَرَ لَهُ الْقَنْعُ يَعْنِي الشُّبُورَ وَقَالَ زِيَادُ شُبُورَ الْيَهُودِ فَلَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ وَقَالَ هُوَ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ قَالَ فَذَكَرَ لَهُ النَّاقُوسُ فَقَالَ هُوَ مِنْ أَمْرِ النَّصَارَى فَانْصَرَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَهُوَ مُهْتَمٌّ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرَى الْأَذَانَ فِي مَنَامِهِ قَالَ فَغَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَبَيْنٌ نَائِمٌ وَيَقْظَانِ إِذْ أَتَانِي آتٍ فَأَرَانِي الْأَذَانَ قَالَ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ رَأَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَكَتَمَهُ عَشْرِينَ يَوْمًا قَالَ ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي فَقَالَ سَبَقَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ فَاسْتَحْيَيْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا بِلَالُ قُمْ فَانْظُرْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ فَافْعَلْهُ قَالَ فَأَذَّنَ بِلَالٌ قَالَ أَبُو بَشِيرٍ فَأَخْبَرَنِي أَبُو عُمَيْرٍ أَنَّ الْأَنْصَارَ تَزْعُمُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زَيْدٍ لَوْلَا أَنَّهُ كَانَ يَوْمَئِذٍ مَرِيضًا لَجَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤَدِّيًا»

(٢) البخاري (٣٥٠٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ». ورواه مسلم (٦٣٧٥)، والترمذي (٤٠٥٧).

وكذلك سيدنا أبو بكر الصديق عليه السلام لما عزم على قتال أهل الردة، فهو تلقى طبع في قلبه على ضرورة هذا الأمر، حتى أنها غابت عن سيدنا عمر وبعض الصحابة رض الله عنهم فعارضوا سيدنا أبا بكر عليه السلام في بداية الأمر، ثم شرحت صدورهم لأمر أبي بكر عليه السلام. وسيدنا عثمان عليه السلام حرق جميع المصاحف وجمع الأمة على مصحف واحد وهذا أيضاً من التلقي.

إذن: هذا الحزب تلقاه من الحضرة العلية بما يناسب أتباعه ورزقاً لأتباعه، فهو واسطة توصل هذا القوت، والمعاني المندرجة في هذا الحزب لأتباعه ومن خلاله يتيسر لهم الوصول إلى مولاهم.

لذلك كان سيدنا أبو الحسن الشاذلي عليه السلام يقول عن هذا الحزب (من حفظه كان من أصحابي ومن قرأه كان له ما لنا وعليه ما علينا) أي تحقق بالصحة.

والحمد لله لنا عدة أسانيد متصلة من مشايخ عدة إلى سيدنا أبي الحسن الشاذلي في هذا الحزب وبقية أحزابه ونجيزكم بها.

وهذا الحزب وظفه سيدنا المرسى أبو العباس عليه السلام ^(١) لأتباعه أن يقرأوه بعد صلاة الصبح وأن يقرأوا حزب البحر بعد صلاة العصر.

(١) المرسى أبو العباس هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخزرجي الأنصاري المرسى يتصل نسبه بالصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري (رضي الله عنه) سيد الخزرج وصاحب سقيفة بن ساعدة التي تمت فيها البيعة لأبي بكر الصديق بالخلافة.. وكان جده الأعلى قيس بن سعد أميراً علي مصر من قبل الإمام علي كرم الله وجهه عام ٣٦هـ (٦٥٦م). ولقد ولد أبو العباس المرسى بمدينة مرسية سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) ونشأ بها وهي إحدى مدن الأندلس وإليها نسب فقيل المرسى من أكابر العارفين، وكان يقال إنه لم يرث علم الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه غيره، وهو أجل من أخذ عنه الطريق رضي الله عنه، ولم يضع رضي الله عنه شيئاً من الكتب.

وعلى قرون طويلة تلقى الأولياء ونالوا الفتح ببركة هذين الحزين، وكان سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يوصي أتباعه (إذا قرأتم هذا الحزب فلا تقطعوه حتى تُتمّوه) حتى لا ينقطع بحر الأنوار الذي غصت فيه أثناء قراءته. والصحابة الكرام لم يكتبوا مثل هذه الأحزاب؛ لأنهم كانوا منشغلين في تثبيت الدعوة والجهاد في سبيل الله، بل حتى أنهم لم يدونوا السنة النبوية المطهرة.

ولما استقرت الأمة، ودونت الأمة السنة والعلوم الأخرى وانقضت القرون الأربعة الأولى، ظهرت أحزاب وأوراد الأولياء، وهي منح ربانية تلقوها عن الحضرة العلية فظهرت أحزاب عدة (حزب النووي، وحزب محي الدين بن عربي، وحزب البيومي ... وهكذا).

فهم واسطة في إيصال هذه الأوراد لأتباعهم، حتى أن سيدنا أبا الحسن الشاذلي يقول لمريديه (دّونوا ما أقول فإنني لا أستطيع أن أكرره مرة أخرى) لأنه فيض نازل من الحضرة العلية؛ لأنه مستسلم لربه (كنت لسانه الذي يتكلم له). ومن مزايا الحزب الكبير أنه خالٍ من كل كلمة غريبة، لأن بعض الأولياء أدخلوا ألفاظ غير عربية كالسريانية مثلاً، ونحن ننصح في طريقنا ألا تقرأ حزباً إلا إن كان باللغة العربية، ولك أن تقرأ بغير العربية إن كنت تفهم معناها، فقد

وكان رضي الله عنه يقول علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لا تحملها عقول عموم الخلق، وكذلك شيخه أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لم يضع شيئاً، وكان يقول كتبي أصحابي. وقد ظل الشيخ أبو العباس المرسى يدعو إلى الله ملتزماً طريق التقوى والصلاح ناشراً للعلوم والمعارف بين الخلق ومهذباً لنفوس الطلاب والمريدين حتى وفاته في الخامس والعشرين من ذي القعدة ٦٨٥هـ. (١٢٨٧م). ودفن في قبره المعروف خارج باب البحر بالإسكندرية.

تكون هذه اللفظة السريانية دست على أحزاب الأولياء، ولا تعترض على أهل الطرق الأخرى الذين يقرؤون هذه الألفاظ في أحزابهم على نية شيخهم لاحتمال أن تكون منسوبة للشيخ حقيقة.

ومن مزايا هذا الحزب، أنه يتم الفتح به وكل حسب رزقه الذي كتب له، والفتح يتم بالتدريج كما تشرق الشمس بالتدريج، فيفتح لك كل يوم وينور القلب حتى تستوي شمس الفتح على سماء قلبك، فيتضح لك كل معلوم وتزول من قلبك كل شبهة. ونحن في طريقنا اليسرية الصديقية الدرقاوية الشاذلية وظفناه يوم الثلاثاء صباحاً من كل أسبوع تخفيفاً على المريدين، ولكننا نقرأ حزب البحر كل يوم لقصره حتى يتيسر المواظبة عليه كل يوم.

الشرح

بدأ سيدنا علي أبو الحسن الشاذلي بالاستعاذة (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) والاستعاذة حصن يدخل من خلاله المؤمن في حماية ربه وكنفه من الوسوس والشيطان.

وبدأ بالاستعاذة؛ لأنه سيبدأ بآيات مباركة من القرآن الكريم والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

(أعوذ) أي: التجئ وأحتمي، وقوله (بالله) الباء هي باء الواسطة، وأنا لا ألتجئ إلى الله إلا بباء الواسطة، وباء الواسطة هو رسول الله ﷺ فلولا واسطته بالرحمة والهداية ما وصل إليك شيء ولا تعلمت ولا ذكرت. فعلماء النحو يسمونها (باء الواسطة) والأولياء يعلمون من هو الواسطة وكل له اصطلاحه.

فهو ﷺ الواسطة فلولا ما نزل القرآن، ولولا لسانه ما تيسر القرآن، ولولا روحانيته ما خرجت العوالم من العدم إلى الوجود، فهو واسطة الوجود والإمداد والهداية والوحي، وممكن أن يكون معنى (الباء) للاستعانة.

(من الشيطان الرجيم) قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، والاستعانة نتخلص بها من العدو الخارجي.

ثم قال: (بسم الله الرحمن الرحيم) وهي كلمة اختصها الله لهذه الأمة، فما من شيء يبدأ باسم الله إلا وبورك فيه، وكان يقولها الأنبياء بلفظ (بسم الله)، وبقيت كنزاً مطلسماً عند الله ﷻ ثم نشرها على لسان النبي ﷺ للأمة.

(الله) علم على الذات، وهو اسم جلالي يغلب فيه الخوف على الرجاء لجلاله، فيخفف الجلال بقوله (الرحمن الرحيم) حتى يغطي الجلال بالجمال فتشمر الخوف والرجاء، وهذا من مزايا الطريقة الشاذلية، فالسالك موزون بين الخوف والرجاء، فقلَّ من يجذب في الطريقة الشاذلية، لأنها سلسلة متسلسلة بالعلماء والأقطاب.

فبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) حتى إذا قرأت هذا الحزب وترقيت به ترقيت سالماً غير مجذوب ومتلوف، فالأحزاب مليئة بالأنوار والمعاني التي قد تستولي على قلبك ولا تتحملها فتبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) فتتحملها وتسلك سالماً.

واجتماع الخوف والرجاء معاً متساويان يولد مقام (الاشفاق) ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، فتكون مشفقاً لا تركز إلا لمولائك، فلو أنعم عليك بالدنيا لا تركز ولو سلبك الدنيا بما فيها لا تأس،

وهذا لمن تحقق بمقام الإشفاق فهو في عزلة مع ربه حتى وإن خالط الناس، لذلك لا يبحثون عن العزلة، وهذا حال الكمال كحال سيدنا النبي ﷺ الذي كان يخالط الناس وهو مع الله ﷻ.

إذن: فقد جُمعت في (بسم الله الرحمن الرحيم) جميع الأسرار ففيها الجلال والجمال والخوف والرجاء وفيها ذكر الواسطة لكل موسوط وهو سيدنا محمد ﷺ.

لذلك قال الإمام الغزالي^(١) رحمه الله تعالى في القصيدة المنفرجة:

وبسر الباء ونقطتها من بسم الله لذي النهج

فالأولياء أدركوا أن الباء سرٌّ عظيم، ومن الأسرار أيضاً أن الله تعالى ألهم علماء الخط أن يضعوا النقطة تحت الباء؛ لأن النبي ﷺ اختار أن يكون عبداً نبياً فالتواضع سمة هذا النبي ﷺ، فإذا كان واسطتك متواضعا فكن كذلك، فلا تتعالَ على أحد فأنت عبدٌ، وإن ظهر فيك خيرٌ فهو من مولاك. فانظر إلى هذه الأسرار العظيمة التي أشرنا إليها باختصار الموجودة في هذه الكلمة العظيمة.

(١) الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، بتشديد الزاي. نسبته إلى الغزال (بالتشديد) على طريقة أهل خوارزم وجرجان: ينسبون إلى العطار عطاري، وإلى القصار قصاري، وكان أبوه غزّالاً، أو هو بتخفيف الزاي نسبة إلى (غزالة) قرية من قرى طوس. فقيه شافعي أصولي، متكلم، متصوف. رحل إلى بغداد، فالحجاز، فالشام، فمصر وعاد إلى طوس. من مصنفاته: «السيط»، و«الوسيط»، و«الوجيز»، و«الخلاصة» وكلها في الفقه، و«تهافت الفلاسفة»، و«إحياء علوم الدين». [طبقات الشافعية ٤ / ١٠١ - ١٨٠، والأعلام للزركلي ٧ / ٢٤٧، والوفاي بالوفيات ١ / ٢٧٧]

والرحمن تدل على الإمداد بالنعم الجليلة كالإيجاد من العدم والإبقاء بعد الإيجاد بالإمداد وعناية ورعاية وهداية.

والرحيم تدل على الإمداد بدقائق وتفصيل النعم المعلومه وغير المعلومه فتشمل الشكر على الجليل والقليل والقناعة والرضا بالقسمة.

ثم بدأ الحزب بآية تُغلب الرجاء؛ لأن الإنسان ضعيف والرجاء حافز للحركة والانطلاق للعبادة والعمارة، والخوف يطلب منك السكون للكف عن الحرمان والمعاصي، والعبادة تطلب الحركة والهمة والنشاط وهو يريد أن يدللك على العبادة فيبدأ بآية تعينك على الحركة ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ مِنْكَ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا إِبْجَهَلَةً ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ وكان الخطاب لسيدنا النبي ﷺ ليسين الواسطة المضمرة في (بسم الله). ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ مِنْكَ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا هو تغليب الرجاء، ثم قال ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا إِبْجَهَلَةً ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وفتح باب الرجاء في هذه الآية، وجاءت هذه البشارة على لسان الوارث المحمدي الذي يتكلم على لسان جده المصطفى ﷺ المخاطب بـ (وإذا جاءك) فكل من دخل معنا خاطبناه وبشرناه بهذه البشارة، فإذا ذهبت إلى شيخك تفكر في هذه الآية، وإنك ذاهبٌ لسيدنا النبي ﷺ في صورة وارثه.

ولذلك مشايخ الشاذلية لا يلومون مريديهم؛ لأنه غلب عليه حال الرجاء فيدله للتوبة. وحتى لو كشف الله للشيخ بعض نقائص مريده فيسترها عليه

ويعامله بلا كشف، فلا يفضحه ولا يحاسبه، عملاً بوصية الحبيب المصطفى ﷺ بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا.

ثم قال: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠١) ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣: ١٠١].

وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ يدلّك على أن الطريق إلى الله بدايته معرفة الله ﷻ، فهو سبحانه الذي أبداع السماوات والأرض على غير مثال سابق، فلا كفاء له ولا مثل ولا نسبة بينه وبين مخلوق، فكيف يتولد منه ولد. فبدأ بتصحيح العقيدة.

وانظر إلى هذا التسلسل في الورد: استعاذة من الشيطان ثم أثبت الوساطة ثم دخلت إلى مولاك من باب الإشفاق الذي تولد من مجموع الخوف والرجاء ثم غلب الرجاء لتندفع إلى مولاك ثم أراد أن يعرفك على مولاك قبل أن تدخل إلى حضرته. وقوله (أنى) لبيان الاستبعاد والاستحالة.

وقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، وأنت أيها السالك من الخلق، فهو عليم بك.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقوله "الله" تسبب الخوف والجلال فأتبعها بقوله "ربكم" فدخل الجلال؛ لأن الرب هو المربي، وهو الذي يعتني بك، ولو قال: "ذلكم الله" وسكت لوقفت بعض قلوب المتعلقين من سريان مقام الخوف والهيبة والجلال. فقال "ربكم" للتخفيف والترغيب.

ثم قال: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي اخضعوا له، فالعبادة كمال الخضوع.

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فما دمت شيئاً وهو عَلَيْكَ وكيل على كل شيء فاكثف به، واخرج من خوفك وهمك وسلّم أمرك فهو حسبك وهو وكيلك.

ثم قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي لا تحيط به الأبصار، ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فالإدراك بمعنى الإحاطة، فالعلم بالله موجود ولكن على قدرنا لا على قدره عَلَيْكَ ولكن لا تحيط به أبصار القلوب فما بالك بأبصار الأبدان. فهو عَلَيْكَ لا في مكان ولا في زمان لأن المكان والزمان حد والله خارج عن الحد بل سبحانه موجود لا في مكان ولا في زمان.

وهو اللطيف الخبير، فبلطفه رَقَّ فلا يُدْرِكُ، ومن خبرته لا يغيب عنه شيء فهو حاضرٌ غائبٌ في آن واحد، غائب عن حسك وحاضر في الحقيقة. وكل هذا يولد مقام المراقبة. ثم قال: ﴿الرَّكَهِيْعَصَ حَمَّ عَسَقَ﴾ وهذه الآيات المقطعة قيل فيها الكثير، فقليل هي أسماء الله تعالى، وقيل أن بعض الأولياء يعرف أسرارها، وقيل أنها رموز لأسماء النبي ﷺ، أو رموز لمجالي أسماء الله في الأكوان بمظهر الروحانية، والحقيقة هي من الأسرار العظيمة، وهي مفاتيح للسور التي تصدرتها ومجمل ما فيها من أنوار وأسرار.

وكان سيدنا علي عليه السلام قول: (يا كهيعص أدركني) وكأنه يعتبرها أسماء لله تعالى.

ثم قال: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١١٢) [الأنبياء: ١١٢]، والحقيقة أن سيدنا أبا الحسن الشاذلي بدأ بهذه الآية الكريمة هذا الحزب فرجف قلبه فألهمه الله أن يبدأ بآية وإذا جاءك الذين ليغلب الرجاء.

ثم بدأ بآيات مباركات من سورة طه ﴿طه﴾ (١) ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) ﴿إِلَّا نَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (٣) ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ (٤) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِ الْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) [طه: ٨: ١].

وقوله "طه" قيل هو اسم من أسماء النبي ﷺ، وقيل بمعنى (طأها) عندما تقدم النبي ﷺ في مقام قاب قوسين وأراد أن يخلع نعله فقال (طأها) بنعليك، وسيدنا موسى ﷺ قيل له وهو على الأرض ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٣) [طه: ١٢]، لبيان تفاوت الأنبياء في المقامات.

فبدأ بعلو مقام الوساطة لمقام طه، فأنت تدخل بواسطة النبي ﷺ (ولو جاؤوني من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فُتِحَ لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) وهذا الحديث وإن لم يوجد في كتب الحديث بهذا النص إلا أن معناه صحيح ويوافق ما صح من الأحاديث الدالة على أن مفتاح الجنة بيده وهو عين الرحمة التي يدخل بها أهل التوفيق الجنة لقوله ﷺ « قَارِبُوا وَاسَدُّوا وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْتَ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » (١).

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، أي ما كان التكليف ليشقيك بل ليسعدك.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ ۖ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾، أي عرش الرحمانية (سبحان الذي استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشه فمحت الآثار بالآثار ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار) وهذا هو كلام العارفين والصوفية وأهل الحقائق، وليس بمعنى الجلوس كما قال المجسمة، بل معناه التدبير والخلق والتقدير وكمال التصريف على وفق مشيئته سبحانه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾، فأنت من الأرض وعلى الأرض وستدفن بعد موتك تحت الثرى. فثبت الملك لله في أحوالك في أصل النشأة وفي حياتك وبعد مماتك.

﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِ الْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾، فالسر معروف وهو ما خفي في النفس. و"أخفى" أي سر السر قبل أن يجول في خاطرك، فما بالك لو جال في خاطرك.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، (لأنه ظهر في الأكوان بآثار الأسماء الحسنی التي تجلت كاملة في الروحانية المحمدية؛ لذلك قال سيدي أحمد بن إدريس عن سيدنا محمد ﷺ: (مجلى الكمالات الإلهي الأعظم)، والأسماء الحسنی بعضها للجلال وبعضها للجمال وبعضها للكمال، فالجلال للتعليق والجمال للتخلق والكمال للتحقق.

بعد أن بدأ بالآيات القرآنية والتي تضمنت البشارة والثناء على الله وذكر الوساطة وهو النبي ﷺ، شرع في الدعاء وهذا ليعلمك الأدب في الدعاء والطلب.

قال المصنف: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي بِالْجَهَالَةِ مَعْرُوفٌ، وَأَنْتَ بِالْعِلْمِ مَوْصُوفٌ) قوله: (اللهم) وهذه الكلمة للطلب والدعاء، وقيل إنها اسم الله الأعظم.

ثم قال: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي بِالْجَهَالَةِ مَعْرُوفٌ، وَأَنْتَ بِالْعِلْمِ مَوْصُوفٌ) والله سبحانه وصف الإنسان في قرآنه بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فالجهل صفة العبد والعلم صفة الرب، فالعبد جاهل؛ لأنه مشغول عن العلم والحقائق بما ركز فيه من ضعف وشهوات وغفلة وجهل. وقوله: (معروف) أي موصوف معلوم، وقوله (وَأَنْتَ بِالْعِلْمِ مَوْصُوفٌ) وفيها تنويع للعبارة، وهذا من جمال اللغة، فاللغة العربية فيها ألفاظ كثيرة تؤدي نفس المعنى وهذا يمنع من ملل المستمع. والله سبحانه وتعالى (بكل شيء عليم).

ثم قال: (وَقَدْ وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ جَهَالَتِي بِعِلْمِكَ) لأنه سبحانه وتعالى ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

ثم قال: (فَسِعَ ذَلِكَ بِرَحْمَتِكَ كَمَا وَسِعَتْهُ بِعِلْمِكَ) أي انظر يا رب إلى جهلي نظر الرحمة حتى تغطي جهلي برحمتك وعفوك فيتحول الجهل إلى علم، لذلك قال سيدي ابن عطاء الله السكندري^(١) في الحكم: (تحقق

(١) الإمام تاج الدين أحمد ابن عطاء الله السكندري المتوفي سنة (٧٠٩هـ) كان المتكلم على لسان

بوصفك ونعتك يغطيكَ بوصفه ونعته) فلو تحققت بالجهل عَلمك، ولو تحققت بالعجز أقدركَ ولو تحققت بالافتقار أغناكَ، ولو تحققت بالغفلة ذكركَ فأذكركَ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقوله (فَسَعَّ ذَلِكَ بِرَحْمَتِكَ) فالرحمة تأتي إلى الصفة السلبية تحولها إلى الصفة الإيجابية، فيتحول الجهل إلى العلم.

ثم قال: (وَاعْفُرْ لِي إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) كأن الجهل يستتبع الغفلة، والغفلة تستتبع المعصية لذلك طلب الغفران.

ثم ينتقل الشيخ لنداء الله سبحانه بأسمائه المستوجبة لآثارها، فيقول: (يا الله) الاسم الأعظم الكامل الذي يشمل كل الأسماء. (يا مالك) فأنت المالك فملكني، فهو يطلب أثر الأسماء فيه. (يا وهاب) فطلب أن يملك لأنه عبد فقير، وطلب أن يوهب لأنه لا يملك شيئاً، وطلب من الله الاسم الجامع لكل الكمالات.

ثم قال: (هَبْ لَنَا مِنْ نُعْمَاكَ مَا عَلِمْتَ لَنَا فِيهِ رِضَاكَ) وقال (هب لنا) ولم يقل (هب لي) اقتداءً بالقرآن الكريم والذي يقول في سورة الفاتحة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فتدعو بصيغة الجمع حتى وإن قرأتها منفرداً، وجمع الدعاء هنا ليشمل كل من كان محبباً له وعلى طريقته، بل يشمل الأمة كلها. وكلما كان الدعاء جامعاً يشمل الأمة كان أرجى للقبول، فإذا دعا

الصوفية في زمانه قال الذهبي: كان ابن عطاء يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفس ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم فكثرت أتباعه صاحب أبو العباس المرسي رضي الله عنه وكان وارث حاله. قال عنه الشيخ أبو العباس المرسي: والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً إلى الله. له مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب (الحكم العطائية).

بصيغة الجمع وشمل الأمة كلها والأمة فيها الأولياء والصالحون فيستجيب الله سبحانه الدعاء لبركتهم وكرامتهم.

وقوله: (مِنْ نُّعْمَاكَ مَا عَلِمْتُ لَنَا فِيهِ رِضَاكَ) فالشيخ رحمته الله يطلب النعم التي تكون سبباً للرضا والقرب، ولا يطلب النعمة الحاجة بل النعمة الموصلة، فقد تكون بعض النعم سبباً للبعد.

ثم قال: (وَإِكْسُنَا كِسْوَةً تَقْنًا بِهَا مِنْ الْفِتَنِ فِي جَمِيعِ عَطَايَاكَ) اكسنا أي غطنا واسترنا، بكسوة: أي بغطاء رباني، تقينا به من أن نفتن بالعطايا عن المعطي، وبالنعمة عن المنعم، والفتنة هي أن تستعمل العطاء الإلهي في معصية الله فلا تؤدي حقها.

ثم قال: (وَقَدَّسْنَا بِهَا عَنْ كُلِّ وَصْفٍ يُوجِبُ نَقْصًا مِمَّا اسْتَأْثَرَتْ بِهِ فِي عِلْمِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ) (وقدسنا بها) أي طهرنا بالكسوة الربانية التي تغطي عوراتنا وغفلتنا وشهواتنا وكل ما يحول بيننا وبين الوصول إلى المقامات العلية. وقوله (قدسنا) أي نزهنا من كل نقص وطهرنا ظاهراً وباطناً.

ثم قال: (يَا اللَّهُ يَا عَظِيمُ يَا عَلِيُّ يَا كَبِيرُ) عاد الشيخ رحمته الله إلى نداء الله مرة أخرى بأسمائه ليستجلب آثارها، فأثر اسم (العظيم) أن يعظم نعمة الله في عينك؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يُجَلُّ النعمة وإن دقت، فلا تستقل نعمة من الله عليه السلام؛ لأنها جاءت من عظيم. وأثر اسم (العلي) حتى تعلوا عن كل ما يحجبك عن مولاك. وأثر اسم (الكبير) حتى تتكبر على غفلاتك وشهواتك مستمداً من أثر اسمه الكبير.

ثم قال: (نَسَأْلُكَ الْفَقْرَ مِمَّا سِوَاكَ) لأن الافتقار إلى الله علامة العبودية، والنبي ﷺ كان يقول: «**أَكُلْ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ**»^(١) وكان يأكل وهو جالس على الأرض، وعرض عليه الغنى فأبى، والافتقار إلى غير الله هو نقص العبودية، قال الله ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، فإذا جئته من باب الفقر أغناك ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠] ، فافتقر إليه حتى يغنيك ويتصدق عليك.

ثم قال: (وَالْغِنَى بِكَ حَتَّى لَا نَشْهَدَ إِلَّا إِيَّاكَ) حتى يكون غنانا بك لا بنعمتك، فلا تستغن بالنعمة فإن زالت تبتئس وتيأس، بل استغن بالمغني لا بالنعمة، ولقد عرض على النبي ﷺ أن تصبح جبال مكة في يديه ذهباً وفي يد غيره تراب فأبى؛ لأنه مستغني بالله ﷻ، ومن كان غناه بالذهب ذهب، ومن كان غناه بالفضة انفض، ومن كان غناه بالدرهم درّ الهم، ومن كان غناه بالله لا يفتقر لشيء.

فاليهود اختاروا الغنى بالنعمة ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤] ، فكأنهم لا يصلون إلى الله إلا عن طريق النعم، فشكرهم بالنعمة، فإن زالت النعمة زال الشكر.

أما أمة النبي ﷺ فحالهم أرقى وأعلى فغناهم بالله وليس بالنعمة، حتى لو زالت النعمة فهم مستغنون بالله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ، بعد أن تحققوا بمقام الإيمان؛

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٥٧٢) عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَكُلْ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسْ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**»

لأن الله تعالى تدرج مع أمة النبي ﷺ في مقام الشكر حتى أوصلهم إلى شكر المنعم والاستغناء به عن النعمة.

ففي سورة النحل وهي مكية قال: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤]، وهذه سورة مكية قال فيها (واشكروا نعمت الله) فكأنه يتدرج بهم حتى استقر الإيمان في قلوبهم وأصبح غناهم بالله، فخطبهم في سورة البقرة وهي مدنية قائلاً ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [١٧٢]، وهذه مرتبة أعلى وهي أن تشكر المنعم لذاته. فلا تركز للنعمة ولا تيأس عند زوالها.

ثم قال: (وَالطُّفُ بِنَا فِيهِمَا) أي في الفقر والغنى. ثم قال: (لُطْفًا عَلِمْتَهُ يَصْلُحُ لِمَنْ وَالَاك) أي الطف بنا لطفًا عظيمًا في هذه المقامات العظيمة حتى لا نركن للمقام، فخذنا من المقام إلى المقيم، ومن الحال إلى المحيل، بالرغم من أنها مقامات شريفة كالفقر إلى الله والغنى به لكن مع لطف الله لا تركز للمقام بل تركز للذي أقامك، لأن الأولياء لا تركز إلا لمولاهما.

ثم قال: (وَاكُنَّا جَلَائِبَ الْعِصْمَةِ فِي الْأَنْفَاسِ وَاللَّحْظَاتِ) أي ألبسنا كساء الحفظ من الوقوع في المخالفات أو التقصير في الطاعات.

وطلب الشيخ العصمة؛ لأن الله أمرنا بذلك حيث قال ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فالعصمة إذا نسبت للنبي لها معنى، وإذا نسبت للولي فلها معنى آخر، فالعصمة تعني الحفظ، فإن كانت لنبي فهي سجية وطبيعة، فلا تحدثه نفسه بالمعصية أصلاً، وإن كانت للولي فهي للحفظ أي من الوقوع في المعصية بمباشرتها.

وقال: (فِي الْأَنْفَاسِ وَاللَّحَظَاتِ) حتى لا تعصي ربك ولو في نفس ولحظة.

واللحظات: هي ما تراه بخارج العين، أي على هامش مجال رؤيتك، فلا تنظر لزينة الدنيا متشوقا لتحصيلها وتسمى (الملاحظ)، فإذا لاحظت شيئاً لا تتمناه، ولا تنظر إلى ما في يد أخيك؛ لأن العصمة تمنعك أن تنظر إلى ما في يد غيرك، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَبَاقٍ﴾ [طه: ١٣١]، والنبي ﷺ كان إذا رأى شيئاً من زينة الدنيا يقول «إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَأَغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ»^(١). والشيخ في هذا الدعاء يريد منك أن تتحقق بهذه الحالة النبوية الشريفة، وقد تطلق اللحظات ويراد بها (أجزاء الزمن) أي اللحظة.

ثم قال: (وَاجْعَلْنَا عِبِيدًا لَّكَ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ) أي مفتقرين لك في جميع أحوالنا، فلا تشغل بالنعم التي وهبك عن الافتقار إليه والتذلل بين يديه، كما قال سيدنا موسى ﷺ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، أي ما زلت عبداً لك في جميع الحالات مهما أنزلت من النعم.

ثم قال: (وَعَلَّمْنَا مِنْ لَدُنْكَ عِلْمًا نَصِيرُ بِهِ كَامِلِينَ فِي الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ) وقال (من لدنك) لأن العلم اللدني هو العلم المفيد، أما العلم الكسبي فحجة عليك، والعلم الكسبي هو الذي نتعلمه من العلماء كالأحكام والقواعد

(١) رواه البخاري (٢٨٧١) عَنْ حُمَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْخَنْدَقِ إِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفَرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَيْدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَأَغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ»، ومسلم (٤٧٧٤)، والترمذي (٤٢٢٩)، وابن ماجه (٧٩١).

والأصول والفقه والفروع ... وهذه العلوم لو لم تعمل بها صارت حجة عليك وعاقبك الله على تركها، لكن العلم اللدني من الله ﷻ وهو العلم الذي يتفجر في القلب من معرفة الله والثقة به والتوكل عليه والتفويض إليه والرضا بقضائه والإقبال عليه وحب الخير للآخرين، فهذه حجة لك وترقيك في طريق مولاك. وفي قوله (من لدنك) أي منك مخلوطاً بالرحمة؛ لأن العلم الكسبي قد يكون حجة وسبباً في العذاب إن لم تعمل به.

فالعلم اللدني من علوم القلب، وذرة من علوم القلب تعدل جبلاً من علوم الجوارح، فذرة من التوكل تعدل آلاف الركعات من قلب غير متوكل. وقوله (نصير به كاملين في المحيا والممات) فالعلم اللدني هو الذي يكملك ويرقيك في الدنيا والآخرة.

ثم قال: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْحَمِيدُ الرَّبُّ الْمَجِيدُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ) و(الحميد) بمعنى الحامد والمحمود، الحامد الذي يحمد من يحمده والمحمود الذي يستوجب الحمد. والمعنى المستوجب من هذه الصفات أن الله حميدٌ ومحمود فاجعلني محموداً حامداً وهذا من بركات اسم الحميد.

(المجيد) حتى أكون ماجداً وممجداً؛ لأن مجد العبد في انتسابه إلى مولاك ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله: (الفعال لما يريد) أي إذا أردت ذلك يا رب، حتى وإن لم أكن أهلاً لذلك فأنت قادر على أن تجعلني أهلاً لذلك؛ لأنك الفعال لما تريد ولا يعجزك شيء.

ثم قال: (تَعْلَمُ فَرَحَنَا بِمَاذَا وَلِمَاذَا وَعَلَى مَاذ... أَ وَتَعْلَمُ حُزُنَنَا كَذَلِكَ) والفرح منه ما هو ممدوح وما هو مذموم، فالفرح المذموم قال الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، الفرحين بالنعمة الغافلين عن المنعم. وهذه الآية تتكلم عن قارون الذي فرح بالنعمة وتكبر وغفل. أما الفرح الممدوح فقد قال الله فيه ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، ففرح بما آتاه من الله ﷻ فالتجأ إليه وشكر واستغنى به عن النعمة، والله عز وجل يعلم الفرح وأسبابه وأحواله وتوابعه.

والحزن منه ما هو ممدوح ومنه ما هو مذموم، فالممدوح: هو الشفقة والخوف من الله إجلالاً وتعظيماً. والخوف المذموم: هو الذي يؤدي إلى اليأس من رحمة الله ﷻ.

ثم قال: (وَقَدْ أَوْجَبْتَ كَوْنَ مَا أَرَدْتَهُ فِينَا وَمِنَّا) أي قَدَّرْتَ بقضائك وفرضت علينا بشرعك.

ثم قال: (وَلَا نَسْأَلُكَ دَفْعَ مَا تُرِيدُ) لأنه لا رادَّ لقضائك.

ثم قال: (وَلَكِنْ نَسْأَلُكَ التَّيْيِدَ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِكَ فِيمَا تُرِيدُ) فلو جاء قضائك يا رب بالتأييد فستتحول المحنة إلى المنحة، فلو قدر الله ﷻ المرض على إنسان وكان معه التأييد الإلهي جاء معه الصبر والرضا بقضاء الله فيثبته بصبره على مرضه ما لا يثبته بشكره على نعمه، ولو جاء المرض والابتلاء بغير التأييد الإلهي فمعه الجزع والسخط فيأثم على ذلك، وهذا هو معنى قول بعض الصالحين في دعائه (اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه) وقوله (بروح من عندك) أي بمدد يورث النية الصحيحة والهمة العلية

والمعرفة أن القضاء من القاضي الذي يقضي بحق ورحمة ولطف، وهذا لا يتعارض مع قول النبي ﷺ «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ»^(١) والمقصود بالقضاء في دعاء الصالحين القضاء المبرم والمقصود منه في الحديث الشريف القضاء المعلق فلا تعارض.

ثم قال: (كَمَا أَيَّدْتَ أَنْبِيََاءَكَ وَرُسُلَكَ وَخَاصَّةَ الصَّادِقِينَ مِنْ خَلْقِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) والأنبياء والمرسلون والأولياء والصالحون مروا بمراحل صعبة جداً في حياتهم وابتلاءات شديدة، وهذا ما عرفناه من القرآن الكريم ومن سيرهم، فمنهم من قُتل ومنهم من سُجن ومنهم من مرض ومنهم من طُرد، لكن لما كانوا مؤيدين من الله ﷻ كانت كل مصاعبهم تقربهم من مولاهم، لذلك طلب التأييد المشابه لتأييد الأنبياء والمرسلين والصديقين، ثم ختم دعائه بهذه الآية العظيمة.

ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

ثم قال: (فَهَنِيئًا لِمَنْ عَرَفَكَ فَرَضِي بِقَضَائِكَ) فالرضا بقضاء الله من أعظم العبادات لذلك النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك»^(٢) والرضا بقضاء الله من علامة الإيمان.

ثم قال: (وَالْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْكَ) والويل أي العذاب والثبور وسوء العاقبة لمن لم يعرف ربه.

(١) الترمذي (٢٢٨٩).

(٢) الطبراني في المعجم الكبير (٧٤٩٠).

ثم قال: (بَلِ الْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لِمَنْ أَقْرَبَ بِوَحْدَانِيَّتِكَ وَلَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِكَ) بل: حرف اضراب، أي هناك ويل أشد من الويل الأول، وهو لمن أقر بالوحدانية لكنه اعترض على أمر الله وقضائه.

فالأول جاهل ولم يعرف فأنكر، ولكن العذاب الأشد لمن علم وعرف ثم تكبر فهذا له ويلان، ويل المعرفة وويل عدم الرضا بعد المعرفة.

ثم قال: (اللَّهُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِالذُّلِّ حَتَّى عَزُّوا) حكمت عليهم بالذل لك فعزوا بك، فالتذل لله هو عين العز، فحكمت عليهم بالافتقار لك حتى لا يركنوا لغيرك طرفة عين، حتى عزوا بمعرفتك فاستجلبوا منك حاجتهم.

ثم قال: (وَحَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِالْفَقْدِ حَتَّى وَجَدُوا) هو الفقر، فإذا وجد العبد ربه وجد كل شيء، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، فمن وجد الله استغنى عن كل شيء. أو بالفقد عن شهواتهم فوجدوا معرفتك والفقد عن غفلاتهم فوجدوا ذكرك، والفقد عن جهلهم فوجدوا علمك، والفقد عن عجزهم فوجدوا قدرتك فأقدرتهم.

ثم قال: (فَكُلُّ عِزٍّ يَمْنَعُ دُونَكَ فَتَسْأَلُكَ بِدَلِّهِ دُلًّا تَصْحَبُهُ لَطَائِفُ رَحْمَتِكَ) فكل عز يكون سبباً في الحجب عنك أبدله يا رب واصرفه عني، وأبدله بذل مصحوباً بالرحمة، فلا أياس معه فأرضى به وأستغني به.

ثم قال: (وَكُلُّ وَجْدٍ يَحْجُبُ عَنْكَ فَتَسْأَلُكَ عِوَضَهُ فَقَدْ تَصْحَبُهُ أَنْوَارُ مَحَبَّتِكَ فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَتِ السَّعَادَةُ عَلَى مَنْ أَحْبَبْتَهُ) وكل نعمة تحجب عنك فعوضني عنها بغيبة عن النظر لغيرك، فالسعادة ظهرت على من أحببت بالدنيا

بالرضا بالإقامة، والشكر على الإقامة، والقيام بحق الله ﷻ، فظهرت السعادة على من أحبه الله، فأهل المحبة مشغولون بطاعة مولا هم مع تبدل أحوالهم، فالسعادة في الرضا واليقين، والشقاء في السخط والضجر.

ثم قال: (وَوَظْهَرَتِ الشَّقَاوَةُ عَلَى مَنْ غَيَّرَكَ مَلَكُهُ) فالشقاوة ظهرت على من ملكته الدنيا، فافتقر إليها، فشقي في طلبها والركض وراءها.

ثم قال: (فَهَبْ لَنَا مِنْ مَّوَاهِبِ السُّعَدَاءِ) أي أعطنا من مواهب السعداء الذين أعطوا الرضا واليقين.

ثم قال: (وَاعْصِمْنَا مِنْ مَّوَارِدِ الْأَشْقِيَاءِ) وهي السخط والضجر على كل ما يأتي من الله ﷻ، فيشتكون الخالق للخلق، وهذا هو الكفران الذي يستوجب زوال النعمة.

ثم قال المصنف: (اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ عَجَزْنَا عَنْ دَفْعِ الضَّرِّ عَنْ أَنْفُسِنَا مِنْ حَيْثُ نَعْلَمُ بِمَا نَعْلَمُ، فَكَيْفَ لَا نَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ لَا نَعْلَمُ بِمَا لَا نَعْلَمُ) وهذا تحقق للعبد لجهله بما يؤول إليه على ما يطلبه ويتعلق به قلبه، فربما يكون سببا لهلاكه ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، فقد يسعى الإنسان سعيًا حثيثًا ويلج بالدعاء بما فيه الضرر له وهو لا يعلم، ومثاله الرجل الذي ذهب إلى النبي ﷺ واشتكى له من الفقر وطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله له بالغنى فقال له النبي ﷺ (قليلٌ تؤدي شكره خيرٌ من كثير لا تؤدي شكره) فقال الرجل لا يا رسول الله ادعُ الله أن يغنيني وأنا أؤدي شكره، فلما دعا له رسول الله ﷺ وأغناه الله تعالى وكان يصلي

الفرائض خلف رسول الله في المسجد، بدأ بالتخلف عن أداء الصلوات في المسجد لانشغاله بماله، ثم زاد المال أكثر فكان يحضر الجمعة فقط ثم انقطع عن الجمعة بعد ذلك، وبعدها أرسل له النبي ﷺ يطلب منه الزكاة فاعتذر وتعلل أن لديه مصاريف كثيرة ولن يدفع الزكاة.

وإذا نظرنا إلى هذه الحالة، وجدنا أن حاله قبل الغنى أفضل من حاله بعد الغنى، فهو ظن أن حالة الفقر التي كان عليها ضرر فأراد أن يدفعه بما يعمل، ثم أي بدعاء النبي ﷺ المستجاب الدعوة، فبعد أن جاءه الغنى جاء الشر كله فانقلب على عقبيه.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في القرآن الكريم فقال ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) [التوبة: ٧٧]، فأتبعهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يبعثون فلا تقبل توبتهم في هذه الدنيا.

لذلك سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمه الله بين في هذه العبارة ضعف الإنسان وعجزه عن إدراك ما ينفعه ويضره، فالإنسان قد يعيش في ضرر وبلاء ويعتقد أنه في بلاء وفي الحقيقة هو عين الدواء.

وهذا نراه جلياً في قصة سيدنا الخضر عليه السلام وقتله للغلام، فقتل الغلام بأمر الله ﷻ، والذي لا يعلم بحكمة هذا الفعل ولطف الله فيه سيقول: لِمَ قتله وهو صغير ولا ذنب له؟! ولما وضع سيدنا الخضر مراد الله ولطفه في هذا الفعل، وأن الطفل إذا كبر سيكون عاصياً مجرمًا، فيقدر الله ﷻ أن يموت ويدخله الجنة وهو طفل، ثم يبذلهم ربهما بخير منه زكاةً وأقرب رحماً.

فقد يعتقد العبد بعقله القاصر أن ما يتعلق به قلبه خير ولكن حقيقته شر، لذلك بين الشيخ في هذا الدعاء عجز الإنسان عن إدراك الاختيار المناسب له. قال أحد العارفين: (إذا اخترت فاختر ألا تختار، وفر من ذلك المختار، ومن فرارك إلى من يخلق ما يشاء ويختار) فسلم لقضاء الله وقدره ففيه الخير. وقال سيدي محي الدين بن عربي^(١) (لو خیرت فاختر ما یختار) لأنه إذا اخترت ألا تختار فلا يزال لك اختيار وإرادة.

ثم قال المصنف: (وَقَدْ أَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا وَالْمَدْحَ وَالذَّمَّ أَلْزَمْتَنَا) أي في الشرع الشريف أمرتنا بأوامر نأتمر بها، ونهيتنا عن أشياء ننتهي عنها، ومدحت بعض الأخلاق، وذممت بعض الأخلاق في قرآنك.

ثم قال المصنف: (فَأَخُو الصَّلَاحِ مَنْ أَصْلَحْتَهُ) وأخو الشيء الملازم له، فالملازم للشيء ينسب له، كقولنا (ابن السبيل) للملازم للطريق أكثر من ملازمته للسفر، فأخو الصلاح هو الملازم للصلاح، وأنت الذي أصلحته.

(١) محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي، ويلقب «محيي الدين» و «سلطان العارفين». ولد رضي الله عنه في ليلة الإثنين السابع عشر من رمضان سنة ستين وخمسمائة هـ في مرسية في شرق الأندلس.

كانت نشأة الشيخ ابن عربي نشأة صالحة فقد دأب الشيخ منذ الصغر على تعلم العلم، وطاعة الله تعالى منذ نعومة أظفاره، فما كاد يبلغ الحلم حتى ذاع صيته، وانتشر خبره، وما ذاك إلا لنبوغه وبكارة تحققه بالعلوم وتمكنه منها، علومه رضي الله عنه فيوضات إلهية وفتوحات ربانية حباه بها مولاه جزاء تفرغه الكامل وخلوه الشامل مما سواه، وهذا أساس فتوح أهل الله الصادقين في إرادة وجهه الكريم التاركين لما عداه، توفي رضي الله عنه بدمشق ودفن بسفح قاسيون بالصالحية منها في ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هـ وشيد على ضريحه مقام ومسجد كبير.

ثم قال: (وَأَخُو الْفَسَادِ مَنْ أَضَلَّتْهُ) والله يضل من لازم هواه واتبعه، قال عز وجل ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]، أي يضل من اختار الضلالة، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْهُدَى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فالله لا يظلم أحداً، فهو يذكرك بأن تتبرأ من هواك، فلا تريد إلا مراد الله ﷻ حتى يوفق إلى مراده ويرضى بقسمة الله ﷻ.

ثم قال المصنف: (وَالسَّعِيدُ حَقًّا مَنْ أَغْنَيْتَهُ عَنِ السُّؤَالِ مِنْكَ) فالسعادة أن يتولاك الله ﷻ ويعطيك قبل أن تسأله، فأغنيته عن السؤال منك لانشغاله بذكرك، وقد قال النبي ﷺ في الحديث القدسي (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)^(١).

وهذا مقام لبعض الأولياء (الذين منعهم الأدب عن كثرة الطلب) لأن الأدب أن تعلم أن الله ﷻ يختار لك ما يصلحك، ويمنعك ما يضرك، فتأدب معه وتفوض أمرك لاختياره وتنشغل بذكره وفي إتقان ما أقامك الله فيه.

ثم قال المصنف: (وَالشَّقِيُّ حَقًّا مَنْ حَرَمَتْهُ مَعَ كَثْرَةِ السُّؤَالِ لَكَ، فَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَنْ سُؤَالِنَا مِنْكَ) أي تفضل علينا وأعطنا ما يكفيننا، حتى لا نشعر بوجود النقص فنسألك، أي قنعنا بما رزقتنا وقدرت لنا وأعطينا، وأسعدنا بما كتبته لنا، ولا تجعل سؤالنا سبب غنانا، بل فضلك علينا السابق سبباً لغنانا وليس سؤالنا، فإن سؤالنا لا يغير ما قدرت.

(١) رواه الترمذي (٣١٧٦) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذَكَرَنِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ» قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

ثم قال المصنف: (وَلَا تَحْرِمُنَا مِنْ رَحْمَتِكَ مَعَ كَثْرَةِ سُؤَالِنَا لَكَ) وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ يَدْعُونَ فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ فَيَكُونُ قَسْمَتَنَا الْحَرَمَانُ.

ثم قال المصنف: (وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وهذا من جمال الدعاء ولطائفه أن قرن القدرة بالمغفرة، فلو كتب هذا الدعاء شخص غير الأولياء المفتوح عليهم لقال (واغفر لنا إنك غفور رحيم) ولكن الشيخ له إشارة أخرى أي اغفر لي وإن كنت لا أستحق المغفرة فأنت قادر على أن تجعلني مستحق المغفرة، فغير حالي إلى أحسن حال حتى أستحق غفرانك بقدرتك يا رب.

ويبين أن الداعي قد لا يكون مستحقاً للمغفرة لكنه أحال الأمر على الذي على كل شيء قدير، وهذه نهاية لطيفة لهذا الدعاء.

ثم قال المصنف: (يَا شَدِيدَ الْبَطْشِ يَا جَبَّارُ يَا قَهَّارُ يَا حَكِيمُ) ثم عاد مرة أخرى للدعاء بأسماء الله تعالى، فهو **شَدِيدُ الْبَطْشِ** وهذا الاسم يورث الخوف؛ لأنه هو الذي يعاقب من أعرض عنه. وقوله (يا جبار) تورث الخوف مع الرجاء، ففيها الجمال والجلال وفيها الجبر للمنكسرين، وقوله (يا قهار يا حكيم) لأنك لا تقهر إلا بحكمة، ولا تجبر إلا بحكمة.

ثم قال المصنف: (نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقْتَ) فالله **خَلَقَ** مخلوقات ضارة، فهو يستعيذ من شر المخلوقات المضرة، حتى وإن كانت جميلة الظاهر ويبطن فيها الضرر، فالدنيا وزينتها فيها الضرر، وشر ما خلق فيها ما يحجبك عن الخالق.

ثم قال: (وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ ظُلْمَةٍ مَا أَبْدَعْتَ) لأن الكون كله ظلمة، وما

أناره إلا وجود الحق فيه كما قال صاحب الحكم، أي نعوذ بك أن نحجب بالأكوان عن المكوّن، لأن الأكوان أثار لفعل المكوّن، فإن تعاملت معها لذاتها حُجِبَت عن المكوّن، فأصبحت تتعامل مع الظلمة، والأكوان وجدت لتتبرك لك وتذللك على موجدها وخالقها ومدبرها.

ثم قال المصنف: (وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ كَيْدِ النَّفُوسِ فِيمَا قَدَّرْتَ وَأَرَدْتَ) فالنفوس الأمارة قد تسول الطاعة وهي تريد حظها منها لا لله ﷻ، فقد تأمرك بالطاعة وهي تريد تحصيل الدنيا والجاه والمدح، كما في حديث الثلاثة الذين أول ما تسعر بهم النار^(١) (شهيد ومتصدق وعالم) فالعالم علّم الناس حتى يقال عنه أنه عالم، والشهيد قاتل حتى يقال عنه أنه شجاع، والمتصدق تصدّق حتى يقال عنه أنه كريم، فكان جزاءهم النار. وهذا هو كيد النفوس فتكون الطاعة في ظاهرها طاعة وفي باطنها معصية.

ثم قال المصنف: (وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْحُسَادِ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ)  **وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**  [الفلق: ٥]، فالحسد حق والعين حق، فإذا أنعم الله

(١) رواه مسلم (٥٠٣٢) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ لَهُ نَاتِلْ أَهْلَ الشَّامِ أَيُّهَا الشَّيْخُ حَدَّثَنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَعَمْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

عليك بالوصال والقرب وحسن التوجه ربما يحسدك أحد، فيقطع عليك بحسده، لأن أصحاب النعم محسودون.

ثم قال المصنف: (وَنَسَأْلُكَ عِزَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا سَأَلَكُهُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ) دعا بدعاء النبي ﷺ اقتداءً وتبركاً ثم بين ما هو عز الدنيا والآخرة.

ثم فقال: (عِزَّ الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ) فعز الدنيا ليس بالمال والجاه والنسب والعافية، بل عز الدنيا الإيمان بالله ومعرفة.

ثم قال المصنف: (وَعِزَّ الْآخِرَةِ بِاللَّقَاءِ وَالْمُشَاهَدَةِ) والله ﷻ قال في حق الكفار والمجرمين ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فعز الآخرة أن لا تحجب.

ثم قال المصنف: (إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ) فقبول الدعاء من مقتضيات اسم السميع والقريب والمجيب.

ثم قال المصنف: (اللَّهُمَّ إِنِّي أُقَدِّمُ إِلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ كُلِّ نَفْسٍ وَلَمْحَةٍ وَطَرْفَةٍ يَطْرُقُ بِهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ) والنفس هو الهواء الخارج والداخل في أجسام الأحياء، والمراد أي في كل لحظة من الزمن، واللمحة: النظرة، والطرفة: هي حركة الجفن.

ثم قال المصنف: (وَكُلُّ شَيْءٍ هُوَ فِي عِلْمِكَ كَائِنٌ أَوْ قَدْ كَانَ أُقَدِّمُ إِلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ ذَلِكَ كُلِّهِ) ثم ذكر بعد ذلك آية الكرسي، وهي أعظم آية في القرآن الكريم، ففيها الحفظ والمعرفة وطلب الشفاعة والبعد عن الشياطين، فتكون محفوظاً في كل لحظة ونفس وطرفة وحركة.

ثم قال المصنف: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، من قرأها قبل نومه لا يمسه شيطان، ومن قرأها دبر كل صلاة لا يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ومن قرأها في بيته لا يدخل بيته شيطان.

ثم قال المصنف: (أَفَسَمْتُ عَلَيْكَ بِبَسْطِ يَدَيْكَ وَكَرَمِ وَجْهِكَ وَنُورِ عَيْنِكَ وَكَمَالِ أَعْيُنِكَ) يجوز القسم بصفات الله ﷻ، وهو هنا يستحلف ربه بربه وبلطفه وكرمه، وقوله (ببسط يديك) قال تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، خزائنه لا تنفذ، وقوله (وكرم وجهك) أي كرم وجهتك حيث نتوجه إليك ﴿فَإِنَّمَا تُولَوُا فَتْحٌ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، أي فأينما تولوا تريدون الله ففتح وجه الله، وقوله (ونور عينيك) أي حفظك، وقوله (وكمال أعيُنك) أي كمال الحفظ والإحاطة.

ثم قال المصنف: (أَنْ تُعْطِيَنَا) وقال (تعطينا) في صيغة الجمع؛ لأنه يمثل نفسه وأتباعه ومريديه وأحبابه وأمة النبي ﷺ.

ثم قال: (خَيْرَ مَا نَفَذْتَ بِهِ مَشِيئَتِكَ، وَتَعَلَّقْتَ بِهِ قُدْرَتُكَ، وَجَرَى بِهِ قَلَمُكَ وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ) فهو يطلب من الله ﷻ أن تكون اختياراته لنا هي عين الخير لنا في كل الأحوال.

ثم قال المصنف: (وَإِخْفِنَا شَرَّ مَا هُوَ ضِدُّ لَدَلِكَ، وَأَكْمِلْ لَنَا دِينَنَا وَأَتِمِّمْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ) وكمال الدين بالمعرفة والاستقامة وتمام النعمة بشكرها.

ثم قال المصنف: (وَهَبْ لَنَا حِكْمَةَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ) أي اجعلنا نرى حكمتك من وراء أسبابك حتى نراك ولا نحجب بالأسباب عنك.

ثم قال المصنف: (مَعَ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ وَالْمَوْتَةِ الْحَسَنَةِ) أي حسن الخاتمة.

ثم قال المصنف: (وَتَوَلَّ قَبْضَ أَرْوَاحِنَا بِيَدِكَ) لأن من كرامة العبد عن مولاه أن يتولى قبض روحه بيده لا بملك الموت، وهذه خصوصية لبعض المصطفين الأخيار.

ثم قال المصنف: (وَحُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَيْرِكَ فِي الْبَرْزَخِ وَمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ) لأن كل مرحلة تعيش فيها برزخ بينها وبين المرحلة الأخرى، فلا تجعلنا في أي مرحلة من المراحل من المحجوبين عنك. فالبرزخ: يطلق على فترة القبر، وما قبله فترة الدنيا، وما بعده البعث والنشور.

ثم قال المصنف: (بِنُورِ ذَاتِكَ وَعَظِيمِ قُدْرَتِكَ وَجَمِيلِ فَضْلِكَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

ثم قال المصنف: (يَا اللَّهُ يَا عَلِيَّ يَا عَظِيمُ يَا حَلِيمُ يَا حَكِيمُ يَا كَرِيمُ يَا سَمِيعُ يَا قَرِيبُ يَا مُجِيبُ يَا وَدُودُ) ثم عاد لدعاء الله ﷻ بأسمائه التي تستوجب آثاره في الوجود، فهو يستدعي آثار الأسماء في الأكوان، وهو من الأكوان، عسى أن يصيب منها أكبر نصيب.

ثم قال المصنف: (حُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَالنِّسَاءِ) وهي أن تحجب بالدنيا والنساء عن طاعة مولاك، وتستعملها في معصية مولاك فتكون سبباً في بعدك عن ربك.

ثم قال المصنف: (وَالْغَفْلَةُ وَالشَّهْوَةُ وَظُلْمُ الْعِبَادِ وَسُوءُ الْخُلُقِ، وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَأَقْضِ عَنَّا تَبِعَاتِنَا) واقض عنا تبعاتنا أي ما وليتنا به على الخلق من حقوق ووجبات، فتحملها عنا.

ثم قال المصنف: (وَاكْشِفْ عَنَّا السُّوءَ، وَنَجِّنَا مِنَ الْغَمِّ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْهُ مَخْرَجًا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

ثم قال المصنف: (يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ) عاود النداء باسم الجلالة، والطريقة الشاذلية تتبنى السلوك بالاسم المفرد (الله) لأنه الاسم الجامع لكل الأسماء، والبدال على الذات وعلى الصفات، وهو بكله يدل على الكل، فهو (الله) ولو حذفت الالف صارت (له)، ولو حذفت اللام صارت (له)، ولو حذفت اللام الثانية صار (هو)، فهو بكله دالٌّ عليه سبحانه وتعالى.

فالمبتدئون يذكرون ب(لا إله إلا الله)، والواصلون يذكرون ب(الله) حتى يتحول الذكر إلى قلبه دون أن يشعر. فإذا أتممت الأوراد فأكثروا من ذكر (لا إله إلا الله) حتى ينقلك الله إلى ذكر (الله)، فيحولك الله من النفي إلى الإثبات، وهذا حال الإمام أبي بكر الشبلي^(١)، وعندما سأله لم تذكر بلفظ الجلالة ولا تقول (لا إله إلا الله) قال كنت اذكر بها، والآن لا أستطيع إلا الإثبات وكررها ثلاثاً، لأن مراتب الدين ثلاث (إسلام وإيمان وإحسان) و(شريعة وطريقة وحقيقة).

(١) شيخ الطائفة أبو بكر الشبلي البغدادي، ولد في سامراء عام ٢٤٧ هجري، كان أبوه من كبار حجاب الخلافة، صحب الشبلي الإمام الجنيد وغير ممن كانوا في عصره، كان الشبلي فقيهاً على مذهب الإمام مالك، صار شيخاً وقته: حالاً وعلماً ومقالاً، توفي سنة ٤٣٣ هجري ودفن في بغداد وله مقام يزار.

ثم قال المصنف: (يَا لَطِيفُ يَا رَزَّاقُ يَا قَوِيُّ يَا عَزِيزُ)، وأضاف بعض الأسماء الحسنى في دعائه بعد لفظ الجلالة لتعينه في تحقيق مراده. و(اللطيف) هو الذي يوصل العبد من طرق لا يدرىها، ومن لطفه يرق معناه، فلا تشعر بهذه النعم للطفه، واللفظ يقتضي القرب والشفافية وعدم الحجاب بالحس، لذلك من داوم على اسم (اللطيف) غاب عن الحس وفتح له ما وراء الحس، لكنه لا يذكر إلا بضوابط كي لا ينشغل بالكشف عن التكليف.

و(الرزاق) فالشيخ يستدعي الرزق من مقتضيات اسمه الرزاق، والرزق حساً ومعنى، فاللابدان الطعام والشراب، وللقلوب معرفة الله وللأرواح إدراك الحقائق الإلهية، وللسر الأنس بالله، فعندما قال (يا رزاق) فهو يقصد الرزق بجميع أقسامه.

وقوله (يا قوي)، فالقوي هو الذي يفعل ما يريد دون جهد ومعالجة وآلة، فهو يفعل ما يشاء بكن، فبمجرد توجه الإرادة للقدرة تفعل القدرة، فهو على كل شيء يريده قدير. ومن مقتضيات اسمه القوي الحصول على المراد دون جهد أو تعب.

وقوله (يا عزيز) ومن مقتضيات اسم العزيز أن يعزك الله فلا تركز إلى دنيا ولا تخاف من سواه، فبدعائه بهذه الأسماء يستمد من أسرارها ما يجعله متصفاً بها، واستعمل أداة النداء (يا) التي تُستعمل لنداء البعيد؛ لبعد منزلة المنادى سبحانه وكذا لبعد العبد عن مولاه بغفلته.

ثم قال المصنف: (لَكَ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) والمقاليد أي مفاتيح، فلك خزائن السماوات والأرض، وهذه المفاتيح كما في صحيح

البخاري فقد أعطاها الله سبحانه للنبي ﷺ حيث قال : «بينما أنا نائم إذا أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض»^(١)، فالمفاتيح بيد الله ﷻ وكل بها لنبي ﷺ من حيث الروحانية حيث تجلى عليها بالرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وحتى مفتاح الجنة بيده ﷺ.

ثم قال المصنف: (تَبْسُطُ الرِّزْقُ لِمَنْ تَشَاءُ وَتَقْدِرُ) الرزق المعنوي والرزق الحسي، وأعظم الرزق هو الإيمان بالله تعالى ومعرفته. وهذا أعظم من إعطائك خزائن الأرض، لأن الرزق المعنوي تجد ثمرته في الدنيا والاخرة. ثم قال المصنف: (فَابْسُطْ لَنَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَوْصَلُنَا بِهِ إِلَى رَحْمَتِكَ) والرزق الذي يوصلك إلى رحمته هو الإحسان في كل شيء ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ثم قال المصنف: (وَمِنْ رَحْمَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نِقْمِكَ) النقم هي ما تستدعي العقوبة، فهو يطلب الرزق الذي يعينه على إتقان الطاعة، والرزق الذي يعينه على تجنب المعصية، وهذه هي عين الرحمة.

ثم قال المصنف: (وَمِنْ حِلْمِكَ مَا يَسَعُنَا بِهِ عَفْوَكَ)، أي في وقت فتوري وضعفي سعني بحلمك حتى اتوب وأعود إليك منبها مرة أخرى.

ثم قال المصنف: (وَاخْتِمْ لَنَا بِالسَّعَادَةِ الَّتِي خَتَمْتَ بِهَا لِأَوْلِيَائِكَ)، والولاية ولايتان، ولاية المؤمنين وولاية المتقين، فولاية المؤمنين هي

(١) البخاري (٢٩٧٧) حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب فينما أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت بيدي».

بالطاعة وبتولي الله ﷻ، وولاية المتقين وهم من تولاهم الله ﷻ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الباقية: ١٩] وولاية المؤمنين هداية ورعاية وإقامة لهم في الطاعة، وولاية المتقين تعريف وتحقيق وتحقق، فهي أخص من ولاية المؤمنين.

ثم قال المصنف: (وَأَجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِنَا وَأَسْعِدْهَا يَوْمَ لِقَائِكَ)، وهذا بعد أن تصل إلى مرحلة تتمنى لقاء الله ﷻ ولا تستوحش، فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، وقد سألها الحبيب المصطفى ﷺ فقال « وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ صَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ »^(١).

ثم قال المصنف: (وَزَحْزَحْنَا فِي الدُّنْيَا عَنْ نَارِ الشَّهْوَةِ) زحزحنا بمعنى أنقلنا، ونار الشهوة هي التي تحرق كل كمال وكل قرب، وكل طاعة، وهي التي تدفع لارتكاب المعاصي، لأن الشهوة هي الميدان الذي يلعب فيه الهوى والذي يأتي إليه الشيطان، فالشهوة أصل الهوى ومرتع الشيطان.

ثم قال المصنف: (وَأَدْخَلْنَا بِفَضْلِكَ فِي مَيَادِينِ الرَّحْمَةِ) لأن الرحمة

(١) النسائي (١٣١٣) عن عطاء بن السائب عن أبيه قال: صَلَّى بِنَا عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ لَقَدْ خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ فَقَالَ أَمَّا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا قَامَ تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ هُوَ أَبِي غَيْرَ أَنَّهُ كَتَى عَنْ نَفْسِهِ فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ اللَّهُمَّ يَعْلَمُكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتَكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْبَبْنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ وَأَسْأَلُكَ فَرَّةً عَيْنٍ لَا تَنْقُطُ وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ صَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِرِزْقِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ. ورواه أحمد (١٨٦١٥).

لها صور عديدة، فهي ميادين، وكلمة ميادين تدل على سعة الرحمة، فهناك رحمات في الطاعة، ورحمات في العلوم والمعارف، ورحمات في المعاملات، وهكذا.

ثم قال (وَإِكْسُنَا مِنْ لَدُنْكَ جَلَائِبَ الْعِصْمَةِ) أي واعصمنا ونحن في ميادين الرحمة ألا نرى أنفسنا بعملنا فيها بل نرى فضلك، فننشغل بك عن النعمة.

ثم قال المصنف: (وَاجْعَلْ لَنَا ظَهِيرًا مِنْ عُقُولِنَا) ظهيراً بمعنى معيناً، فيكون عقلك معيناً لك في فهم مراده منك، وليس معيناً لك على الاعتراض على مراد الله منك.

ثم قال المصنف: (وَمُهِمِّنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا) أي تكون الروح هي المهمة والمشرقة عليك والموجهة لك وليس الجسد الفاني الطالب للشهوات، فالروح تطلب العلو والسعادة الدائمة، والشهوة تطلب السفلى واللذة العاجلة.

ثم قال المصنف: (وَمُسَخِّرًا مِنْ أَنْفُسِنَا) أي وسخر لنا نفوسنا في طاعتك، وأن نكون حاكمين عليها فتطيعنا في فعل ما ترضاه، فتكون الأنفس مسخرة لنا على مقتضى ما فتحته لنا من هيمنة أرواحنا، فتسخرها في طاعتك.

ثم قال المصنف: ﴿كَيْ نَسِيحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾

﴿٣٥﴾ [طه: ٣٣ - ٣٥]، فنصل إلى حالة نلهم بها التسبيح والعبادة والذكر كما ألهمتنا النفس بلا تكلف، وهذا هو المقام الذي يسميه الصوفية (رفع التكليف) وهو أن يعبد الإنسان ربه بغير جهد وكلفة، لا كما توهمه البعض على إنه رفع التكاليف الشرعية عن العبد، فتكون العبادة هنا سجية وصفة ملازمة للعبد فلا

يستطيع أن يعصي ربه، لذلك كان النبي ﷺ يقول لبلال (أرحنا بها يا بلال)^(١) أي بالصلاة، فكانت راحته ﷺ من الدنيا بصلاته ومناجاته لربه ﷻ.

ثم قال المصنف: (وَهَبْ لَنَا مُشَاهِدَةً تَصْحِبُهَا مُكَالِمَةٌ) وهنا انتقل من طلبه للمراقبة والتحقيق بها إلى طلب مقام المشاهدة، المستشرف إلى الوصول ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. وطلب المكالمة؛ لأنه قد تُشاهد الحقائق ولكن لا تُخاطب فيها، وهو يريد أن يُسعد بخطاب مولاه، وهو أقرب إليك من حبل الوريد.

ثم قال المصنف: (وَأَفْتَحْ أَسْمَاعَنَا وَأَبْصَارَنَا) حتى نبصر ما يوصلنا إليك ونسمع ما يقربنا منك.

ثم قال المصنف: (وَإِذَا ذَكَّرْنَا إِذَا غَفَلْنَا عَنْكَ بِأَحْسَنَ مِمَّا تَذَكَّرْنَا بِهِ إِذَا ذَكَّرْنَاكَ)، أي يا رب اجعل ذكرك وحبك لي بلا علة مني، لأنه القائل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وذكرك سبباً لذكره لك وهو يريد أن لا تكون علاقته بربه علاقة علة بمعلول بل علاقة محبة بلا علة، حيث إنه يعطيه حال غفلته أكثر من حال ذكره، أي أنا متبرئ من عملي وحولي وقوتي فيكون فضلك علي بلا مقابل مني، وهذا من باب الافتقار وان لا ترى لنفسك عمل وعبادة، وهذا حال الواصلين (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك).

(١) أبو داود (٤٩٨٧) عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ قَالَ رَجُلٌ قَالَ مَسَعَرُ أَرَاهُ مِنْ خُرَاعَةٍ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرْحَنَا بِهَا». وأحمد (٢٣٥٥٨).

ثم قال المصنف: (وَإِزْحَمْنَا إِذَا عَصَيْنَاكَ بِأَتَمِّ مِمَّا تَرَحَّمْنَا بِهِ إِذَا أَطَعْنَاكَ)، حتى لا تظن إنك إذا قابلت ربك قابلية بعملك واجتهادك بل بمحض فضله، فلا تذكر مع الله إلا افتقارك وبعذك وفضل الله عليك.

ثم قال المصنف: (وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ)، فهو يطلب أن يصل إلى المقام البدرى، وهو مقام أهل بدر الذين خوطبوا بقول (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)^(١).

ثم قال المصنف: (وَالطُّفُ بِنَا لُطْفًا يَحْجُبُنَا عَنْ غَيْرِكَ وَلَا يَحْجُبُنَا عَنْكَ)، أي اجعل لنا بلطفك حجابا في عين قلوبنا يحجبك عن رؤية السوى والأكوان، ولا يحجبنا عنك يا الله.

ثم قال المصنف: (فَإِنَّكَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، أي بكل شيء يحجبني عنك ويمنعني عنك فأنت عليم به، فأبعده عني بلطفك.

(١) رواه البخاري (٣٠٤٤) عن علي رضي الله عنه يقول: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَالَ انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ فَإِنَّ بِهَا طَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلِقُوا تَعَادَى بِنَا حَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالطَّعِينَةِ فَقُلْنَا أَخْرِجِي الْكِتَابَ فَقَالَتْ مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا لَتُخْرِجِي الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا حَاطِبُ مَا هَذَا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ صَدَقْتُمْ قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُتَافِقِ قَالَ إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطَاعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. ومسلم (٦٥٥٧)، وأبو داود (٢٦٥٢)، واحمد (٨٠٥٥).

ثم قال المصنف: (اللَّهُمَّ اَنَا نَسَأُكَ لِسَانًا رَطْبًا بِذِكْرِكَ)، والنبي ﷺ يقول: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) (١).

ثم قال المصنف: (وَقَلْبًا مُنْعَمًا بِشُكْرِكَ، وَبَدَنًا هَيِّنًا لِيَنَّا لِبَطَاعَتِكَ) حتى لا يكون مع الذين انشغلوا بالمعاصي، ويكون بدنك مطيعاً لربه ﷻ.

ثم قال المصنف: (وَأَعْطَيْنَا مَعَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ) وهي المعارف الإلهية، وفضل الله الواسع الذي لا حد له من جنة المعارف وجنة الزخارف.

ثم قال المصنف: (كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُكَ ﷺ حَسْبَمَا عَلِمْتَهُ بِعِلْمِكَ) لأن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لأهل المعارف، وفيها الحور والأنهار والقصور لأهل اليمين. فأهل المعارف لهم جنة المعارف داخل جنة الزخارف، ولهم جنة المعارف في الدنيا قبل الآخرة. وقوله (حسبما علمته بعلمك)، لأنك تعلم المؤهلين لهذا العطاء العظيم فاجعلني منهم.

ثم قال المصنف: (وَأَغْنِنَا بِلا سَبَبٍ) أي اجعل غنانا بك لا بالأسباب. ثم قال المصنف: (وَأَجْعَلْنَا سَبَبَ الْغِنَى لِأَوْلِيَائِكَ)، وهذا مقام عال جداً، أن يكون غناك بالله، وغنى الأولياء بك، وهذا مقام القطب الغوث الذي يستمد من النبي ﷺ ويتمد غيره.

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّهُ بِهِ قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وابن ماجه (٣٩٢٥)، واحمد (١٧٩٥٦).

ثم قال المصنف: (وَبَرَزَخًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي اجعل حماية أوليائك بنا وبجاهنا، فإذا لاذوا بنا لا يصيبهم ضرر، فنكون سلاحاً للأولياء ضد أعدائهم.

قول المصنف: (اللَّهُمَّ أَنَا نَسْأَلُكَ إِيْمَانًا دَائِمًا) لأن الإيمان قد يزول فهناك من آمن، ثم اهتز وأنكر الإيمان، والإيمان الدائم هو الذي يذوق فيه الإنسان حلاوة الإيمان، فمن ذاق حلاوة الإيمان دام إيمانه. والإيمان: هو التصديق بما جاء على لسان رسول الله ﷺ قرآنًا وسنة والعمل بمقتضى ذلك، فالإيمان عبادة والمداومة على العبادة عبادة أخرى.

ثم قال: (وَنَسْأَلُكَ قَلْبًا خَاشِعًا) والقلب الخاشع هو القلب الذي فيه شفقة ورحمة وخشية ورجاء، ومجموع ذلك يكون القلب الخاشع، والقلب الخاشع هو الذي تقبل أعماله والله ﷻ لا يقبل من القلب البائس الذي غلب خوفه على رجائه، ولا يقبل من قلب غلب رجاءه حتى كاد يأمن مكر الله، أما القلب الخاشع فهو محل نظر الله ﷻ.

ثم قال: (وَنَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا) وهو العلم المَوْصَلُ إلى خشية الله ﷻ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾، فالعلم النافع هو الذي يثمر الخشية، والعلم الضار هو الذي لا يثمر الخشية، بل يثمر الكبر والشعور بالتميز والتعالي على الخلق، فقد يغتر الإنسان بعمله فيكون سبب هلاكه. وقد يحجب الإنسان بالمعلومات عن المعلوم، فأبي علم يوصلك إلى الله ويورث الخشية في قلبك فهو العلم النافع. والعلوم القلبية أنفع من العلوم العقلية؛ لأن العقل يدرك، والقلب يعرف ويفقه، فالفقه محله القلب،

والإدراك محله العقل، وليس كل ما يدرك يفقه ويفهم، فالعلم النافع هو المتولد في القلب وليس المتولد من العقول.

ثم قال: (وَنَسْأَلُكَ يَقِينًا صَادِقًا) واليقين هو الذي تولد من العلم النافع، لأنه قائم على الدليل، فإذا عملت بمقتضى هذا العلم رَقَّكَ اللهُ ﷻ إلى حالة من اليقين تصير مستغنٍ عن الدليل، فاليقين شهود ومعرفة والعلم دليل، فإذا كنت عارفا لا تفتقر إلى الدليل، لذلك هو طلب العلم النافع القائم على الدليل الموصول إلى مراد الله ﷻ، وقوله (صادقا) يطلب اليقين الصادق لأن الصدق هو مراد الله ﷻ من خلقه لذلك قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ثم قال: (وَنَسْأَلُكَ دِينًا قَيِّمًا) والدين القيم هو دين الإسلام، وقد يطلق الدين على الديدن والعادة والسلوك، فكأنه يريد أن يكون سلوكه موافقا للدين القيم.

ثم قال: (وَنَسْأَلُكَ دِينًا قَيِّمًا) فلا تدوم لك الطاعة إلا بالعافية، والعافية هي البراءة من أن تشغل بغير الله ﷻ، والبلاء أن تكون منشغلا بغير الله ﷻ.

ثم قال: (وَنَسْأَلُكَ تَمَامَ الْعَافِيَةِ) فقد توجد العافية لكنها غير تامة، وتمام العافية ألا يعصى الله بنعمه وألا تشغل بالنعمة عن المنعم.

ثم قال: (وَنَسْأَلُكَ دَوَامَ الْعَافِيَةِ) أي المداومة على العافية حتى أستطيع المداومة على إقبالي عليك.

ثم قال: (نَسْأَلُكَ الشُّكْرَ عَلَى الْعَافِيَةِ) لأن الشكر يستجلب زيادة النعمة ﴿لَيْنَ شُكْرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثم قال: (وَنَسَأَلُكَ الْغِنَى عَنِ النَّاسِ) لأن الاستغناء عن الناس هو عين العزة، وعين الثقة بالله، وعين التفويض لله، والرضا بقضاء الله ﷻ.

ثم قال: (اللَّهُمَّ أَنَا نَسَأَلُكَ التَّوْبَةَ الْكَامِلَةَ) والتوبة الكاملة هي التي تشمل كل المعاصي والمخالفات الظاهرة والباطنة.

ثم قال (وَالْمَغْفِرَةَ الشَّامِلَةَ): والمغفرة ثمرة قبول التوبة.

ثم قال (وَالْمَحَبَّةَ الْجَامِعَةَ): وهي أن تجمع على ربك فتصل إلى مقام الجمع.

ومقام الجمع: هو أن تفنى عن حالك في مرادات ربك، والذي عبّر عنه سيدنا إبراهيم الدسوقي ﷺ في صلاته (وخذني إليك مني، وارزقني الفناء عني، ولا تجعلني محجوباً بحسي مفتوناً بنفسي) فالمحبة الجامعة هي أن تكون مجموعاً مع محبوبك بحيث تصير أنت ومحبوبك شيئاً واحداً، فيصير محبوبك هويتك، لذلك قال سيدي محي الدين بن عربي ﷺ: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) أي الله من أهوى ومن أهوى الله؛ لأنه لا أنا منفصلة عن الله بل هو صار بالله. فالمحبة الجامعة أن تتكلم على لسان الحضرة، وألا تكون مع الحضرة اثنين بل واحداً، فكأنك فنيت بالحضرة ولا وجود لك إلا بها، فصرت مظهراً لها.

ثم قال: (وَالْخُلَّةَ الصَّافِيَةَ) وهي المودة الخالصة، فسيدنا إبراهيم عليه السلام خليل الله وسيدنا محمد ﷺ خليل الله وحيبيه، فالخلة هي صفاء المودة التي لا علة لها ولا رغبة فيها سواه.

ثم قال: (وَالْمَعْرِفَةُ الْوَاسِعَةُ) فالمعارف هي المرادات الإلهية مع إدراك الحكمة فيها، والمعرفة فوق العلم عند الصوفية؛ لأن المعرفة لا تقتصر إلى دليل ولا يتطرق إليها شك أو شبهة، والعلم يفتقر إلى دليل؛ لأن المعرفة كشف والكشف لا يحتاج إلى دليل. فالعلم يثمر العمل والعمل الصالح يثمر المعرفة في القلب. وقال (المعرفة الواسعة) وليست الضيقة لكي يتسع قلبك لمرادات الله فيك وفي غيرك، فلا تعترض حتى على فعله في غيرك؛ لأنك قد تكون راضياً على فعل الله ﷻ فيك لكن معترض على فعل الله في غيرك، وتقول: (لِمَ هذا فقير؟ وَلِمَ هذا أعمى؟ وَلِمَ هذا مبتلى؟) وهذه ليست بمعرفة واسعة بل معرفة ضيقة في دائرة نفسك فقط، والشيخ يطلب المعرفة الواسعة.

ثم قال: (وَالْأَنْوَارُ السَّاطِعَةُ) والأنوار مطية المعارف، أي تتركب الأنوار لتصل إلى المعارف، فالأنوار تكشف المعارف. ومثال ذلك إذا كنت جالساً في غرفة مظلمة لا نور فيها، فلن تستطيع معرفة محتوياتها، وبدخول النور فيها ستكشف لك المحتويات. فالشيخ يطلب الأنوار الساطعة لتكشف له المعارف الواسعة.

والأنوار ليست مقصودة لذاتها، بل هي وسيلة لإدراك المرادات، وهناك من ينبهر بالأنوار فيحجب بها، وآخرين تكون الأنوار سبباً لمعرفته وإدراكه. وقال: الأنوار الساطعة ولم يقل المبهرة أو المضيئة، بل الساطعة التي تسطع فتظهر، ولا تحجب.

ثم قال: (وَالشَّفَاعَةُ الْقَائِمَةُ) والشفاعة هي الوسيلة التي تعينني من خارج ذاتي، حتى أكون أهلاً لهذا القبول، وتكون الشفاعة بفضل الله عز وجل

أو بشفاعة النبي ﷺ أو بحب الصالحين. وهذه الشفاعات تسهل لك قطع الطريق بأمان، وقوله (القائمة) أي مداومة وقائمة على رعايتي فلا تكنني إلى نفسي ولا لدعوتي.

ثم قال: (وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) وهي الحجة التي لا يكون معه شبهة فينقشع عنك كل شبهة بالله ﷻ وبالنبي ﷺ وبالشرع الشريف وبخلق الله.

ثم قال: (وَالدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ) أي الدرجة العالية في درجات الترقى عند الله ﷻ، ودرجات الله ﷻ لا نهاية لها.

ثم قال: (وَفُكٌّ وَثَاقُنَا مِنَ الْمَعْصِيَةِ) أي فك قيودنا، وكأن المعصية قيد يُعْطَلُّك في سيرك إلى مولاك، فالمعاصي قيود وعوائق.

ثم قال: (وَرِهَانُنَا مِنَ النِّعْمَةِ بِمَوَاهِبِ الْمِنَّةِ) فالمعصية قيد يحبسك عن الترقى، والنعمة قد ترهنك عندها إذا تعلق بها، والمرهون هو المحبوس.

ثم قال: (بمواهب المنة) أي استجب لما طلبته منك بمنتك لي لا بما صدر مني، فأنا لا يصدر مني إلا اللؤم والضعف وعدم الهمة، فأطلب منك المواهب بمنتك وفضلك.

والمنة: هي الفضل الذي يأتي من غير سابق عمل، وهذا الدعاء فيه إظهار الافتقار، وعدم الاعتماد على العمل، وهذا هو عين العبودية.

ثم قال: (اللَّهُمَّ أَنَا نَسَأُكَ التَّوْبَةَ وَدَوَامَهَا) والتوبة درجات، فتوبة العوام من خوف العقاب، وتوبة الخواص رغبة في الثواب، وخواص الخواص فالتوبة مما سوى الله ﷻ.

ثم قال: (وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَأَسْبَابِهَا) وأسباب المعصية هي شهوات في النفس وهواها، وهي والتي توصلك للوقوع في المعصية، أو خارجة عن النفس كالصحبة السيئة التي تزين لك المعصية.

ثم قال: (فَذَكِّرْنَا بِالْخَوْفِ مِنْكَ قَبْلَ هُجُومِ خَطَرَاتِهَا) أي قبل تولد فكرة المعصية في نفسي، امحقتها بالخوف منك.

ثم قال: (وَاحْمِلْنَا عَلَى النَّجَاةِ مِنْهَا وَمِنَ التَّفَكُّرِ فِي طَرَائِقِهَا) أي نجنا منها ومن التفكير في تحصيلها.

ثم قال: (وَأَمَحْ مِنْ قُلُوبِنَا حَلَاوَةَ مَا اجْتَنَيْنَاهُ مِنْهَا) أي حتى وإن ارتكبنا بعض المعاصي وذقنا لذتها، فامح من قلوبنا لذة هذه المعاصي، حتى لا تحدثنا نفسنا بها.

ثم قال: (وَاسْتَبْدِلْهَا بِالكَرَاهَةِ لَهَا) أي بكرهة المعصية ولذتها.

ثم قال: (وَالطَّعْمَ لِمَا هُوَ بِضِدِّهَا) أي اجعل طعم المعصية مرًا في قلوبنا، حتى نفطم منها.

ثم قال: (وَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ بَحْرِ كَرَمِكَ وَفَضْلِكَ وَجُودِكَ وَعَفْوِكَ) الفيض هو العطاء المتدفق؛ لأن الله عطاؤه واسع كالبحر، وهو الكريم الذي يعطي قبل السؤال ويعطي عند السؤال، وقال (وفضلك) أي تعطيني فوق ما أحتاج بفضلك، وقوله (جودك) والجود مرادف للكرم، فهما متعاوانان في زيادة الفضل، وقيل الكريم إذا سُئِلَ أعطى والجواد يعطي قبل أن يُسأل، وقوله (وعفوك) أي اعفُ فلا تعاملني على شاكلي بل على شاكلك، فأنت أهل الفضل وأهل المغفرة.

ثم قال: (حَتَّى نَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى السَّلَامَةِ مِنْ وَبَالِهَا) ووبال الدنيا أن تكون مانعة من الوصول إلى الله ﷻ وسببا لعقوبته وغضبه.

ثم قال: (وَاجْعَلْنَا عِنْدَ الْمَوْتِ نَاطِقِينَ بِالشَّهَادَةِ عَالِمِينَ بِهَا) والنبى ﷺ يقول «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١) والمقصود الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) على كونها عنوانا للشهادتين.

ثم قال (وَارْأَفْ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَنُزُولِهَا، وَارْحَنَا مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَغُمُومِهَا) لأن الغم والههم مانع من الهمة والعمل وصارف عن العبادة والإقبال على الله.

ثم قال (بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ إِلَى الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا) والروح هو الراحة الطيبة، فيطلب راحة الإيمان ورائحة الجنة، والريحان هو ما ينعش النفس من كل رائحة طيبة، أو الروح من الراحة والريحان ما ينعش النفس فتتحرك لكسب الفضائل.

ثم قال (اللَّهُمَّ أَنَا نَسَأُكَ تَوْبَةً سَابِقَةً مِنْكَ إِلَيْنَا لِتَكُونَ تَوْبَتَنَا تَابِعَةً إِلَيْكَ مِنَّا) أي نكون في قدرك من أهل التوبة، فيوافق اكتسابنا ما قَدَّرَته لنا، واجعلنا بسبق العناية من أهل السعادة والرعاية.

ثم قال (وَهَبْ لَنَا التَّلَقِّيَ مِنْكَ كَتَلَقَّى آدَمُ مِنْكَ الْكَلِمَاتِ؛ لِيَكُونَ قُدْوَةً لَوْلَدِهِ فِي التَّوْبَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ) تلقى سيدنا آدم ﷺ أي ألهمه الله الكلمات التي قالها عندما أكل من الشجرة فانقلبت المعصية إلى كرامة ورحمة، فأبونا آدم ﷺ كان حاله في أثناء أكله من الشجرة أعلى من قبل أن

يأكل من الشجرة، لأن الأنبياء ينتقلون باستمرار من مقام إلى مقام أعلى منه، فلحظة أكله من الشجرة كانت لحظة ترقى في صورة معصية، فهو لم يعص عامداً متعمداً بل عصى ناسياً لذلك قال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] أي عزمًا على المعصية، ثم هذه المعصية كانت سبباً لأن يتلقى من ربه كلمات التوبة حتى تتعلم ذريته كيف تصنع إذا وقعت في المعصية، فانتقل من حال الطاعة إلى باب التوبة، وباب التوبة أوسع من باب الطاعة، وأكله من الشجرة وافق مراد الله ﷻ من خلقه حتى ينزل إلى الأرض ويكون الخليفة، وينجب الذرية الصالحة في الأرض، فعلم الخلق مقتضيات اسمه التواب والغفور، فالمعصية صورية لانه كان ناسياً وفي حقيقتها طاعة؛ لأنه حقق مراد الله ﷻ منه في أن يكون خليفة في الأرض فقدر عليه المعصية الصورية ليكون قدوة لكل من يريد أن يتوب، والكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام ذكر منها القرآن قوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وذكرت السنة الشريفة منها ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لَمَّا أَذْنَبَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الذَّنْبَ الَّذِي أَذْنَبَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى الْعَرْشِ فَقَالَ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلَّا غَفَرْتَ لِي فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ وَمَا مُحَمَّدٌ وَمَنْ مُحَمَّدٌ فَقَالَ تَبَارَكَ اسْمُكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي رَفَعْتَ رَأْسِي إِلَى عَرْشِكَ فَإِذَا فِيهِ مَكْتُوبٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ عِنْدَكَ قَدْرًا مِمَّنْ جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ يَا آدَمُ إِنَّهُ آخِرُ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ وَإِنَّ أُمَّتَهُ آخِرُ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ وَلَوْلَا هُوَ يَا آدَمُ مَا خَلَقْتُكَ»^(١).

(١) الطبراني في المعجم الصغير (٩٩٢)، والحاكم في المستدرک (٤٢٢٨).

ثم قال: (وَبَاعِدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعِنَادِ وَالْإِصْرَارِ وَالشَّبَهِ بِإِبْلِيسَ رَأْسِ الْغَوَاةِ) لأن إبليس لما عصى عاند واستكبر ولم يعترف بخطيئته، بل عاند واستكبر ونسب الغواية لله ﷻ بسوء أدبه ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] فصار رأس الغواة، أما أبونا آدم ﷺ لما أكل من الشجرة تواضع واتعرف بذنبه واستغفر وأناب فاجتبه الله ﷻ.

ثم قال: (وَأَجْعَلْ سَيِّئَاتِنَا سَيِّئَاتٍ مَنْ أَحَبَّتْ) أي كالسيئة الصورية الشكلية التي ارتكبتها من أحبت وهو سيدنا آدم ﷺ، فحبك له صار إلى حالٍ أعلى وأرقى بمعصيته التي كانت سبباً لتواضعه وتوبته فاستحق بها مقام الاجتباء والهداية والخلافة.

ثم قال: (وَلَا تَجْعَلْ حَسَنَاتِنَا حَسَنَاتٍ مَنْ أَبْغَضْتَ) كإبليس الذي كانت له حسنات كثيرة لكنها صارت سبباً لحجابه وتكبره وطرده.

ثم قال: (فَالْإِحْسَانُ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْبُغْضِ مِنْكَ) فقد تورث الطاعة عزاً وكبراً وتكون سبباً لبغض الله ﷻ، كما طرد إبليس وبغض بسبب تكبره واغتراره بالطاعة.

ثم قال: (وَالْإِسَاءَةُ لَا تَضُرُّ مَعَ الْحُبِّ مِنْكَ) فإساءة سيدنا آدم ﷺ الصورية لم تضره؛ لأنه محبٌ محبوب، ولذا قال في الحكم العطائية (رب مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَافْتِقَارًا خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا).

ثم قال: (وَقَدْ أَبْهَمَتِ الْأَمْرَ عَلَيْنَا لِنَرْجُوَ وَنَخَافَ) حتى لا تظن السوء بأهل المعاصي فتحقرهم، ولا تتكبر على أحد بطاعتك، فلا معصية تقنطك من رحمة ربك ولا طاعة تؤمنك من مكره، فتكون في كل أحوالك خائفاً راجياً.

ثم قال: (فَأَمِنْ خَوْفَنَا، وَلَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا، وَأَعْطِنَا سُؤْلَنَا فَقَدْ أَعْطَيْتَنَا الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسْأَلَكَهُ) وهذا اعتراف بمحض الفضل من الله ﷻ من غير طلب من العبد.

ثم قال المصنف: (وَكَتَبْتَ وَحَبَّبْتَ وَزَيَّنْتَ وَكَرَّهْتَ وَأَطْلَقْتَ الْأَلْسُنَ بِمَا بِهِ تَرَجَّمْتَ) فالكلام الخارج منك تعبيراً عما في وجدانك هو من الله ﷻ برز منه إليك لتعبر عن حاجتك، لذلك قال ابن عطاء (كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك) فهو الذي يعلم السر قبل بروزه، وهو ﷻ الذي قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، وما عبرت به فهو بتوفيق الله.

ثم قال (فَنِعَمَ الرَّبُّ أَنْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ) فالعبد يحمد الله على هذه النعمة التي جعلته يخاطب مولاه، وهنا شرف ما بعده شرف أن يسمح لك مولاك بمخاطبته، وأي شرف بعد أن يسمح لك بالدخول إلى حضرة ملك الملوك متكلماً معبراً عما تريده.

وقال (الرب) لأن الربوبية تعني العناية والرعاية، ولا شك أن هذا كله بعنايته ورعايته، ثم إن حمد النعم يقتضي المحافظة عليها وشكرها لذلك قالوا: (قيد النعم شكرها)، أي إذا أردت أن تقيد النعمة عندك فلا تزول عنك فاشكرها. فإذا شكرت لا تقيد الموجود فحسب بل وتزيد في المآل ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثم قال: (فَاغْفِرْ لَنَا وَلَا تُعَاقِبْنَا بِالسَّلْبِ بَعْدَ الْعَطَاءِ) أي لا تحرمننا نعمك بعد إسباغها علينا؛ لأن السلب بعد العطاء حرمان.

ثم قال: (وَلَا بِكُفْرَانِ النَّعْمِ وَحِرْمَانِ الرِّضَا) وكفران النعم أن تشغل بها، أو لا تقنع بها وتستغله، أو تنسبها لجهدك وكسبك ولا تشكر الله بها باستعمالها في طاعته وتعصاه بها، فالخلاصة كفران النعم بأن تستقلها ولا ترضى بها وتستخدمها في معصية الله ﷻ.

وقوله (حرمان الرضا) لأن السعادة بالرضا واليقين، فإذا حرمت الرضا حرمت السعادة وكأن لسان الحال يقول (يا عبدي ارض بقضائي فإن لم ترض فاصبر) أما الأولياء فيحبون قضاء الله ويسعدون به، ويعلمون انه لطف بهم من اختيارهم لأنفسهم.

ثم قال: (اللَّهُمَّ رَضْنَا بِقَضَائِكَ) لأن السعادة كل السعادة أن ترضى بما أقامك الله فيه، وتقنع بما قسمه لك، والشقاء كل الشقاء أن تسخط على قضاء الله وتضجر فيه.

ثم قال: (وَصَبْرُنَا عَلَى طَاعَتِكَ، وَعَنْ مَعْصِيَتِكَ وَعَنْ الشَّهَوَاتِ الْمُوجِبَاتِ لِلنَّقْصِ أَوْ الْبُعْدِ عَنْكَ) فالصبر (على وعن) فالصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، ثم الصبر في الله أي الرضا بقضاء الله، فكل الصبر محمود إلا الصبر عن الله ﷻ فهو مذموم، وقوله (عن الشهوات) لأنه قد توجد شهوات مباحة وليست معصية، إلا أنها قد تشغلك عن الوصول إلى مولاك، فليست كل الشهوات محرمة، فالإسراف في الشهوات المباحة قد يؤدي الانشغال بها عن الله ﷻ. وفي دعائه يقصد الشهوات المباحة لا الشهوات التي تفضي إلى المعاصي؛ لأنه من الأولياء ولا شهوات مشبوهة لديهم. وسيدنا علي عليه السلام يقول (الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب والسلامة بتركها).

ثم قال: (وَهَبْ لَنَا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ بِكَ) وحقيقة الإيمان اليقين، واليقين درجات (علم يقين وعين يقين وحق يقين).

ثم قال: (حَتَّى لَا نَخَافَ غَيْرَكَ) فحقيقة الإيمان تؤدي إلى عدم الخوف إلا من الله ﷻ، فكل ما سواه إن فتشته لا تجده شيئاً.

ثم قال: (وَلَا نَرْجُو غَيْرَكَ وَلَا نُحِبُّ غَيْرَكَ وَلَا نَعْبُدُ شَيْئًا سِوَاكَ، وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ نِعْمَائِكَ) وأوزعنا أي ألهمنا وأقدرنا على شكر النعمة.

ثم قال: (وَعَطَّنَا بِرِذَاءِ عَافِيَّتِكَ) أي واجعلنا مستورين بالعافية في كل الأحوال.

ثم قال (وَأَنْصُرْنَا بِالْيَقِينِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ) والتوكل هو الأخذ بالأسباب مع عدم الاعتماد عليها، واليقين هو الثقة بالله ﷻ والتفويض إليه.

ثم قال: (وَأَسْفِرْ وَجُوهَنَا بِنُورِ صِفَاتِكَ) والله تعالى يقول: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ (٣٩)﴾ [عبس: ٣٨ - ٣٩]، وكلمة (مسفرة) تعني مضيئة ومشرقة من أثر السعادة والنعيم، فإسفار الوجوه بسبب نظرها إلى مولاهما فتنتطح الصفات الجمالية في هذه الوجوه فتسفر فتصبح جميلة، فيكون المعنى وأسفر وجوهنا بتجلي المشاهدة.

ثم قال: (وَأَضْحِكْنَا وَبَشِّرْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَوْلِيَائِكَ) والضحك هو غاية السرور والفرح الناتجين من كمال الرضا.

ثم قال: (وَاجْعَلْ يَدَكَ مَبْسُوطَةً عَلَيْنَا وَعَلَى أَهْلِينَا وَأَوْلَادِنَا وَمَنْ مَعَنَا بِرَحْمَتِكَ) أي أسبغ علينا من فضلك وأعطنا فوق ما نحتاج.

ثم قال: (وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ) أي يبقى في دوام الافتقار إلى مولاه، فلا يستغني بالنعمة عن المنعم، ويبقى بكمال الافتقار إلى مولاه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

ثم قال: (يَا نِعَمَ الْمُجِيبُ، يَا نِعَمَ الْمُجِيبُ، يَا نِعَمَ الْمُجِيبُ) أي يا الله يا نعم المجيب، وتكرار الدعاء ثلاثا لتأكيد الطلب.

ثم قال: (يَا مَنْ هُوَ هُوَ هُوَ فِي عُلُوِّهِ قَرِيبٌ) و(هو) اسم الذات الباطنة شؤونها ولا يعلمها إلا الله، أي حقيقة الهوية وحقيقة الذات، و(هو) من أسمائه سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه: ٨]، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٢]، وهو اسم الهوية والبطون كان الله ولم يكن معه شيء، كنز مخفي لا يعلم ولا يدرك، وقوله (في علوه قريب) فلا يمنع علوه بطونه وقربه، فهو أقرب إليك من حبل الوريد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، أما البعيد فهو العبد المحجوب بشهوته وجهالاته وغفلاته، فالله تعالى قريب وليس بمحجوب، والولي يدرك هذا القرب والكافر والعاصي محجوب لا يدرك هذا القرب ولا يشعر بالمعية كما في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

ثم قال: (يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) والنبي ﷺ كان يدعو بـ(يا ذا الجلال

والإكرام^(١) وكان ﷺ يقول: «الْظُّوْأُ يَبَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٢) فالجلال يوجب الخوف والهيبة والإكرام يوجب الخوف والرجاء.

ثم قال: (يَا مُحِيطًا بِاللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ) لأنه سبحانه بكل شيء محيط.

ثم قال: (أَشْكُو إِلَيْكَ مِنْ غَمِّ الْحِجَابِ) والشكوى مذموم للسالكين، وللمحبين إدلال؛ لذلك قال سيدنا يعقوب عليه السلام: «إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ» [يوسف: ٨٦]، فهي من محب لمحبوبه، فأشكو إليك من غم حجاب نفسي وشهوتي وغفلتي عن شعوري وإدراكي بقربك، لذلك يقول سيدنا إبراهيم الدسوقي (خذني إليك مني) أي خذني من حجاب نفسي إليك، وكما قال سيدنا أبو يزيد البسطامي^(٣) في إحدى مخاطباته (يا رب كيف أجذك؟ قال اترك نفسك تجدني).

(١) رواه أبو داود (١٤٩٧) عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا اللَّهَ ثُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ دَعَا اللَّهُ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ.

(٢) أحمد (١٧٥٩٦)، مسند البزار (٦٦٢٥)، مسند أبو يعلى (٣٨٣٣).

(٣) أَبُو يَزِيدَ الْبُسْطَامِيُّ طَيْفُورُ بْنُ عِيْسَى عليه السلام سُلْطَانُ الْعَارِفِينَ، أَبُو يَزِيدَ طَيْفُورُ بْنُ عِيْسَى بْنِ شَرَوْسَانَ الْبُسْطَامِيُّ، قَالَ السُّلَمِيُّ فِي (تَارِيخِ الصُّوفِيَّةِ): تُوْفِّي أَبُو يَزِيدَ عَنْ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَلَهُ كَلَامٌ حَسَنٌ فِي الْمُعَامَلَاتِ. قِيلَ لِأَبِي يَزِيدَ: بِأَيِّ شَيْءٍ وَصَلْتَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ، فَقَالَ: بِبَطْنِ جَائِعٍ وَبَدَنٍ عَارٍ، وَكَانَ يَقُولُ: دَعَوْتُ نَفْسِي إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَلَمْ تَجِبْنِي فَمَنْعَتَهَا الْمَاءَ سَنَةً، وَقَالَ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْكِرَامَاتِ حَتَّى يَرْتَفِعَ فِي الْهَوَاءِ فَلَا تَغْتَرُوا بِهِ حَتَّى تَنْظُرُوا كَيْفَ تَجِدُونَهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَحِفْظِ الْحُدُودِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشَّرِيعَةِ، قَالَ ابْنُ خُلْكَانَ وَلَهُ مَقَامَاتٌ وَمَجَاهِدَاتٌ مَشْهُورَةٌ وَكَرَامَاتٌ ظَاهِرَةٌ، تُوْفِيَ سَنَةً إِحْدَى وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ.

ثم قال: (وَسُوءَ الْحِسَابِ) وسوء الحساب هو مناقشة الأعمال؛ لأنه من نوقش الحساب عُدِبَ كما ورد في الحديث الشريف^(١).

ثم قال: (وَشِدَّةَ الْعَذَابِ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) والله يقول: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨) [الطور: ٧ - ٨].

ثم قال: (إِنْ لِمَ تَرَحَّمْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَ إِيَّيْكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ) ودعا بدعاء سيدنا يونس عليه السلام فاستجاب الله تعالى له فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَخَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ثم قال: (وَلَقَدْ شَكَّى إِلَيْكَ يَعْقُوبُ) وهنا بدأ يتكلم عن أحوال المُحِبِّينَ لله، فقال (ولقد شكى) ليبين أن شكوته شكوة المحب لا شكوة المعترض، ولقد شكى سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

ثم قال: (فَخَلَّصْتَهُ مِنْ حُزْنِهِ، وَرَدَدْتَّ عَلَيْهِ مَا ذَهَبَ مِنْ بَصَرِهِ، وَجَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلَدِهِ) فاستجب لي يا رب كما استجبت لأحبابك.

ثم قال: (وَلَقَدْ نَادَاكَ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ فَجَئْتَهُ مِنْ كَرْبِهِ) والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

(١) البخاري (١٠٣) نافع بن عمر قال حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ عَذَبَ قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ أَوْ لَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا قَالَتْ فَقَالَ إِنَّمَا ذَلِكَ الْغَرَضُ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ»، ومسلم (٧٤٠٦)، أبو داود (٣٠٩٥)، الترمذي (٢٦١٣).

ثم قال: (وَلَقَدْ نَادَاكَ أَيُّوبُ مِنْ بَعْدِ فَكَشَفْتَ مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ، وَلَقَدْ نَادَاكَ يُوسُفُ فَتَجَيَّئْتَهُ مِنْ غَمِّهِ، وَلَقَدْ نَادَاكَ زَكَرِيَّا فَوَهَّبْتَ لَهُ وَلَدًا مِنْ صُلْبِهِ بَعْدَ يَأْسِ أَهْلِهِ وَكَبَّرَ سِنِّهِ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ مَا نَزَلَ بِإِبْرَاهِيمَ فَأَنْقَذْتَهُ مِنْ نَارِ عَدُوِّهِ، وَأَنْجَيْتَ لُوطًا وَأَهْلَهُ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِقَوْمِهِ) وبذكر هؤلاء المحبين يزداد أملاً ورجاءً في الله ﷻ.

ثم قال: (فَهَا أَنَا ذَا عَبْدُكَ إِن تُعَذِّبْنِي بِجَمِيعِ مَا عَلِمْتُ مِنْ عَذَابِكَ فَأَنَا حَقِيقٌ بِهِ) لأن أصل العبودية تقوم على الغفلة والتقصير والعجلة والحرص على العاجلة، فهو يعترف بنقص عبوديته وعبادته لمولاه، أي وأنت في أشرف حالاتك وأنت متلبس بالعبادة فأنت مقصر كالمصلي وهو في محرابه مشغول بقلبه عن مولاه، فما بالك إذا كنت خارج العبادة.

ثم قال: (وَإِنْ تَرَحَّمْنِي كَمَا رَحِمْتَهُمْ مَعَ عَظِيمِ إِجْرَامِي فَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ وَأَحَقُّ مَنْ أَكْرَمَ بِهِ) فهو يعلم أن ما يأتيه من الله من باب الفضل والكرم لا من باب الثواب والمقابل على العمل، فالأولياء لا ينظرون إلى أعمالهم، بل ويعتقدون أنهم مقصرون حتى حال عبادتهم.

ثم قال: (فَلَيْسَ كَرَمُكَ مَخْصُوصًا بِمَنْ أَطَاعَكَ وَأَقْبَلَ عَلَيْكَ، بَلْ هُوَ مَبْدُؤٌ بِالسَّبْقِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ وَإِنْ عَصَاكَ وَأَعْرَضَ عَنْكَ) وكم من صحابي دخل الإسلام ومات ولم يسجد لله سجدة، وكتب صحابياً، فيأخذ الأجر بسبق الفضل دون عمل واجتهاد، وكم من إنسان عبد الله كثيراً ثم ختم عليه بخاتمة الشقاء، ومثال ذلك إبليس الذي عبد الله كثيراً ولكنه طرد، لأنها

كانت سبباً لكبره وغروره، فنحن لا نعلم العاقبة ونطمع في كرمك وفضلك،
 وخذ بأيدينا إليك، وغطِ جهلنا بعلمك، وعجزنا بقدرتك، واستر فقرنا بغناك.
 ثم قال: (وَلَيْسَ مِنَ الْكَرَمِ إِلَّا تُحْسِنَ إِلَّا لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ
 الْمِفْضَالُ الْغَنِيُّ) لأنه هو سبحانه الغني، ولا يزيده إحسان المحسنين شيء
 بل هو المتفضل والمغني.

ثم قال: (بَلْ مِنَ الْكَرَمِ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ الرَّحِيمُ
 الْعَلِيُّ، كَيْفَ وَقَدْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَّا)
 وهذا من كلام المحبين مع حبيهم حيث وصلوا إلى مقام (الدلال والإدلال)
 مع المحبوب، فالسالك يترقى إلى مقام الولاية ثم القطبية ثم إلى مقام الدلال
 والإدلال مع الله ﷻ.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
 [الأعراف: ٢٣]، فبعد أن تدلل في كلامه مع ربه خاف أن يتجاوز إلى سقوط
 الحرمة، فرجع إلى الأدب حتى يلجم نفسه أن تتجراً وهي في مقام الدلال.
 ثم قال: (يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا مَنْ هُوَ هُوَ
 هُوَ) تدرج من الاسم الجامع وهو الله إلى الاسم الظاهر بالرحمانية والرحيمية،
 ثم إلى الحي القيوم، ثم إلى اسم الهوية الباطن، ولا ظهور له في الأكوان.

ثم قال: (يَا هُوَ، يَا هُوَ، يَا هُوَ) و(هو) عند علماء النحو ضمير يستعمل
 للغائب، لكن عند الأولياء اسم يتوجه السالك فيه للحاضر الغائب عن
 الحس، فالله غيب الغيوب.

ثم قال: (إِنْ لَمْ نَكُنْ لِرَحْمَتِكَ أَهْلًا أَنْ نَنَالَهَا فَرَحْمَتُكَ أَهْلٌ أَنْ تَنَالَكَ يَا رَبَّاهُ يَا مَوْلَاهُ يَا مُغِيثَ مَنْ عَصَاهُ) فهو يستجدي الرحمة، ورحمتك لعبادك ليست لعله، فإن لم تكن نحن أهلاً لها لمعصيتنا وتقصيرنا فهي أهل أن تنالنا؛ لأن رحمتك وسعت كل شيء، وناداه بالربوبية المستوجبة للرعاية والعطف والشفقة، ثم قال (يا مولاه) لأن الولاية تتطلب النصرة والإغاثة والإعانة ومد يد العون وقوله (يا مغيث من عصاه) وكأنه غرق في المعصية ولا يستطيع أن يخرج منها فاستغاث بمولاه من بحر نفسه وشهوته وغفلته وتقصيره حتى يغاث بالتوبة والأوبة والإنابة والحفظ.

ثم قال: (أَغِثْنَا أَغِثْنَا يَا رَبُّ يَا كَرِيمُ) وكأنه غريق في بحار الندم.
ثم قال: (وَارْحَمْنَا يَا بَرُّ يَا رَحِيمُ، يَا مَنْ وَسَّعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) فإذا وسع كرسيك السماوات والأرض ووسع حفظك ذلك كله وسعت كل شيء رحمةً وعلماً، فسعني برحمتك وعلمك كما وسعت هذه الأشياء.

ثم قال: (أَسْأَلُكَ الْإِيمَانَ بِحِفْظِكَ) أي اليقين والتصديق بحفظ الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

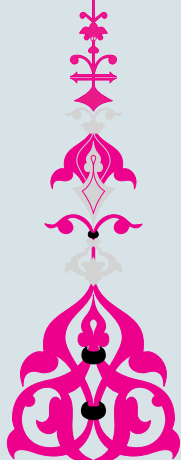
ثم قال: (إِيمَانًا يَسْكُنُ بِهِ قَلْبِي مِنْ هَمِّ الرِّزْقِ وَخَوْفِ الْخَلْقِ) لأن أكبر معوق في طريق السالك هو هم الرزق وخوف الخلق، فإذا تخلص السالك من هذين المعوقين انطلق إلى مولاه بلا عوائق.

ثم قال: (وَاقْرُبْ مِنِّي بِقُدْرَتِكَ قُرْبًا تَمَحِّقُ بِهِ عَنِّي كُلَّ حِجَابٍ مَحْقُتُهُ عَنَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ فَلَمْ يَحْتَجْ لِجِبْرِيلَ رَسُولِكَ وَلَا لِسُؤَالِهِ مِنْكَ وَحَجَبَتْهُ بِذَلِكَ عَن نَّارِ عَذُوبِهِ) و(امحق) بمعنى أزل عني الحجب، وذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام لما جاءه سيدنا جبريل عليه السلام وعرض عليه معاونته قال له (أما لك فلا، وأما له فعلمه بحالي يغني عن سؤالي) فاستغنى عن السبب بالمسبب لكمال تيقنه من حفظ مولاه، والشيخ هنا يريد أن يصل إلى هذا المقام الإبراهيمي والذي يكون فيه حفظ الله أضمن من السبب بكمال الثقة من الله وتفويض الأمر إليه.

ثم قال: (وَكَيْفَ لَا يُحَجَّبُ عَن مَضَرَّةِ الْأَعْدَاءِ مَنْ غَيَّبَتْهُ عَن مَنَفَعَةِ الْأَحْبَاءِ) فإن كنت قد غيبتني عن انتظار النفع من غيرك ولو كان من الأحباب، فمن باب أولى لا أخشى الضر من غيرك.

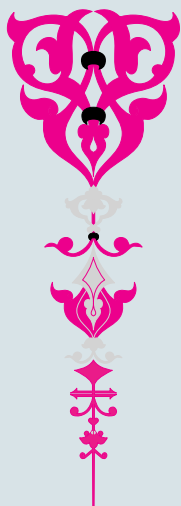
ثم قال (كَلَّا إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُغَيِّبَنِي بِقُرْبِكَ مِنِّي حَتَّى لَا أَرَى وَلَا أَسْمَعَ وَلَا أَحَدٌ وَلَا أَحْسَّ بِقُرْبِ شَيْءٍ وَلَا يَبْعُدُهُ عَنِّي إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وكلا هي حرف اضطراب وردع، حتى يفيق من الغوص في هذه المعاني العظيمة التي قد تشغله حتى عن سؤاله لربه، وقوله (بقربه مني) لأن الله قريب فأسألك أن تمحق الحجاب الذي حجبني من أن أرى قربك وحفظك ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٦) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَبِيرٌ

الرَّحِيمِ ﴿[المؤمنون: ١١٥-١١٨]، وهذه الآيات من أواخر سورة المؤمنون من قرأها كانت له النجاة ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، فما دام هو الحي فسيحي قلوبنا بمعرفته وأرواحنا بذكره وأسرارنا بأنسه، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فختم حزبه بهذه الآية لبيان الوسيلة العظمى لرسول الله ﷺ لتحقيق مأموله بما سبق، فلقد أنهى الحزب هذه الآية وترك لك أن تصلي على النبي ﷺ في صيغة تختارها دون أن يقيدك بصيغة معينة.



شرح مناجاة

سيرى ابن عطاء الله السكندرى رحمته الله



العارف بالله ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه

هو تاج الدين، ومنبع أسرار الواصلين، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القرافي مزاراً، الصوفي حقيقة، الشاذلي طريقة، أعجوبة زمانه، ونخبة عصره وأوانه، الجامع لأنواع العلوم من تفسير، وحديث، وفقه، وتصوف، ونحو، وأصول، وغير ذلك».

وُلد ابن عطاء الله في الإسكندرية، وتوفي في القاهرة، ويميز الشيخ عبد المجيد الشرنوبى في شرحه لحكم ابن عطاء الله ثلاثة أطوار في نشأته وسيرة حياته.

طلبه العلم:

الطور الأول وفيه نشأ طالباً للعلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول، وللعلوم العربية من نحو ولغة وبيان. وفي هذا الطور أنكر الصوفية إنكاراً شديداً، تعصباً للفقهاء. وفي الطور الثاني صحب أبا العباس المرسى، وتصوف على طريقة الشاذلي، بعد أن زال إنكاره للتصوف، وتعصبه لأهل علم الظاهر، ولم ينقطع في هذا الطور عن طلب العلوم الشرعية، بعد معرفته أن صحبة الصوفية لا تعني التجرد وترك الاشتغال بالعلم، أو بأي أمر دنيوي آخر يُقصد به وجه الله تعالى. ويبدأ الطور الثالث من رحلته من الاسكندرية ليقیم في القاهرة وهو طور نضوجه واكتماله من الناحيتين الفقهية والصوفية والإفادة منهما، عن طريق التدريس والوعظ حتى وفاته في القاهرة في المدرسة المنصورية، حيث شيع جثمانه في جنازة مهیبة حافلة ودفن بالقرافة، ولا يزال قبره هناك.

ورث ابن عطاء الله علم الشيخ أبي العباس المرسي المتوفى سنة ٦٨٦هـ، وصار القائم على طريقة شيخه والداعي لها من بعده، وكان قبل وفاة المرسي قد درّس الفقه في مدينة الاسكندرية. وعند إقامته في القاهرة اشتغل بالتدريس والوعظ في الجامع الأزهر الشريف، وشهد له العلماء بالفضل وغزارة المعرفة وعمقها، فقد شهد له شيخه أبو العباس المرسي قائلاً: «الزم، فوالله لئن لزمنا لتكونن مفتياً في المذهبين». يريد مذهب أهل الشريعة (أهل علم الظاهر)، ومذهب أهل الحقيقة (أهل علم الباطن).

وقد جرت بينه وبين أصحاب أبي العباس المرسي قبل صحبتته إياه حادثة، يحكي ذلك في «لطائف المنن»، فيقول: «وكنت أنا لأمره - يعني أبو العباس المرسي - من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا شيء سمعته منه ولا شيء صحّ نقله حتى جرت بيني مقابلة وبين أصحابه، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل: «ليس إلا العلم الظاهر»؛ وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيمة وظاهر الشرع يأبأها...، وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: «دعني أذهب أنظر إلى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفي شأنه، فأتيت إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، فقال الأول إسلام، والثاني إيمان، والثالث إحسان. وإن شئت قلت الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق...، قال: «وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهي، ومدد رباني، فأذهب الله ما كان عندي...، وصار رحمه الله تعالى من خواص أصحابه، ولازمه اثني عشر عاماً حتى أشرقت أنواره عليه وفتح له على يديه ثم استقر في الأزهر يدرّس الفقه والتصوف».

وذكر ابن حجر في كتابه أيضاً، أن الذهبي قال عنه: «كانت له جلاله عجيبة، ووقع في النفوس، ومشاركة في الفضائل، وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفوس، ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم، فكثرت أتباعه، وكانت عليه سيما الخير، ويقال: «إن ثلاثة قصدوا مجلسه، فقال أحدهم: «لو سلمت من العائلة لتجردت». وقال الآخر: «أنا أصلي وأصوم ولا أجد من الصلاح ذرة». وقال الثالث: «أنا صلاتي ما ترضيني فكيف ترضي ربي»، فلما حضروا مجلسه، قال في أثناء كلامه: ومن الناس من يقول... فأعاد كلامهم بعينه.

أقوال العلماء فيه:

قال الشيخ أحمد زروق: كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول وغير ذلك. وكان متكلماً على طريق أهل التصوف، واعظاً انتفع به خلق كثير وسلكوا طريقه.

قال ابن حجر العسقلاني: صحب الشيخ أبا العباس المرسي، صاحب الشاذلي، وصنف مناقبه ومناقب شيخه، وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه.

قال ابن الأهدل: الشيخ العارف بالله، شيخ الطريقتين وإمام الفريقين، كان فقيهاً عالمياً ينكر على الصوفية، ثم جذبتة العناية فصحب شيخ الشيوخ المرسي، وفتح عليه على يديه وله عدة تصانيف، منها الحكم. وكله مشتملة على أسرار ومعارف، وحكم ولطائف، نثراً ونظماً. ومن طالع كتبه عرف فضله.

مصنفاته:

١- «الحكم العطائية»: وقد نالت شروحها الداني والبعيد، وقرأها

الكبير والصغير، وما زالت مرجعا وافيا في لون متميز من ألوان السلوك الإنساني، والمعراج إلى حضرة القدس الأعلى. عالج في كتابه هذا، مختلف الموضوعات التي تحدث عنها الصوفية، ولعل أهمها: «كيف نستدل على الله، صلتنا بالله، التجريد والأسباب، الشهرة والخمول، دقائق الرياء....»

٢- «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيخه الشاذلي أبي الحسن»: وهو عبارة عن مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، المقدمة في تفضيل النبي ﷺ على جميع بني آدم، وذكر أقسام الولاية، وما تبقى تعريف بشيخه أبي العباس وبعلمه ومجرباته وما فسر من الآيات والأحاديث، وما ذكره من كلام أهل الحقائق ودعائه وشعره «ولهذا المؤلف قيمة كبرى في التعريف بآداب الطريقة الشاذلية، وقد حفظ ابن عطاء تراث الشاذلية الروحي من الضياع».

٣- «التنوير في إسقاط التدبير»: ذكر ابن عطاء الله أنه ألفه بمكة ثم استدرك عليه بدمشق وزاد فيه. قال في مقدمته: «إذا طالع المرشد الصادق عرف أن المتلوث لا يصلح للحضرة القدسية».

٤- «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس».

٥- «مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح».

٦- «القول المجرد في الاسم المفرد».

توفي رحمه الله تعالى بالمنصورة سنة ٧٠٩ هـ، ودفن بالقرافة بقرب بني الوفا قدس الله أسرارهم، وقبره مشهور يُزار إلى يومنا هذا. رحمه الله تعالى ونفعنا به وبعلومه... آمين.

مناجاة سيري ابن عطاء الله السكندر ري رضي الله عنه

إِلَهِي أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي.

إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي.

إِلَهِي إِنَّ اخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ مَنَعَا عِبَادَكَ
الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَى عَطَاءٍ، وَالْيَاسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ.

إِلَهِي مَنِي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ.

إِلَهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي،
أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي؟!

إِلَهِي إِنَّ ظَهَرْتَ الْمَحَاسِنُ مَنِي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ، وَإِنْ
ظَهَرْتَ الْمَسَاوِي مَنِي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ.

إِلَهِي كَيْفَ تَكَلَّنِي إِلَى نَفْسِي، وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي، وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ
النَّاصِرُ لِي، أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الْخَفِيُّ بِي، هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي
إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أَشْكُو
إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أُتَرْجَمُ لَكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ
بَرَزَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ لَا
تُحَسِّنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ إِلَيْكَ؟!

إِلَهِي مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي، وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي.

إِلَهِي مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي، وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ.

إِلَهِي مَا أَرَأَيْتَ بِي، فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ؟!

إِلَهِي قَدْ عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَثَارِ وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي
أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ.

إِلَهِي كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ، وَكُلَّمَا آيَسَتْنِي أَوْصَافِي
أَطْمَعَتْنِي مَنَّتُكَ.

إِلَهِي مَنْ كَانَتْ مُحَاسِنُهُ مَسَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيهِ مَسَاوِي،
وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيهِ دَعَاوِي.

إِلَهِي حُكْمُكَ النَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكَ لِذِي مَقَالٍ مَقَالًا،
وَلَا لِذِي حَالٍ حَالًا.

إِلَهِي كَرَّمْ مِنْ طَاعَةِ بَنِيَّتِهَا وَحَالَةِ شَيْدَتِهَا هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ،
بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ.

إِلَهِي أَنْتَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدَمْ الطَّاعَةُ مِنِّي فَعَلًا جَزْمًا فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةٌ
وَعَزْمًا.

إِلَهِي كَيْفَ أَعَزِمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ، وَكَيْفَ لَا أَعَزِمُ وَأَنْتَ الْآمِرُ؟!
 إِلَهِي تَرَدُّدِي فِي الْآثَارِ يُوجِبُ بَعْدَ الْمَزَارِ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ
 تُوصِّلُنِي إِلَيْكَ.

إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْكُنْ
 بَغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُ لَكَ؟!، مَتَى غِبْتَ
 حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ
 الَّتِي تُوصِّلُ إِلَيْكَ، عَمِيتْ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا، وَخَسِرْتَ صَفْقَةً عَبْدٌ
 لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا.

إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ
 الْإِسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونِ السِّرِّ عَنْ
 النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَمَرْفُوعِ الْهِمَّةِ عَنِ الْاعْتِمَادِ عَلَيْهَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إِلَهِي هَذَا ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَهَذَا حَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، مِنْكَ
 أَطْلُبُ الْوُصُولَ إِلَيْكَ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ لَا بَغَيْرِكَ فَاهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ،
 وَأَقْنِي بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِلَهِي عَلَّمَنِي مِنْ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَصَنِّي بِسِرِّ اسْمِكَ الْمَصُونِ.

إِلَهِي حَقَّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ، وَاسْلُكْ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ الْجَذِبِ.
إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي، وَبِاخْتِيَارِكَ عَنْ اخْتِيَارِي،
وَأَوْقِفْنِي عَلَى مَرَائِزِ اضْطِرَارِي.

إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ حُلُولِ
رَمْسِي^(١)، بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَاَنْصُرْنِي، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ
فَلَا تُخَيِّبْنِي، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلَا تُبْعِدْنِي،
وَبِإِيَّاكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي.

إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ
مِنِّْي، أَنْتَ الْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ غَنِيًّا
عَنِّي.

إِلَهِي إِنَّ الْقَضَا وَالْقَدَرَ غَلَبْنِي، وَإِنَّ الْهَوَى بِوَثَائِقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي،
فَكُنْ أَنْتَ النَّاصِرُ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي، وَاغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى
أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلْبِي، أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقَتِ الْأَنْوَارُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ
حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحْبَابِكَ
حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ، أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ

(١) رمسي: قبري.

أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَ لَهُمُ الْمَعَالِمُ. مَاذَا
وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟!، وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟!، لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ
دُونَكَ بَدَلًا، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوِّلًا.

إِلَهِي كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ، وَكَيْفَ يُطَلَبُ
مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ، يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ
مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ، وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ
فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ. أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ، وَأَنْتَ الْبَادِئُ
بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلَبِ
الطَّالِبِينَ، وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ.

إِلَهِي اظْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذُبْنِي بِمَتْنِكَ حَتَّى أَقْبَلَ
عَلَيْكَ.

إِلَهِي إِنْ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصِيَّتُكَ، كَمَا أَنَّ خَوْفِي لَا
يُزِيلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ.

إِلَهِي قَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمُ إِلَيْكَ، وَقَدْ أَوْفَقَنِي عَلَيَّ بِكَرَمِكَ عَلَيَّكَ.

إِلَهِي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي، أَمْ كَيْفَ أَهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَكَلِّي.

إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَأَنْتَ فِي الذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ
وَأَيْلِكَ نَسَبْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ أَقْتَنِي، أَمْ
كَيْفَ أَفْتَقِرُ إِلَى غَيْرِكَ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي، أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ
غَيْرُكَ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهَلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي
كُلِّ شَيْءٍ، فَارَأَيْتَكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ. يَا
مَنْ اسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْبًا فِي رَحْمَانِيَّتِهِ، كَمَا
صَارَتِ الْعَوَالِمُ غَيْبًا فِي عَرْشِهِ، مُحَقَّتَ الْآثَارَ بِالْآثَارِ، وَمَحَوَّتِ الْأَغْيَارَ
بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ، يَا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ
تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ، يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَسْرَارَ،
كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ؟

﴿﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ [الصفات: ١٨٠-١٨٢].

شرح مناجاة ابن عطاء الله السكندري رحمته الله

مقدمة الشرع

الحمد لله رب العالمين، اللهم استر عيوبنا واغفر ذنوبنا ووفقنا وسائر المسلمين بالصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله إلى ما تحبه وترضاه يا رب العالمين.

أما بعد،

فهذه المناجاة العظيمة لسيدي ابن عطاء الله السكندري رحمته الله عبارة عن دعاء طويل تلخص نظرة المدرسة الشاذلية إلى الله تعالى وإلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى الاسلام وإلى المسلمين وإلى الأسباب والوسائط، لأن من مزية المدرسة الشاذلية أن يضع الشيخ قدمك عند مولاك فيقول لك بحاله ومقاله ها انت وربك، ومن ذلك على ربك أراحك ومن ذلك على نفسك أتعبك.

وهناك من الطرق من تدلك على نفسك وعيوبها أولاً، حتى تدخل في مجاهدتها فترتقي بالنفس للوصول إلى الله تعالى، لكن في المدرسة الشاذلية يدلك الشيخ على الله أولاً، وهذا من فضل الله على هذه الأمة، لعلمه أن الأمة ستضعف آخر الزمان، ولأن أغلب الناس لا طاقة لهم بالمجاهدات، فبمجرد أخذ العهد من الشيخ نقلك إلى طريق مولاك، ويجب عليك أن تتعرف على الله في كل شيء، وتفتقر إلى الله في كل شيء، وتستغني بالله عن كل شيء، والطرق الموصلة إلى الله على عدد أنفاس الخلائق ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا

لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴿[العنكبوت: ٦٩]، لأن عيوب النفس كثيرة فجعل الله ﷻ الأدوية كثيرة، حتى يصل الجميع إلى ربه من خلال هذه الطرق.

ويجب على المريد المواظبة على الفرائض والعبادات والأوراد والتعلق بالنبي ﷺ ومحبة وآل بيته حتى يأتيه المدد من الله ﷻ مباشرة بواسطة الحبيب ﷺ، فيأخذ النبي ﷺ بيدك إلى حضرة مولاك حتى إذا جئته لم تجده حاجبا بل موصلا ووجدت الله عنده فوفاك حسابك.

والصوفي كلما زادت طاعته ازداد خوفه من الله ﷻ وكلما زادت معصيته ازداد رجائه، لأن نظره ليس للعمل بل لله ﷻ، والمريد في الطريقة الشاذلية كل اعتماده على الله ﷻ مع توقيره لمشايخه وسلسلة طريقته.

ولقد قال كثير من العلماء إن هذه المناجاة فيها من الأسرار والأنوار ما لا يعلمه إلا الله وهي ملخص الحكم العطائية كلها، وإذا واظبت عليها ستجلى الحقائق على قلبك وتتعرف على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ لأنه الوساطة في كل خير وفي كل مدد.

فيجب المواظبة عليها ولو مرة في اليوم أو مرة في الأسبوع ولكن لا تتركها ولا تهجرها؛ لأنها دواء لجميع أمراض القلوب وفتن الدنيا.

١- (إِلَهِي أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي) بدأ بذكر صفات العبد، كالفقر والذل والعجز والجهل ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فتوجه إلى الله بكمال الافتقار والمسكنة حتى يتصدق الله عليه ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فإذا كان الله ﷻ

يحثك على إكرام المسكين والفقير فمن باب أولى أن يتصدق عليك الكريم المتفضل المنان إذا وجدك مفتقراً مسكيناً.

وبدأ بهذه الحكمة التي تدل على حسن الاستهلال، حيث بدأ باعترافه وعجزه وفقره حتى ينال كرم الله ﷻ الذي لا يحتاج إلى وسائط، فقله (أنا الفقير في غناي) أي حتى وإن امتلكت الصحة والمال فهي ليست مني بل بمحض فضلك. وإن كنت غنياً بها في الظاهر إلا أنني ما زلت فقيراً لك في الباطن.

ثم قال: (فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي) أي أنا فقير في حال غناي فما بالي وأنا فقير حتى في غناي العارض عليّ فأكون محتاجاً لك من باب أولى. والغنى قد يكون بالمال والصحة وقد يكون الغنى بأن رزقك الله ﷻ همة التوجه إليه والإقبال عليه، وهذه الهمة أنت مفتقر فيها إلى الله لتدوم عليك ويوفئك فيها.

إذن: حتى وأنت في غنى المال والهمة، مفتقر عاجز محتاج لدوام المدد الإلهي الذي يمكن أن يسلبه الله ﷻ في لحظة، وسيدنا موسى عليه السلام قال لربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، فأظهر الافتقار والعجز، فمن الله عليه بالعمل والزواج والسكن بعدما كان هارباً لا يملك إلا عصاه، وهذا من حسن خطاب العارفين مع مولا هم.

٢- (إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي) وهذا هو الوصف الثاني للإنسان وهو الجهل، لا يعلم ما يضره ولا ما ينفعه، قال الله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهذا من

جهل الإنسان، فالعبد هنا يعترف بالجهل لمولاه في حالة علمه، والجهل أشد في حال جهله.

٣- (إِلَهِي إِنَّ اخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ مَنَعَا عِبَادَكَ الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَى عَطَاءٍ، وَالْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ) والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، أي في كل لحظة هو في شأن فيرفع أقواماً ويخفض أقواماً، ويعز أقواماً ويذل أقواماً، ويعطي أقواماً ويمنع آخرين. ومادامت هذه صفاته فيجب أن لا تركز للمقادير، بل تركز إلى من بيده مقادير كل شيء، ومع هذه الصفات فهو ﷻ كريم، لذلك تطمأن لكرمه ولا تركز لعطائه، فلا تستغني عنه طرفة عين حتى وإن أغناك؛ لأنه يمكن أن ينقلب الغنى إلى فقر في لحظة، والعافية إلى مرض، والقوة إلى ضعف، والعلم إلى جهل، فلا تركز للنعمة وتنسى المنعم، ولا تقنط وأنت في البلاء ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

٤- (إِلَهِي مَنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ) واللؤم: أن تظهر خلاف ما تبطن، فتتذلل لله ﷻ وتكثر من العبادات لله وتبطن احتياجك للأشياء، وعسى الله أن يجيبك عليها، أما عطاؤه فبمحض الفضل والكرم، فأنا مع لؤمي محتاج وأنت الكريم الغني عن العالمين، وتعطيني بكرمك دون النظر إلى عملي وطاعتي، فالعبد يعبد الله ويتقرب إليه ويبطن رغبته في تيسيره أموره في الدنيا وثوابه في الآخرة، فله عين على مولاه وعين على عطاء الله لتحقيق غرض في نفسه.

٥- (إِلَهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي، أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي) ففي القرآن الكريم وهو كلام الله القديم الموجود قبل

خلق الخلق، والذي قال فيه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُم لَأَعْلَمُ﴾ [الحديد: ٩]، وقال ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، فالله لطيف بك قبل أن توجد، ويظهر ضعفك فهل يمنعك اللطف بعد ظهور ضعفك؟ فمن باب أولى أن يلفظ بك وأنت في ضعفك.

٦- (إِلَهِي إِنْ ظَهَرَتِ الْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ، وَإِنْ ظَهَرَتِ الْمَسَاوِي مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ) فلو ظهر علي محاسن وكمال فهو بسبب تجليك علي بهذه المحاسن، لذلك يقول ابن عطاء الله في الحكم (إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق العمل ونسب إليك) فهو المغني، والنافع، والشافي، والمعلم، والهادي، والمحسن، فكلها منه سبحانه وتعالى ونسبها في هذه الدنيا إليك ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الزَّعُونَ ٦٤] ﴿الزَّعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤]، أما المساوي التي تظهر علي فبسببي وبسبب حجابي ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سِتَّةٍ مِّنْ نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وإذا أصابتك السيئة، فهي بمحض حجة الله على عباده، لإشعاره بأنه مفتقر فيقول (يا رب) فهو سبحانه يتعرف عليك بالمنع كما يتعرف عليك بالعطاء، فيشعرك بالذل حتى تستعز به، ويشعرك بالفقر حتى تستغني به، فأنت عبدٌ مجبول على النقص والعجز وهذا بمحض العدل الإلهي، فالكمال فضل والنقص عدلٌ ولا يتصور وقوع الظلم في الكون لأنك بين الفضل والعدل.

٧- (إِلَهِي كَيْفَ تَكِلُنِي إِلَى نَفْسِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي، وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي، أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الْحَفِيُّ بِي، هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ

لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أُتْرَجِمُ لَكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ لَا تُحَسِّنُ أَحْوَالي وَبِكَ قَامَتْ إِلَيْكَ؟!

قال: (إِلَهِي كَيْفَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي) وفي رواية (وقد تكفلت بي) والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، فقد توكل عنا فلا يتركنا، فالمعنى: يا رب أنت القائم بأمورنا، والمتكفل بنا فلا نضام أبداً، ولا نحتاج غيرك لأنك وكيلنا وكفيلنا ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وللأسف أن جميع الدواب لا تشتكي من الخالق إلا بني آدم، فيشتكون ولا يرضون بما ضمنه الله لهم، وذلك لجهل بني آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، لذلك يعلمنا رسول الله ﷺ أن نتعلم التوكل من الطيور حيث قال: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرِزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(١) فالسعي واجب مع كمال التوكل على الله ﷻ وعدم الضجر والشكوى، بل الرضا بالمقسوم، فإذا تخلصت من خوف الخلق وهم الرزق، ولدت ولادة جديدة، وأصبحت من الأولياء الذين فوضوا أمرهم لله ﷻ ورضوا بجميع أفعاله وتديره، فإذا وضعت أثقال الخلق والرزق عن نفسك صرت حراً طليقاً خفيفاً جالت روحك في الملكوت.

(١) رواه الترمذي (٢٥١٥) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرِزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَأَبُو تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيُّ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَالِكٍ، وابن ماجه (٤٣٠٣)، واحمد (٢١٠).

ثم قال: (وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي) أي كيف أضلم وتنتهك حرمتي وأنت الناصر لي، قال سبحانه: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فالمؤمن عزيز بالله ﷻ وبرسوله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الْحَفِيُّ بِي) والله يقول: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ويقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فإذا كنت وليي فلا أخيب أبداً، فيني وبينك ولاء وأنت الغني القادر، أفلا أفتخر بولايته والمحجوب يفتخر بولايته لأصحاب المناصب والقادة، فالمؤمن عزيز بربه، فانطلق من ذل نفسك إلى عزة ربك ﷻ، وانطلق من تدبيرك واختيارك إلى اختياره حتى يوقفك على مراكز اضطراك فإذا وجدك مضطراً أجابك وأعانك، ولو كشف الله ﷻ أنوار هذه الآية ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، لو وقف قلبك شوقاً لمولاه، فأنت ضعيف ذليل جهول، بل عدم وغير موجود على الحقيقة، بل موجود به بدليل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ومع ذلك صار لك ولاء مع الله ﷻ وبالله، فأني فضل هذا وأي كرم هذا، لذلك بعض الأولياء لما كشفت لهم هذه الأسرار والأنوار لم يتحملها فشقق ومات شوقاً للقاء ربه. حكي أن رجلاً كان يسير في طريق الحج ويقرأ القرآن ويرقص، فقال الناس له تأدب يا رجل وكن وقوراً فأنت تتلو كلام الله، فقال لهم (لما قرأت القرآن قلت هذا كلام من، وأنا عبد من، وإلى بيت من أنا ذاهب؟ فأخذني الوجد ففرقت شوقاً وطلباً) إذن: كلما عرفت النعم التي أقامك الله فيها وشكرتها زادك الله منها فازددت له شوقاً، وهذا معنى قول الأولياء (لو علم الملوك ما نحن فيه

لقاتلونا عليه بالسيوف^(١) فهم في مقام الأنس والمخاطبة والمشاهدة والرضا فهم مستغنون بالله ﷻ راضون بحكمه فرحين به. حكي أن رجلاً مر بحلقة الإمام الجنيد^(٢) ﷺ فرأى الطلاب ملتفين للعبادة والعلم فأحب أن يساعدهم فأعطى للإمام الجنيد ﷺ صرةً من الذهب، فقال الجنيد ﷺ للرجل: وهل تملك غيرها؟ قال: نعم، قال الجنيد ﷺ: وهل تطلب المزيد؟ قال الرجل: نعم، قال الجنيد: إذا أخذها فأنت أحوج إليها منا.

ثم قال: (هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ) فمحال أن يوصف ربنا بالفقر، فأنت تتوسل إليه بفقرك وصدقتك، حتى يعطيك من كرمه وفضله.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ) وهو كمال التسليم للقدر (علمه بحالي يغني عن سؤالي) فانظر كيف يريقك في هذه المناجاة العظيمة في مقامات السير إلى الله ﷻ، فيرقيقك من كمال الاعتراف بالعجز إلى كمال معرفتك بربك، ثم إلى كمال التوكل على الله، ثم إلى كمال

(١) هذا القول لسيدنا إبراهيم ابن أدهم ﷺ، حلية الأولياء ج ٧ ص ٣٧٠

(٢) سيد الطائفتين هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي القواريري، أصله من نهاوند ومولده في العراق، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، صاحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي، وتفقه على مذهب الامام الشافعي حتى صار يفتي الناس على مذهب ابي ثور صاحب الامام الشافعي. قال ابن المنادي عنه: لم يُر في زمانه مثله عفة وعزوف عن الدنيا، كان له دكان في السوق يصلي فيه كل يوم وقت الضحى ثلاث مائة ركعة. كان يقول: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين ومائتين ودفن في بغداد وله مقام يزار.

ترك الأسباب، إلى أن تصل إلى مقام عدم السؤال؛ لأن السؤال شكوى، وكيف نشكو إليه ما هو يعلمه ويعرفه، بل هو الذي قدّره علينا، وهذا المقام الإبراهيمي (علمه بحالي يغني عن سؤالي).

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ تُرْجِمُ لَكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ) فحتى الألفاظ التي أعبر بها عن حالي، فهي منك علمتنيها وأنت من ألهمتني التعبير بها، فهي منك وإليك، وأنا أظهرها إظهاراً للعبودية لا تعلقاً بها؛ لأن التعلق بك أنت وحدك، لا أشرك معك احداً.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ) فأنت الذي خلقت هذه الآمال في قلبي وعلقتة بها، ولقد خلقتها في قلبي لأشعر بحاجتي لك، وقوله (وفدت عليك) أي نزلت إلى ساحة كرمك.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ لَا تُحَسِّنُ أَحْوَالي وَبِكَ قَامَتْ إِلَيْكَ) والله يقول: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فاخرج من نفسك وتوكل عليه سبحانه، فياخذ بيدك ويخرجك من حجاب نفسك فيوصلك إليه، فأحوالي قامت بك وبتوفيقك، ولا حول ولا قوة لي إلا بك.

(إِلَهِي مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي، وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي) فالله ﷻ يعطيك ما ينفعك وأنت ترفض الأخذ لجهلك، فقد يكون الدواء مرّاً في الظاهر وفي باطنه النفع والشفاء. وهو من لطفه بك يعطيك ما في ظاهره الجلال وفي باطنه الجمال كله.

قال سبحانه في الحديث القدسي: « وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ »^(١) وهذا جلال لكن باطنه جمال؛ لأن فيه صلاح الحال، فيشعرك في نقصك وحاجتك حتى تلجأ إليه وتستعين به.

واللطف: هو جريان النفع في خفاء، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فبالرغم من معصيتي وجهلي واعتمادي على غيرك لكنك متكفل بي وترحمني وتقويني، فما أراك بي مع قبيح عملي، فإذا أقبلت عليه ﷺ أقبل عليك، فهو لطيف بعباده جميعا عصاة وطائعين.

٩- (إِلَهِي مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي، وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ) وهو أقرب إليك من حبل

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (ج ٨ ص ٣١٨) حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ أَثْنَا عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ عَاصِمٍ، ح. وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْأَجْرِيُّ ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْخُلَوَانِيُّ، ح وَحَدَّثَنَا مَخْلَدُ بْنُ جَعْفَرٍ أَثْنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ يَزِيدَ الْبَرَائِيُّ، قَالَ: ثَنَا الْحَكَمُ بْنُ مُوسَى أَثْنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ يَحْيَى الْحُسَيْنِي أَعَنْ صَدَقَةَ الدَّمَشْقِيِّ أَعَنْ هِشَامَ الْكِنَانِي، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ جِبْرِيلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ قَالَ: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، مَا تَرَدَّدْتُ فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ بِكُرْهِ الْمَوْتِ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُرِيدُ بَابًا مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكْفُهُ عَنْهُ لَا يَدْخُلُهُ عَجَبٌ فَيُفْسِدُهُ ذَلِكَ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ إِلَّا يَزَالُ عَبْدِي يَتَنَقَّلُ لِي حَتَّى أُجِبَهُ وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا، أَوْ يَدًا وَمُؤَيِّدًا أَدْعَانِي فَأَجِيبُهُ وَسَلَّانِي فَأَعْطِيْتُهُ وَنَصَحَ لِي فَنَصَحْتُ لَهُ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصَّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ وَلَوْ أَصَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ أَيْ أَدْبَرَ عِبَادِي بِلَعْمِي فِي قُلُوبِهِمْ إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ» غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ لَمْ يَرَوْهُ عَنْهُ بِهَذَا السِّيَاقِ إِلَّا هِشَامُ الْكِنَانِيُّ وَعَنْهُ صَدَقَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو مُعَاوِيَةَ الدَّمَشْقِيُّ تَقَرَّدَ بِهِ الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى الْحُسَيْنِي.

ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول (ج ٢ ص ٢٣٢).

الوريد ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهو القريب، وأنت البعيد بمعصيتك وحجابك. فلو أزلت هذه الحجب والظلمات ستجده أقرب إليك منك.

١٠- (إِلَهِي مَا أَرَأَاكَ بِي، فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ) فجهلي ومعصيتي هي التي أبعدتني عنك، فخذ بيدي، وأخرجني من هذه الحجب، كما قال سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله: (خذني إليك مني وارزقي الفناء عني ولا تجعلني محجوباً بنفسي مفتوناً بحسي).

١١- (إِلَهِي قَدْ عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَثَارِ وَتَنَقُّلاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ) فالله سبحانه خلق الأكوان على صور متعددة (أفعال وأجسام وحركات وألوان.... الخ) حتى يتعرف عليك في كل شيء، وحتى لا تجهله في شيء، فيتعرف عليك بالجلال والجمال، فتعرفه في كل شيء، فإذا رزقك علمت فضله وإذا حرملك علمت حكمته فتلجأ إليه ﴿نَيْتُ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ٤٩ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ٥٠ [الحجر: ٤٩-٥٠]، فهو الواحد الأحد، المعطي المانع، النافع الضار، فتعرف إليه في كل شيء، حتى لا تجهله في شيء.

١٢- (إِلَهِي كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لِؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرْمُكَ، وَكُلَّمَا آيَسْتَنِي أَوْصَافِي أَطْمَعَنِي مِتِّكَ) الإنسان في طبيعته مقصر مع الله عز وجل، لأنه لا نسبة بين الله في كماله وبين المخلوق في نقصه وعجزه، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه يقول (سبحانك لا نحصي ثناءً عليك) ^(١) فكلما نظر الإنسان إلى أحواله وعجزه

(١) رواه مسلم (١١١٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً

وتقصيره، وقارن ما قدّمه من عبادة أو طاعة و ينتظر منها الثواب، وجد أن هذه العبادة نزر قليل بالنسبة لعظمة قدر الله ﷻ، فيشعر أنه لا وجاهة له في أن يطلب من الله الأجر على العمل، ولأنه سبحانه هو الذي خلقه وهده وقواه وأجرى العبادة على جوارحه، فكيف يطلب مقابل شيء لا يملكه ولم يقم به على الحقيقة، لكن الإنسان يطمع في كرم الله، وهو سبحانه يحب من يطمع في كرمه ويغض من يطمع في غيره من خلقه. فبكرم الله سبحانه وتعالى يطلق لسانك عند الطلب مع شعورك بكمال النقص وكمال الافتقار، فكلما نظرت إلى أوصافي وجدتها عاجزة قاصرة جهولة لكني أطمع بكرمك وفضلك وممتك، حتى تغطي وصفي بوصفك ونقصي بكمالك.

١٣ - (إِلَهِیْ مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيهِ مَسَاوِي، وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيهِ دَعَاوِي) إذا كانت معرفتك بربك ليست منك، بل هو الذي عرفك بنفسه وهو الذي وفقك لذلك، فكل المحاسن التي ظهرت فيك ليست منك على الحقيقة ولكنها نسبت إليك. وإذا ادعاها الإنسان فهي دعاوى وليست محاسن، فيخلق الطاعة وتنسب إليك، ويخلق العلم وينسب إليك، فإذا كانت هذه الأعمال الحسنة والمحاسن دعاوى فكيف لا تكون دعاويك الأصلية محض كذب، فقله (محاسنه مساوي) أي أن الله سبحانه غطى مساويك بالمحاسن، ثم قال (ومن كانت

مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنُصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمَعْفَاتِكَ مِنْ عِقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ

أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٨٣١)، والنسائي (١٧٠)، وابن

حقائقه دعاوى) أي إذا نسب شيء إليك فهو في الحقيقة من الله، وهنا يتبرأ العابد من كل حوله وعلمه وقوته إلى الله سبحانه وتعالى، فيكون في كمال الافتقار.

١٤ - (إِلَهِي حُكْمُكَ النَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكَ لِي مَقَالَ مَقَالًا، وَلَا لِي حَالٍ حَالًا) وكأنه استشعر أن الله أجابه لما افتقر إليه، وأجابه لما كان صريحاً معه، فنسب كل المحاسن إلى الله ﷻ والنقص إلى نفسه، لكن لما علم أن الله ﷻ في كل لحظة هو في شأن فيرفع ويخفض ويعز ويذل، لم يطمئن لعطاء ولكن يطمئن لله ﷻ، فلا يركن للنعمة بل للمنع، ولا يطمئن للمنة ولكن للممتن، فهو لا يستغني بالإجابة والمنة عن ربه، وحتى لو أعطاه فحكمه نافذ، ويتغير من حال إلى حال، فالأحوال تتغير فلا يركن إليها؛ لأنه لا يأمن مكر الله حتى وإن صار في مصافي الأولياء، ولا يأمن مكر الله ﷻ حتى وإن كانت قدمه في الجنة وأخرى خارجها، لأن الله حكمه نافذ قاهر فوق عباده، فلم يترك لذي حال حاله، ولا لذي مقال مقالاً، حتى لا يعتمد على حاله ولا على مقاله ودعائه، فكأنه يقول: أنا أدعوك ولا أعتد على دعائي الذي هو منك برز إليك، بل أعتد على محض فضلك وكرمك، وهذا من كمال الافتقار.

١٥ - (إِلَهِي كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا وَحَالَةٍ شَيْدْتُهَا هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَذْلُكَ؛ بَلْ أَقَالُنِي مِنْهَا فَضْلُكَ) لا تعتمد إلا على الله ﷻ، ولا تعتمد على طاعتك وعملك؛ لأنك إذا نظرت إلى عملك وأعجبت به حجبت عنه سبحانه؛ لأنك اعتمدت على غير الله ﷻ، والعدل يقتضي أن يأخذ كل واحد

ما يملكه، فالطاعة التي أنت معتمد عليها هي في الحقيقة ملك الله ﷻ، فهو الذي خلقها فيك، فلا تعتمد على ما لا تملك ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، فأظهر الافتقار إلى الله ﷻ ولا تغتر بنفسك ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وكأن الله يلقنك الإجابة من هذا السؤال، فتقول يا رب، الذي غرني وجعلني أعرض عنك كثيراً معرفتي بكرمك ورحمتك. وعند العارفين الرجاء في حال المعصية أشد من حال الطاعة ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، فغلب الرجاء وقت المعصية، وغلب الخوف عند الطاعة خشية أن لا تقبل، وخشية أن تعجب بها وتعتمد عليها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي الذين يؤتون ما آتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة من عدم القبول والإعجاب بها والاعتماد عليها، فالعارفون حالهم الرجاء عند المعصية والخوف عند الطاعة وقوله (بل أقالني منها فضلك) أي الذي ينبهني إلى عدم الاعتماد عليها محض فضلك، فأنت الذي وفقتني للعبادة، وتفضلت عليّ أن منعني من النظر إليها، وهذا فضلٌ ثانٍ فوق فضل توفيق العبادة.

١٦ - (إِلَهِي أَنْتَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدُمْ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلًا جَزْمًا فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْمًا) أي أنا ضعيف يا رب، ولا أستطيع المداومة على النوافل والسنن من قيام الليل وغيره كل يوم، وذلك لضعفي، لكنني أحب أن أفعل هذا الأمر وأستمر عليه حباً فيك لكن يمنعي ضعفي، فلا تؤاخذني بذلك، فاقبل يا رب ما أنويه وأريد فعله، واكتبه عندك من الأعمال وإن لم أفعله،

والنبي ﷺ قال: « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ »^(١) والله تعالى قال ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠]، فالعبرة أن يسكن الخير والحب في قلبك، وهذا أيضاً من محض فضل الله ﷻ، وإذا حال الله في بعض الأحيان بينك وبين الاستمرار على الطاعة فاعلم أنها لحكمة عظيمة وفائدة كبيرة لك، ففيها وجهان (جلالي وجمالي) الجلالي: فلكي تعلم أنه سبحانه وتعالى القاهر، فبالرغم من نيتك وعزمك على هذا العمل إلا إنه يقهرك فلا تفعله ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

أما الجمالي: فليجعلك منكسراً مفتقراً، فعلم أنه لو دمت على هذه الطاعة لأصابك الكبر والغرور، فتعجب بعملك فتحبط، فكسر حدة الكبر عندك، وهذا هو الجمال.

١٧- (إِلَهِیْ كَيْفَ أَغْزِمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ، وَكَيْفَ لَا أَغْزِمُ وَأَنْتَ الْأَمْرُ) هنا يقصد الحقيقة والشریعة، فالحقيقة تقول: إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ، وإذا كان قاهراً فوق عباده فلماذا يكلفهم بالأمر والنهي؟ لأنه سر القدر، فالله ﷻ خلق خلقاً للجنة وخلق خلقاً للنار قبل أن يخلقهم ويأمرهم وينهاهم. والبعض يقول إذا كان هكذا فلماذا خلقنا وأمرنا ونهانا؟ والجواب يجب أن تحمد ربك على أنه خلقك وجعل لك وجوداً بعدما كنت عدماً، وجعلك محلاً لظهور تجلياته من جلال وجمال، فالله تعالى قاهر فوق عباده، وبالرغم من ذلك لا يفعلون إلا ما أذن لهم أن يفعلوه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

(١) رواه البيهقي في السنن الصغرى (٦٤٤٥) أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ الصَّفَّارِ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ ». هَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ، والطبراني في المعجم الكبير (٥٩٤٢).

اللَّهُ ﴿[الإنسان: ٣٠]﴾، وفي نفس الوقت أمرهم ونهاهم ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿[الأنبياء: ٢٣]﴾، فالتناقض لا يوجد إلا في ذهن الزنديق، أما في ذهن المؤمن الولي فالقلب منعقد بالحقيقة، وهي أن الله سبحانه وتعالى قدّر على كل العباد كل شيء، حتى ما ارتكبه من معاصي بقدر الله تعالى.

وانعقد على لسانه الشرع الشريف، فعليه أن يلتزم بأمر الله ﷻ ويقول بلسانه: سمعاً وطاعة وهو يعتقد في قلبه أنه لا يستطيع أن يقوم بما أمر إلا بإذن من الله تعالى وتوفيقه، أي: كأنك مجبور مقهور في الحقيقة مختار في الصورة، فلا يسأل المؤمن ربه عن سبب الإيجاب في الحقيقة والأمر في الظاهر، لذلك نجد الأولياء يتعاملون في الظاهر بالانقياد لأمر الله تعالى مع التسليم والرضا، فإذا نظر إلى العاصي وهو في معصيته أشفق عليه بقلبه؛ لأن الله سبحانه قدرها عليه، وينكر عليه بلسانه وينصحه؛ لأن الشرع أمره أن ينكر المنكر ويأمر بالمعروف، فنجد إذا أمر ونهى ونصح فبكمال الشفقة والرحمة، فهو يقوم بحق الشريعة على اللسان وبحق الحقيقة في القلب. لذلك كان النبي ﷺ يدعو للكفار ولا يحقد عليهم (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) وفي الشريعة قاتلهم وحاربهم، أما في الباطن يعتصر قلبه حزناً عليهم ويدعو لهم، فنحن نكره الكفر ولا نكره الكافر، ونكره المعصية ولا نكره العاصي.

وقوله: (كيف لا أعزم وأنت الأمر) أي الذي أمرني بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهذه أوامر ويجب أن أعزم على أدائها، وفي نفس الأمر كيف أعزم وأنت القاهر فوق عبادك؟ فعليّ أن ألتزم عبودية واستسلم ربوبية على ما قدرته لي وألتزم به. وهكذا كان حال النبي

ﷺ في معاملته مع الخلق، كان لا يعامل العاصي بالغل والقسوة، ولمَّا فتح مكة قال لقريش: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ولم يقتلهم أو يؤذيهم وهم كفار، لأنَّه يكره كفرهم ولا يكره ذواتهم؛ ولأنَّه يعلم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فالأمر لله ﷻ يفعل في خلقه ما يشاء، ثم إنَّ الله تعالى قال: ﴿نَتَّبِعْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، فكيف سيعلم الخلق أنه غفور رحيم من غير وجود من يعصيه من خلقه فيتوب إلى ربه فيغفر الله له ويرحمه، وكذلك قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، فهو شديد العقاب، وما كنا لنعرفها إلا لوجود من مات على الكفر فدخله النار، فالكافر سبب لظهور الجلال والقهر، والمؤمن سبباً لظهور الجمال والفضل، فكل ما في الأكوان من تدبيره سبحانه كي نتعرف عليه بالجلال والجمال ونعبد إلهاً كاملاً مقدساً عن كل نقص.

١٨ - (إِلَهِی تَرُدِّدِي فِي الْأَثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزَارِ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوَصِّلُنِي إِلَيْكَ) فالعبد يشعر بأنه مقهور وبعيد عن ربه بالرغم أن الله أقرب إليه من حبل الوريد، لأنه مقهور بحجاب الآثار.

والآثار: هي كل ما سوى الله، والآثار أتت من أثر الصفة؛ لأن كل ما في الأكوان ما هو إلا آثار صفات الله المتجلية، وكل ما في الأكوان متغير ولذلك سميت (أغيار) والآثار والأغيار والسوى بمعنى واحد.

وهو يقول في هذه المناجاة: يا رب، إن حجب الآثار والأغيار بيني وبينك كثيرة، وهي تحجبني عنك، فأنا بعيد عن الوصول إلى معرفتك؛ لأنك قهرتني في هذه الحجب.

ثم قال: (فاجمعني عليك) بمحض متتك وفضلك عليك، فوفقني بخدمة تجذبني إليها وتبرزها على جوارحي فتكون سبباً لمعرفة في باطني. ثم بعد أن وفقه الله ﷻ لخدمته وصل إليه فعرفه، فصار يعرف الله بغير الأثر، بعد أن كان يعرفه بالأثر؛ لأنه وصل إليه، فاستغنى بالمدلول عن الدليل، وصار يرى الأشياء بالله ﷻ بعد أن كان يعرف الله بالأشياء، فوجد أن الله سبحانه أظهر من أن يحتاج لدليل يدل عليه، لذلك قال في المناجاة التالية.

١٩- (إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْكُونُ لِعَيْبِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُّ لَكَ؟!، مَتَى غَبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِّلُ إِلَيْكَ، عَمِيتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا، وَخَسِرْتُ صَفْقَةً عَبْدٌ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا).

(إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ) أي كنت أستاذ بالأثار عليك حتى وصلت إليك، فنظرت إليها فوجدتها عدم مفتقرة، ووجدت الله ﷻ عندها فوفاني حسابه، فاستغنيت عن كل شيء. فهو يتعجب من حاله حال كونه في علم اليقين بعد أن من الله عليه بعين اليقين.

ثم قال: (أَيْكُونُ لِعَيْبِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُّ لَكَ؟!، مَتَى غَبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ) فالله تعالى أظهر من الدليل بل الدليل قام بالله تعالى.

ثم قال: (وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِّلُ إِلَيْكَ) فهل يدل الفرع على الأصل، ففي علم اليقين ننظر إلى الفرع كي نصل إلى الأصل، وعين اليقين ننظر لأصل الوجود فلا تشغل بالمظاهر عن الظاهر.

ثم قال: (عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيًّا) أي عين البصيرة لأن الله ﷻ لا تدركه الأبصار، فالولي يرى الله بعين بصيرته؛ لأن باطنه أشرق، فغطت عين بصيرته على عين حسه فرأى الله أي عرفه، عرفه في كل شيء فلم يجهره في شيء.

ثم قال: (وَحَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيًّا) فالربح كل الربح والفوز كل الفوز هو بمعرفة الله ومحبه.

٢٠- (إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الْإِسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونِ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَمَرْفُوعِ الْهَمَّةِ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) بعد أن وصل إلى عين اليقين رده إلى السلوك بعد كمال المعرفة.

قال المصنف: (إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ) كي يرجع للسلوك والبقاء، ليعطي كل ذي حق حقه، فيعطي الربوبية حقها فيقوم بالخدمة والطاعة عبودية، فبعد أن وصل إلى الله ﷻ عاد إلى السلوك بالله لا بنفسه فصار يعبد بالله، وسمعه وبصره بالله فكان أولاً يعبد الله وصار يعبد بالله «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَى النَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»^(١) فتقرب بالنوافل لله فإذا أحبك وصار سمعك وبصرك صرت تعملها بالله ﷻ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، وكل ما سوى الله باطل.

(١) رواه البخاري (٦٥٨١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَكِنْ اسْتَغَاذَنِي لِأُعِذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

ثم قال: (فأرجعني إِلَيْهَا بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الْإِسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونٍ السَّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَمَرْفُوعِ الْهَمَّةِ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فطالما يا رب أمرتني أن أبدا متوجها لله ﷻ، ثم أرتقي فأصير بالله فوفقني أن أستمِر بالله ﷻ، حتى لا أكون في حال فرقي بعيداً عن حال جمعي، فيكون الفرق بالجوارح والجمع في القلب، فيكون الفرق على لساني تشرعاً والجمع على قلبي تحقّقاً.

٢١- (إِلَهِ هَذَا ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَهَذَا حَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، مِنْكَ أَطْلُبُ الْوُصُولَ إِلَيْكَ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ لَا بغيرِكَ فَأَهْدِنِي بُنُورَكَ إِلَيْكَ، وَأَقْمِنِي بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ).

قال المصنف: (إِلَهِ هَذَا ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَهَذَا حَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ) وهو افتقار العبد إلى الرب، افتقار الذليل إلى العزيز والضعيف إلى القوي والفقير إلى الغني، مذلة العبد الذي قد يتعلق قلبه بما يضره لجهله، وقد ينصرف قلبه عما ينفعه بسبب غفلته، فإذا تذلت بضعفك غطى ضعفك بقوته وجهلك بعلمه وفقرك بغناه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، المضطر المفقر المتذل إلى مولاه.

ثم قال: (وَهَذَا حَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ) وهذا حالي من الذلة والضعف والعجز لا يخفى عليك، لكنني أظهر افتقار حالي بلسان مقالي لا لأعلمك ما غاب عنك؛ لأنك تعلمه قبل أن أترجمه بمقالي، ولكن هذا من باب التذلل وإظهار العبودية وليس التهجم على مقام الربوبية، وأنت أمرتني أن أدعوك فها أنا أدعوك بتذلي وافتقاري وأنت تعلمه ولا يخفى عليك.

ثم قال: (مِنْكَ أَطْلُبُ الْوُصُولَ إِلَيْكَ) أي تأخذ بيدي من حجابي التي تبعدني عنك فأنت مني قريب وأنا البعيد.

ثم قال: (وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ لَا بغيرِكَ) أستدل بك فهل هناك في الأكوان ما هو أظهر منك ليكون دالاً عليك، فما ظهر في الأكوان إلا ما أظهرته، ولولا ظهورك ما ظهر، فكيف أستدل عليك بما هو محال أن يصل إليك، وبما هو مفتقر في الظهور إليك، بما لا يظهر إلا بأنوارك.

وأنا الآن أستدل بك عليك بغير وسائط فأنت أظهر من أن تخفى عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، لذلك كان سيدنا علي عليه السلام يقول: (عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي) وهذا مقام من عرف ربه بعين اليقين، وأما علم اليقين فهو الذي عرف ربه بالدليل، فالعالم يفتقر إلى الدليل ليدله على المدلول، والحقيقة أن العوالم ما قامت إلا به فهل يكون لها من الظهور ما ليس له سبحانه وحاشاه، والأولياء تستدل بالمكون على الأكوان؛ لأنهم وصلوا إلى مقام عين اليقين، فلقد انتقل من مقام (إياك نعبد) إلى مقام (إياك نستعين) فانتقل من السلوك إلى الوصول، ثم عاد بعد مقام الجمع إلى مقام الفرق مرة أخرى قياماً بحق العبودية وقياماً بحق الربوبية فأعطي كل ذي حق حقه.

ثم قال: (فَاهْدِنِي بُنُورَكَ إِلَيْكَ) قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، حتى يصير علمي بك علمٌ ضروري كعلمي بالعطش والجوع التي لا تحتاج إلى دليل.

ثم قال: (وَأَقْمِنِي بِصَدَقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ) فإذا صرت في العبودية فأنت عبد الله، وهل يلتفت العبد عن سيده لحظة أو يغفل عنه؟ فالعبد لا يلتفت عن سيده طرفة عين.

وحكي أن بعض الملوك كان له وزير يحب الملك محبة شديدة جداً، وفي مرة دخل في حضرة الملك مهرج لكي يرفه عن الملك ويسليه، فالتفت الوزير إلى المهرج وصرف بصره عن الملك، فاستحى الوزير مما فعل وأخذ يعاتب نفسه، كيف أصرف نظري عن الملك لسواه وأنا في حضرته؟ وهذه محبة العبد مع ملك من ملوك الدنيا فما بالك بالعبد مع ربه ملك الملوك، فلو كنت صادق في عبوديتك فما التفت عنه لحظة، وهذا هو صدق العبودية.

٢٢- (إِلَهِي عَلَّمْنِي مِنْ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَصُنِّي بِسِرِّ اسْمِكَ الْمَصُونِ).

أي علمني بلا واسطة ﴿﴾ وَعَلَّمْنَهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وهذه هي العلوم الربانية التي تأتي على قلب الولي فتعلمه ما غاب عن غيره وتبصره بما عميت عنه العيون.

٢٣- (إِلَهِي حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ، وَاسْلُكْ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ

الْجَذْبِ) أي اجمع لي بين السلوك إليك، قياماً بواجبات العبودية وبين سلوك أهل الجذب فناءً بحقوق الربوبية، فأقوم بالشرع الشريف على ظاهري، فلا أنجذب جذبة أغيب عن عقلي فأصير غير مكلف، ولا أصير سالكاً غير مستشعر بمراقبتك فأحجب بسلوكي وعلمي عنك، ولكن اجعلني في الظاهر سالكاً حتى أصير قدوة للناس، وفي الباطن مجذوباً إليك يا الله، وهذا أهل الوراثة الحقة للنبي ﷺ فلا يغلب سلوكهم على جذبهم ولا جذبهم على سلوكهم، فالقلب هو بيت الله في الإنسان، فالكعبة بيت الله ﷻ في الأرض والقلب بيت الله في المؤمن وهو موضع نظر الرب ومحل تجليات الله ﷻ، ومن كان هذا مقامه فتراه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بلسان الشريعة

وفي نفس الوقت هو مشفق على فاعل المنكر لأنه يرى قهر الله في هذا العبد، وهذا حال النبي ﷺ مشفقاً على الأكوان؛ لأنه رحمة للعالمين وقائماً بحقوق الشريعة أمراً وناهياً ومجاهداً. فالشيخ يدعو لأن يكون متشريعاً في الظاهر ومتحققاً في الباطن واصلاً إلى معرفته، فيجتمع الجذب والسلوك في آن واحد، فالسلوك تشريعاً والجذب في القلب تحقّقاً.

٢٤- (إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي، وَبِاخْتِيَارِكَ عَنْ اخْتِيَارِي، وَأَوْقِفْنِي عَلَى مَرَائِزِ اضْطِرَّارِي).

قال المصنف: (إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي) أي اخرج هم التدبير من قلبي إلى الاستسلام والرضا إلى تدبيرك فأنت بيدك الأمر كله، والشعور بتدبير النفس حجاب، فانقلني من هذا الحجاب وأرحني من ذل نفسي ومن خوف الخلق وهم الرزق فلا أعترض فيما تقدره عليّ أبداً.

ثم قال: (وَبِاخْتِيَارِكَ عَنْ اخْتِيَارِي، وَأَوْقِفْنِي عَلَى مَرَائِزِ اضْطِرَّارِي) أي وأغني ورضني باختيارك لي عن اختياري بنفسي وعرفني وحقني باضطراري وافتقاري لك.

٢٥- (إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشُرْكِي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي، بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَأَنْصُرْنِي، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي، وَلِجَنَابِكَ أَتَسَبُّ فَلَا تُبْعِدْنِي، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي).

قال المصنف: (إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي) الذي هو عجز البشرية وذل العبودية.

ثم قال: (وَطَهَّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشُرْكِي) أي شكّي فيما كتبته لي، فأستعجله وأشك، فخرجني يا رب من هذا المقام، حتى لا أتعجل ما أرادت تأخيره ولا أؤخر ما أرادت تعجيله.

فإذا استبطأت العطاء فهذا شك، وإذا نسبت العطاء للأسباب فهذا شرك، فالله سبحانه يعطيك ما يصلحك ويمنع عنك حتى يعافيك ويريقك.

ثم قال: (قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي) والرمس هو القبر، فهو يريد أن يتحقق بالكمالات والأحوال الشريفة الرضا قبل حلول موته.

ثم قال: (بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَأَنْصُرْنِي) أي على نفسي أولاً، وعلى جهلي، وعلى غفلي، وعلى كل ما يحول بيني وبينك.

ثم قال: (وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلَا تُبْعِدْنِي، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي)

٢٦- (إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي، أَنْتَ الْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ غَنِيًّا عَنِّي) أي مهما اجتهدت في العبادة مني فلا أصل إليك إلا بمحض فضل منك، فأنا أعبدك وأطيعك امتثالاً لأمرك لكني لا أصل إليك بطاعتي؛ لأنها ليست علة لرضاك ولطفك، والله تعالى غير مفتقر لعبادتك، بل أنت المفتقر إليها، كي يكون افتقارك علامة لظهور منة الله تعالى. ونضرب لذلك مثلاً: فلقد خلق الله ﷻ الماء وخلق العطش، فإذا مر الماء على موضع العطش حصل الري، وفي الحقيقة الماء ليس علة الري بل الله تعالى هو الذي خلق الري عند التقاء الماء بالعطش، فالماء ليس فاعلاً على الحقيقة، والفاعل هو الله ﷻ، فالله ﷻ

ربط الأشياء مع بعضها ربطاً عادياً، وربط الأسباب بنتائجها ربطاً عادياً، وأيضاً ربط رضاه بطاعته ربطاً عادياً وليس له علة ومعلول، فيقول الشيخ: ها أنا يا رب آخذاً بالأسباب التي جعلتها في يدي بحولك وقوتك لتخلق فيها لا بها وسيدنا النبي ﷺ يقول: «لن يدخل أحد الجنة بعمله ولكن برحمتي»^(١).

٢٧- (إِلَهِیْ إِنَّ الْقَضَا وَالْقَدَرَ عَلَّيْنِي، وَإِنَّ الْهَوَى بِوَثَائِقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي، فَكُنْ أَنْتَ النَّاصِرُ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي، وَاعْنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى أَسْتَغْنِي بِكَ عَنْ طَلْبِي، أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحْبَابِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ، أَنْتَ الْمُؤْنَسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَ لَهُمُ الْمَعَالِمُ. مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ، لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوِّلًا).

قال المصنف: (إِلَهِیْ إِنَّ الْقَضَا وَالْقَدَرَ عَلَّيْنِي) فالقدر غلاب ولا راد له، فالله تعالى غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم قال: (وَإِنَّ الْهَوَى بِوَثَائِقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي) فالأمر كله بيدك، فأنت الذي غرس حب الشهوات والدنيا في قلبي فملت إليها ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾

(١) رواه البخاري (٥٧٣٥) حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو عُبَيْدٍ مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدُّوا وَقَارِبُوا وَلَا يَتَمَنَّيْنَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزِدَّادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ»، ومسلم (٧٢٨٩)، وابن ماجه (٤٣٤١).

وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ١٤]، فكما زينتها عندي فأسرّني بها وقيدتني بالميل إليها فكن أنت الناصر لي عليها.

لذلك قال: (فَكُنْ أَنْتَ النَّاصِرُ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي، وَاعْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلْبِي) وهذا مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما قال لجبريل عليه السلام وهو يلقى في النار (أما إليك فلا، فعلمه بحالي يغني عن سؤالي) فاستغنى بالله عن طلبه، لأن العبد قد يطلب ما يضره ويظن أن النفع فيه، فعليه أن يوكل الاختيار لربه ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

ثم قال: (أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ) فكما أشرقت أنوار المعارف في قلوب أوليائك بمحض متتك، فأشرق هذه الأنوار على قلبي.

ثم قال: (وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحْبَابِكَ حَتَّى لَمْ يُجِبُوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ) فأنت الذي أزلت الشهوات والعوائق والعلائق من قلوب أوليائك؛ لأن العبد مفتقر لا يستطيع أن يسترجع ما يسلبه الذباب منه، فكيف يخرج الشهوات والعوائق من قلبه؟! فإذا سلّم العبد نفسه لمولاه، وأوكل أمره إليه سيتولى الله ﷻ إخراج الشهوات من القلب. والأغيار: كل ما سوى الله .

ثم قال: (أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمْ الْعَوَالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَ لَهُمُ الْمَعَالِمُ. مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟، لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوِّلًا) فانت

الذي حببت لهم الإيمان وزينته في قلوبهم فاستوحشوا العوالم، وهديتهم حتى أوضحت لهم معالم الطريق إليك، فمن وجد الله وعرفه فقد استغنى به عن كل شيء، ومن فقدته فقد كل شيء.

٢٨- (إِلَهِي كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ، وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ، يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُوَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ، وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِيسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ. أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ، وَأَنْتَ الْبَادِئُ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلَبِ الطَّالِبِينَ، وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْنَا مِنَ الْمُسْتَقْرَضِينَ).

قال: (إِلَهِي كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ) أي كيف يسأل العبد الناس ويرجو منهم نوالا والله لم يقطع إحسانه عنه، فمن الذي لطف بك وأنت في ظلمة رحم الأم جنينا يتكون؟ ومن حفظك في طفولتك من رعوناتك؟ ومن هداك للإيمان بعد إدراكك؟ ومن آواك وهداك وعلمك وأنعم عليك بنعم لا تحصى دون سؤال منك أو حتى فعل طاعة أو قرينة؟ فسبحانه وتعالى جواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين.

ثم قال: (وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ) فاجعل رجائك في مولاك ولا ترجو الأكوان، وهذا هو المقام الإبراهيمي، ومن يتحقق به تنقلب نار الجلال إلى جنة الجمال، لذلك لما سأل سيدنا إبراهيم عليه السلام عن أجمل أيام حياته في الدنيا قال: حينما ألقيت في النار؛ لأنها محل الجمال والأنس والوصال، وهذا كله لكمال الرضى بقدر الله ﷻ.

ثم قال: (يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ) فحلاوة الطاعة على العبد من فضل الله ومنته، حتى يقوى بها على العبادة، فيذوق لذة ذكره ويأنس بربه.

ثم قال: (وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ) فالله ﷻ هو الذي ألبس الولي لباس الهيبة وغطاه بالعز فيعظم في أعين الناس، وإذا نظرت إلى حال الولي تجده مفتقرا لله ﷻ لا يملك نفعاً ولا ضرراً، لكن تجده كله هيبة وعزة وجلالا وجمالا، والنبي ﷺ أكمل من تحقق بمقام العبودية كان مهاباً، حتى أن الصحابة كانوا لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم إليه من هيئته وكما قال البوصيري رحمه الله في البردة:

كأنه وهو فرد من جلالته في عسكرٍ حين تلقاه وفي حشم

فهو ﷻ البحر الذي يشرب منه جميع الأنبياء والأولياء من لدن سيدنا آدم ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيمد الكل بالهداية والرشاد والرشد والإرشاد والجلال والجمال والرحمة والأنس والإقبال على الله.

فكلهم من رسول الله ملتمسٌ رشفاً من البحر أو غرقاً من الديم
وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

ثم قال: (أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ) فلولا أن ذكرك الله ما ذكرته بقلبك ولا بلسانك، فهو سبحانه الذي حبب لنا الإيمان وزينه في قلوبنا.

ثم قال: (وَأَنْتَ الْبَادِي بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلَبِ الطَّالِبِينَ) فهو الذي منَّ عليك بالإيجاد والإمداد،

خلقت ضعيفاً لا تملك من أمرك شيئاً ولا تعلم شيئاً ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٨]، فهو يذكرك منته عليك وفضله، حيث كنت جاهلاً عاجزاً ضعيفاً، ودون أن تطلب أمدك وقواك وعلمك وخلقك على أكمل خلقة وأرسل إليك الأنبياء والرسل حتى تتعرف عليه، كل هذا وأكثر أعطاك إياه دون أن تطلب، فهو الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين.

ثم قال: (وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ) وأنت لا تملك نفسك ولا مالك، وهو الوهاب الذي وهبك كل ما أنت فيه وعليه ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].

٢٩- (إِلَهِي ااطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذُبْنِي بِمَتِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ) أي مَنْ عَلَيَّ بِرَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِكَ لِأَسْلِكَ الطَّرِيقَ إِلَيْكَ، واجذبني واجتبيني بمحض فضلك ومنتك حتى توصلني إليك.

٣٠- (إِلَهِي إِنْ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ، كَمَا أَنَّ خَوْفِي لَا يُزِيلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ) لأنه لا يعتمد على عمله بل على ربه ﷻ، فلا معصية تمنعه من الرجاء، ولا طاعة تمنعه من الخوف، حتى وإن عصاه لا ينقطع رجائه؛ لأنه ناظر إلى فضل الله وليس إلى عمله.

٣١- (إِلَهِي قَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمُ إِلَيْكَ، وَقَدْ أَوْفَقَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ) العوالم كلها تدلني عليك جلاً وجمالاً، فالله يخلق في كل نعمة منغصاً، حتى لا تركز إليها وتنسى المنعم بالنعمة، وكذلك يخلق في البلاء الرحمة، حتى لا تياس فلا تنسى ربك بالنعمة، ولا تياس من الشدة، وتفكر في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام لما رزقه الله تعالى بنعمة الولد وهو سيدنا إسماعيل عليه السلام.

وأحبه وتعلق به، أمره بذبحه؛ لأن الله ﷻ يغار أن يرى في قلب حبيبه غيره، فلما امتثل سيدنا إبراهيم عليه السلام لهذا الاختبار العظيم جاءت المنة مرة أخرى، ففداه الله بكبشٍ عظيم، وهذا هو حال الدنيا، فلا تركز إلى أي نعمة مهما كانت، بل اركن لله ﷻ في النعمة والنعمة؛ لأن الله ﷻ ما خلق العوالم إلا كي تصل بها إليه، لا أن تشغل بها عنه.

وقوله: (وَقَدْ أَوْقَفَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ) فعلمي بكرمك هو الذي يدفعني ألا أنقطع عن الطلب منك، واللجوء إليك، والطمع من فضلك وإفضالك.

٣٢- (إِلَهِي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمْلِي، أَمْ كَيْفَ أَهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَكَلِّي) فلا يخيب من كان أمله في الله تعالى، كيف لا وهو اللطيف بعباده سبحانه، ولا يهان من توكل على الله واستعز به سبحانه.

٣٣- (إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَأَنْتَ فِي الدَّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُّ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ أَقْمَتَنِي، أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُّ إِلَى غَيْرِكَ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي، أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَرَأَيْتَكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ. يَا مَنْ اسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، فَصَارَ الْعَرْشُ غَيًّا فِي رَحْمَانِيَّتِهِ، كَمَا صَارَتِ الْعَوَالِمُ غَيًّا فِي عَرْشِهِ، مَحَقَّتِ الْأَنْوَارُ بِالْأَنْوَارِ، وَمَحَوَّتِ الْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ، يَا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ، يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَسْرَارَ، كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ).

(إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَأَنْتَ فِي الذَّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي) فالإنسان ضعيف، والضعف ذل، وأنت الذي خلقتني ضعيفاً ووصفتني بالضعف، فكيف أستعز وأنت في الضعف والذلة أركزتني؟، وما ذلك إلا لأفتقر إليك في كل أحوالي، فاستغني بك وأستعز بثقتي فيك.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي) أي بقولك في الحديث (يا عبادي) أو (يا عبدي) أو بقولك (عباد الرحمن) وهذه نسبة تشريف ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

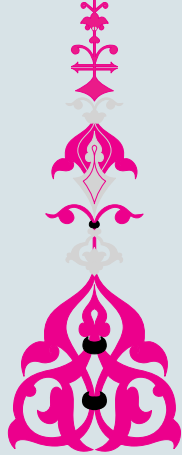
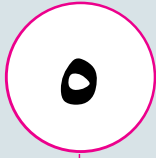
ثم قال: (أَمْ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُّ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ أَقَمْتَنِي) فالعبد مفتقر في جميع أحواله، مفتقر إلى الأعضاء، وإلى الهواء والطعام والشراب، وإلى الخلق وإلى جميع الأكوان، فالعبد مفتقر في كل شيء ولكل شيء.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُّ إِلَى غَيْرِكَ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي، أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ) فلم يظهر شيء إلا بظهورك فيه، وكل الأشياء ما هي إلا تجليات الصفات والأفعال.

ثم قال: (وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَرَأَيْتُكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ) فقد تعرفت عليّ بحسن تدبيرك لشؤوني وللكون بأسره ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوُا﴾

﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فإنا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشه، فحققت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فالعرش مخلوق، والرحمانية صفة تستوجب الخلق، فكما تجلت إرادة الرحمانية على قدرته فخصصتها لتكون الأكوان على وفق علمه

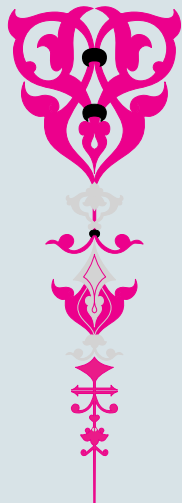
ثم قال: (كَيْفَ تَحْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ
الحاضر).



شرح وتأصيل
مفهوم الأصول السبعة

للسير أحمد الله المجد بهنراري البنجالي رَحِمَهُ اللهُ

(وهي رسالة كتبها لأتباعه في بنجلادش)



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لمعرفته وعبادته، ويسر ذلك بإرسال أفضل رسله وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ فيبين به مراده من خلقه، وجعله أسوة وقدوة لكل من أراد الهداية والوصول إلي مقامات القرب والتخصيص من رب العالمين لتحصيل سعادة الدنيا والآخرة. ومن كمال فضل الله علينا معشر المسلمين أن جعل بعد نبينا ﷺ علماء ربانيين ورثوا منه الرشد والإرشاد فلا يخلو منهم زمان ولا مكان إلى آخر الزمان.

فبين الله بهم للعباد معالم الإسلام والإيمان والإحسان، كما ورد ذلك في حديث سيدنا جبريل عليه السلام المشهور الذي جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس وسط أصحابه بالمدينة المنورة قبل وفاته ﷺ بشهور قليلة في صورة شاب شديد سواد الشعر، وشديد بياض الثياب، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الجالسين، فاقترب من النبي ﷺ وجلس جلسة المتعلم كجلسة التشهد في الصلاة، وسأله عن الإسلام، وعن الإيمان وعن الإحسان، ثم سأله عن علامات الساعة، والنبي ﷺ يجيب، وسيدنا جبريل يصدقه على إجابته، فتعجب الصحابة منه، كيف يسأله ثم يصدقه، وكأنه سؤال العالم بالإجابة، إلا أن رسول الله ﷺ أزال هذا العجب فأخبرهم أنه جبريل، أتاهاهم ليعلمهم

أُمور دينهم^(١)، فلخص في هذا الحديث الشريف أمور الدين وأقسامه وأركانه، ليسهل على المسلمين استيعاب أمور الدين، بعدما كثرت الأوامر والأحكام، فقام الفقهاء في بيان مقام الإسلام، فنشأت المذاهب الفقهية التي اشتهر منها أربعة مذاهب وهي: الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة.

وقام علماء أصول الدين بتشييد معالم الإيمان، فنشأ علم التوحيد وعلم الكلام فظهرت مدرسة الأشعرية والماتريدية، اللتان يمثلان أهل السنة والجماعة.

(١) رواه مسلم (١٠٢) عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصَرَةِ مَعْبُدُ الْجُهَنِيِّ فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُمَيْرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوَقَّفَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَكَتَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَفَقَّرُونَ الْعِلْمَ وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أَتَى قَالَ فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لَأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يَوْمَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: «يَبْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتُحْجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قَالَ أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُيُوتِ قَالَ ثُمَّ انْطَلَقْتُ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّهُ جَبْرِيْلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

وقام اهل التربية والسلوك ببيان مقام الإحسان، فنشأ التصوف الذي يقوم على تخليص النفس من نوازع الشر، وتركيتها بالأخلاق النبوية الكريمة، من خلال ممارسة الشعائر، وتجنب النواهي، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، مع دوام الإقبال عليه، ليشرق في القلب أنوار الإيمان والإيقان .

ومن بين هذه المدارس والطرق كتب السيد أحمد الله الميحيج بهنداري: الأصول السبعة التي تمثل منهج حياة للوصول للنفس المطمئنة الكاملة التي تصلح لحضرة مولانا سبحانه وتعالى على منهج الإسلام والإيمان والإحسان، وبين من خلالها ما يجب على الإنسان المسلم المكلف من تحصيله، ليلبغ درجة الكمال الإنساني متحققا بالخلافة المحمدية والوراثة النبوية، وأنه لا بد من أن يفنى عن الخلق، وعن الهوى، وعن الإرادة والاختيار، ولا بد من أن يموت أربع موتات: الموت الأبيض، والموت الأسود، والموت الأحمر، والموت الأخضر، وسوف نتناول هذه الأنواع بالتفصيل، لبيان معناها ودليلها وثمرتها وكيفية تحصيلها والله الموفق.

فلنبرأ بالفناء بر رجائه الثلاثة:

الدرجة الأولى من الفناء: أن يفنى عن الخلق، وهم كل ما سوى الله سبحانه وتعالى، فلا يلتفت بقلبه لمخلوق اعتمادا عليه، أو خوفا منه أو رجاء فيه؛ لأن كل ما سوى الله ﷻ عاجز مفتقر ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فكيف يملك لغيره .

يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

﴿١٥﴾ [فاطر: ١٥]، وقال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما «اعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ

لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١)

فالأمر كله بيد الله، تدبيرا ورزقا وخلقا وإيجادا ومنعا وعطاء، وبالتالي فلا تلتفت لسواه سبحانه وتعالى، وتغنى تماما عن التوجه بحاجتك لسواه سبحانه وتعالى.

كما قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» لأن الخلق أسباب يُجري الله ﷻ على أيديها مراداته سبحانه، فليست فاعلة بذاتها، ولا تملك شيئا في الحقيقة إلا ما استخلفها الله ﷻ عليه من مال وعافية وجاه وسلطان، فتتعامل مع الخلق بالرحمة والشفقة والمواساة والنصح والتغافل عن معاييبهم وقبول عذرهم. فالخلق عيال الله وخيركم عند الله خيركم لعياله^(٢)، وما هم إلا مظاهر قدرة الله ومراده فعليك أن تحترم المظهر دون الاعتماد عليه بالقلب فلا تلتفت إلا إلى الظاهر جل جلاله، ولذا يقول سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فكل ما سوى الله هالك، أي فإن في الماضي والحال

(١) الترمذي (٢٧٠٦) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ اللَّهُ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»، قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

(٢) رواه البيهقي (٧٠٤٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ».

والاستقبال، وليس له وجود بذاته، بل وجوده ثبت بوجه التجلي وبإمداد المتجلي فيه سبحانه وتعالى، فالخلق لو فتشتهم على الحقيقة لا تجدهم شيئاً.

وهذا الفناء عن الخلق وهي حالة قلبية لا تمنعك من التعامل معهم، أو تدفعك لاحتقارهم، بل تدفع عنك الخوف منهم، أو رجاء الانتفاع بهم، إلا بمحض ما قسمه الله لك على أيديهم، وانظر إلى حال الحبيب الأعظم سيدنا محمد ﷺ كان في كمال الشفقة على الخلق وفي نفس الوقت لا يهابهم ولو اجتمعوا عليه جميعاً، لعلمه أنهم لا يملكون قوة ولا نفعاً ولا ضرراً، ولذا قال له سبحانه: ﴿فَقَنْتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، فأمره بالثبات أمام الأعداء ولو منفرداً، لكمال فنائه عن الخلق، وبقائه بمولاه الذي تولاه، وهذا تحققاً بكنز (لاحول ولا قوة إلا بالله)^(١) فكل الخلق أسباب يجري الله بهم وعليهم وبدونهم ما أَرَادَهُ الله سبحانه .

ومعلوم أن السبب غير فاعل بذاته، فالدواء مثلاً لا يخلق الشفاء عند تناوله، بل أخذ الدواء تعبدى فقط عند المرض لإظهار افتقار العبودية، والله هو الذي يخلق الشفاء عند تناول الدواء وقد يخلقه بدونه، سبحانه يفعل ما

(١) البخاري (٤٢٥٤) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ أَوْ قَالَ لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَفَ النَّاسَ عَلَى وَادٍ فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْتَّكْبِيرِ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْبُعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ وَأَنَا خَلْفَ دَابَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعَنِي وَأَنَا أَقُولُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَقَالَ لِي يَا عَبْدَ اللَّهِ بَنَ قَيْسٍ قُلْتُ لَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَثَرٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي قَالَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». ومسلم (٧٠٣٧).

يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته، وبالتالي الأخذ بالأسباب التي خلقها الله ﷻ من تناول الطعام عند الجوع، وشرب الماء عند العطش، ولبس الثياب من البرد والحر، وطلب العلم على العلماء، والدواء من الأطباء، وتجنب المضار مثل الوقوع في النار أو الغرق في الماء أو قتل النفس، كل ذلك إظهاراً لافتقار العبودية للمولى سبحانه الذي يخلق الشيع عند تناول الطعام، ويخلق الري عند شرب الماء، ويخلق الشفاء عند أخذ الدواء، ويخلق النجاة من المهالك عند تجنب المخاطر، وقد يخلق ذلك كله بغير سبب، كما خلق الأكوان من العدم.

فنأخذ بالأسباب كما بين سيدنا محمد ﷺ ونجتهد في الطاعة والعبادة كما هي سنته ولكن مع الاعتقاد أننا لا ندخل الجنة إلا برحمته سبحانه، فنعمل ونجتهد ولا نعتمد على اجتهدانا وأعمالنا بل نعتمد على الله سبحانه وتعالى، وهذا معنى الفناء عن الخلق، والأسباب خلق والناس خلق وعملك وطاعتك خلق فافن عن الكل لتبقى بالحق.

الدرجة الثانية من الفناء: هي الفناء عن الهوى والنفس الأمارة بالسوء، وعن الأخلاق الذميمة من الحرص والطمع والانتقام والتشفي والحقد والحسد وحب جمع حطام الدنيا وحب النفس والعجلة والجزع والهلع، كما بين سبحانه وتعالى هذه الصفات المذمومة في الإنسان حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾

[المعارج: ١٩-٢١].

والهوى ينشأ في النفس الأمارة لتحقيق رغباتها الدنيئة، فتحصل الشهوة طلباً للذتها وتطلب حب الرياسة والزعامة والشهرة والانتصار على المخالف

واستجلاب المدح من الخلق، وغير ذلك مما جاء بالشرع الشريف والآداب النبوية بالتحذير منه وتجنبه وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤٠) [النازعات: ٤٠]، فلا بد أن يقاوم الإنسان هواه، ويهذهبه بالأخلاق النبوية، حتى يصير موافقا لما جاء به النبي ﷺ، حيث قال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»^(١) وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥) [النساء: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿بَتَّانِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) [الحجرات: ١].

ويحذرنا الله ﷻ من الهوى والميل مع نوازع النفس الأمارة، والخضوع لها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَٰلَمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّقَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣) [الجاثية: ٢٣].

فالهوى يعمي ويصم، فلا يجعل الإنسان يرى الحق فيتبعه، ولا يسمع الموعدة فيخشع قلبه لما نزل من الحق ويخضع لمولاه، ولذا نصح أهل التربية والسلوك بمخالفة النفس وكفها عن تحقيق رغباتها إلا على وفق الشرع الشريف، فمثلا من كان هواه جمع المال فلا يجمعه إلا من الحلال وبالطرق

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) عن عبد الله بن عمرو قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». ورواه الإمام النووي في الأربعين وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الْحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

المشروعة، ثم ينفقه في وجوه البر وقس على ذلك، فكل شهوة فلها وجه مباح ووجه محرم وقد قال البوصيري في برده منوها إلى ذلك:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم
وقال:

ونفسك كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تقطمه ينظم

الدرجة الثالثة من الفناء: الفناء عن الإرادة والاختيار والتدبير والاعتراض، فلا يكون لك مع الله وَعَلَى اختيار وليس لغيره إرادة. ولا تظن أن تدبيرك وأسبابك هي التي تجلب لك نفعاً أو تدفع عنك ضرراً، ولذا قال سبحانه محذراً من سوء اختيار العبد لنفسه ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، فقد تتمنى ما فيه هلاكك، وقد تطلب ما يضرك، وبالتالي اترك التدبير لمولايك سبحانه، فيختار لك بلطفه بك ما ينفعك ويدفع عنك برحمته ما يضرك، وبالتالي اسأل الله ما تريد وارض بما يريد، فإذا فנית عن اختيارك فقد فررت إلى الله وَعَلَى الذي يخلق ما يشاء ويختار، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والفناء عن الإرادة والاختيار بهذا المفهوم يسلمك إلى الرضا والقناعة والشكر على النعمة وإن دقت، والصبر على البلية وإن عظمت، فلا يتعلق قلبك بما لم يقسمه لك سبحانه وترضى وتكتفي بما يسره لك من رزق، ولا تحقد

على غني ولا تحتقر فقيراً، ولا تعترض على تدبير الله في كونه، فهو سبحانه يعلم ما يصلح عباده، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

وهذا يجعلك لا تتمنى الغنى حال فقرك، ولا العافية حال مرضك، ولا العطاء حال منعك، ولا البسط حال قبضك، بل ترضى بالإقامة حيث أراك، فلا تتعجل ما أراد الله تأخيرَه ولا تستأخر ما أراد الله تعجيله، فتصير عبداً حقاً لمولائك، لا إرادة لك سوى إرادته ولا اختيار لك مع اختياره، فتصير عبداً حراً لمولائك، تحررت من رق الأغيار والأهواء، فيشرق في قلبك أنوار التفويض والرضا وحسن الظن في الله.

وبعد أن انتهينا من أنواع ودرجات الفناء التي تمثل ثلاثة أصول من الأصول السبعة عند مولانا السيد أحمد الله الميچ بهنداري البنجالي، نبداً في معنى الموت بأنواعه الأربعة، وطريقته وثمرته لنكمل الأصول السبعة:

أولاً الموت الأبيض:

وهذا الموت يتم بقلّة الطعام، وكثرة الصيام، على وفق سنة النبي ﷺ بدون مبالغة تضر بالإنسان أو تضعفه عن القيام بما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهُ من الاجتهاد في طاعته، والبعد عن نواهيه سبحانه، ولذا أدبنا النبي ﷺ في سنته أن لا نأكل إلا الحلال الطيب، وأن نحصله بالرزق الحلال، وأن لا نأكل إلا إذا جعنا وإذا أكلنا لا نشبع، ونبدأ ببسم الله ونختم بالحمد لله، وأن نأكل الموجود ولا نطلب ونتكلف المفقود، وأن نصوم الفرائض كشهر رمضان وقضاء الفوائت والنذر والكفارات، وأن نصوم الإثنين والخميس، والأيام القمرية من كل شهر

عربي، وكذا التسع الأول من شهر ذي الحجة، ويوم عاشوراء مع يوم قبلها أو يوم بعدها، ومن أراد الزيادة فله أن يصوم يوماً ويفطر يوماً، أو يواصل الصيام طوال العام ويفطر خمسة أيام يحرم صيامها وهي يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى وثلاثة أيام التشريق، بشرط أن لا يؤدي كثرة الصيام إلى ضياع بعض الأعمال الصالحة الأخرى المطلوبة، كالسعي في طلب الرزق الحلال والنفقة على الزوجة والأولاد ومن تجب النفقة عليهم، والصلاة في وقتها جماعة بالمسجد، وقضاء حوائج المسلمين، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وعيادة المرضى، واتباع الجنائز، وغير ذلك من العبادات الأخرى.

فإذا صام العبد فعليه بالتعجيل بالفطر بمجرد غروب الشمس، وعليه أيضاً بالسحور قبل الفجر، فكل ذلك يعينك على المداومة على العبادة، وعدم تركها مللاً أو ضعفاً، ومعلوم أن قلة الطعام والشراب بهذه الطريقة تميت في النفس الغضب، وشهوة الانتقام، ويحل محلها التسامح، والتغافل ولين الجانب، وحسن الأخلاق، والصبر والاحتمال، ورقة القلب، وقلة النوم وكثرة الذكر، وبركة الوقت.

ثانياً الموت الأحمر:

وهذا يتم بمخالفة النفس وهواها، وضبط شهواتها بضوابط الشرع الشريف، وجعله موتاً أحمر؛ لأنه يذبح نفسه وهواها بسكين الشرع الشريف، والأداب النبوية، فيريق دمها ليزكيها ويطهرها من أدناسها.

فالنفس تتزكى بمخالفتها وذلك بفطمها عما تحبه، ويليهيها عن مولاهما وعن مداومة التوجه إليه، فالإنسان يحب الخلطة ومجالسة الناس، ويأنس بهم ويتسلى بأحاديثهم، ويضحك مما يضحكون منه، ويجاريهم في

اهتماماتهم، وكل ذلك يشغل الإنسان عما ينفعه في دينه ودنياه، وينبني عليه الكثير من المعاصي كاللغو والسخرية والاستهزاء بالآخرين والغيبة والنميمة والسباب والعداوة، والنبى ﷺ يقول: « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ »^(١) ويقول ﷺ: « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ »^(٢) وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وبالتالي فقلة الاختلاط بالناس إلا بقدر الضرورة يقتل النفس ويميت فيها كثيراً من الخصال الذميمة ويجنبها الوقوع في كثير من المخالفات ويوفر لها الوقت والجهد لبذله فيما فيه فائدة من طاعة وذكر ونصح وعلم وتعليم وغير ذلك، ولذا قال سيدنا علي كرم الله وجهه عليه السلام: من علامة الإفلاس الاستئناس بالناس.

مع مراعاة ضبط شهوة النفس من مطعم ومشرب وملبس ومنكح على وفق الشرع الشريف، فلا يبالغ في زينة الدنيا، ولا يكثّر من الزوجات، بل يكتفي بما يستطيع القيام به من الرعاية والعناية والنفقة، فتقل مشاغله وتقل مسؤولياته تجاه الخلق، فيتفرغ للحق سبحانه وتعالى.

(١) الترمذي (٢٤٧٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ » قَالَ هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وابن ماجه (٤١١١).

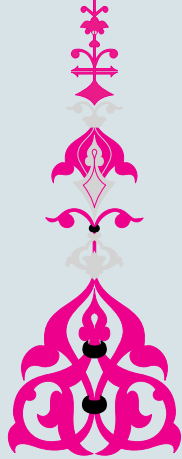
(٢) البخاري (١٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ اللَّهُ وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا دَاوُدُ عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى عَنْ دَاوُدَ عَنْ عَامِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومسلم (١٧٠)، وأبو داود (٢٤٨٣)، والترمذي (٢٦٩٢)، والنسائي (٥٠١٣).

ثالثاً: الموت الأسود:

وهذا يكون باحتمال الخلق والأذى الذي يأتيه من التعامل معهم، ومناصحتهم والله سبحانه يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، ويقول سبحانه وتعالى لمن تعرض للأذى من الخلق مع الإحسان إليهم ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وقال سبحانه لبيان حسن معاشرة النبي ﷺ لمن خالفه منهم ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، ومعلوم أن الصفح الجميل هو الذي لا لوم معه ولا عتاب، ويقول سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨]، وهذا النوع من الموت يقل معه الحساد والأعداء والمتربصون بك السوء، فتأمن من مكرهم، وتطمئن قلباً، فتتفرغ لما فيه النفع في الدارين.

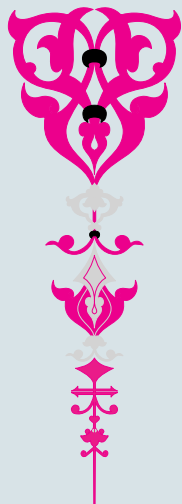
رابعاً: الموت الأخضر:

وهذا يكون بالزهد في زينة الدنيا، وترك التوسع في المباح، فيكتفي بما تقوم به ضرورته من زينة الدنيا، فلا يأخذ من المباح إلا بقدر حاجته، وما زاد عن ذلك أنفقه لله في وجوه الخير، فلا يكتنز مالاً، ولا يقتني عقاراً، ولا يشتري ما لا يحتاجه ولو كان مباحاً وحلالاً، بل يقنع بالقليل، ولا يتشوف ويطمع في الزيادة، وبالتالي يفتح الله على قلبه من خزائن المعارف والفهوم ما لا يتصوره عقل، ويجري الله ﷻ النفع على يديه للخلق ويجعل الأثر في موعظته للناس بأقل الكلام بل بالحال قبل المقال والله الموفق لما فيه الخير بمدد الحبيب المصطفى ﷺ.



مسألة التوسل

وجوازها وأدلتها من الكتاب والسنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معلوم أن التوسل: هو الأخذ بالأسباب والوسائل لتحقيق المراد.

والوسيلة: هي الطريق والسبب الموصل للنتائج.

وجعل الله الأسباب في الدنيا في ظاهر الأمر مرتبطة بالنتائج، بحيث أن المتسرع قد يظن أنها فاعلة ومؤثرة بقوة فيها لتحقيق النتائج بها بعلاقة العلة لمعلولها، فيظن أن النار تحرق بذاتها، وأن الماء يغرق من غمره، أو يروي العطشان بقوة فاعلة فيه، وأن الدواء يخلق الشفاء من الأمراض عند تناوله، والسكين تذبح بقوة فيها كامنة فاعلة، ولكن المؤمن يدرك أن الله ﷻ هو الفاعل والخالق والمدير والمؤثر، وأنه لا حول ولا قوة في شيء في الأكوان إلا بالله ومن الله ﷻ.

فعلم أن قدرة الله هي الفاعلة حقيقة في الأسباب والمؤثرة في ظهور النتائج على وفق الإرادة الإلهية، وأن الأسباب نقاب وحجاب احتجبت به القدرة الربانية في عالم الدنيا حكمة إلهية ليحجب الله بها فعله وقدرته عن أهل الحجاب من الكفار، فيعتقد فيها ويعتمد عليها ويظن أن فيها قوة كامنة فاعلة وأنها علة للنتائج المترتبة عليها.

أما أهل الإيمان فإنهم يعلمون ببصائرهم أن الله ﷻ ما خلق الأسباب وربطها بنتائجها إلا اختباراً لهم، فيؤمنون بأن من ورائها فاعلاً قادراً مدبراً مريداً. وبالتالي نفوا بإيمانهم عن الأسباب أن فيها قوة كامنة تنفع وتضر، أو أنها علة لنتائجها، ولكن أخذوا بها تعبدًا لخالقها، لإظهار افتقار العبودية

وحاجتها لتناولها دون الاعتماد القلبي عليها أو الثقة فيها بل اعتمادًا على خالقها بالقلب وأخذًا بها بالجوارح والعقل.

ولذا قال سيدي أحمد الدردير رضي الله عنه في الخريدة البهية في علم
التوحيد:

وَمَنْ يَقُلْ بِالطَّبْعِ أَوْ بِالْعِلَّةِ
وَمَنْ يَقُلْ بِالْقُوَّةِ الْمُوَدَّعَةِ

فَذَاكَ كُفْرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ
فَذَاكَ بَدْعِيٌّ فَلَا تَلْتَفِتْ

فالله عَلَّمَ يخلق النتائج عند تناول الأسباب، وقد يخلقها بغير سبب إذا أراد، فيخلق الشبع عند تناول الطعام. وهناك من يأكل ولا يشبع، ويخلق الارتواء من العطش عند شرب الماء، وقد يشرب العطشان ولا يرتوي، كما يخلق الشفاء عن تناول الدواء وقد لا يشفى، ويخلق الذرية عند تزواج الذكر والأنثى وقد يجعل من يشاء عقيما، ويخلق الرزق عند السعي وقد يسعى ولا يرزق، ويخلق النصر عند الأخذ بالقوة والحيلة وقد ينصر الضعيف إذا أراد ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وهكذا في سائر النشاط الإنساني في الدنيا، ولو كانت الأسباب علة لنتائجها ما انفكت النتائج عنها، فلا فاعل إلا الله سبحانه ولا خالق غيره، وهذا كله كامن في قول لا حول ولا قوة إلا بالله التي هي كنز من كنوز الجنة^(١)، والتي هي جنة المعرفة بالله في الدنيا وجنة المأوى في الآخرة كما أخبر المعصوم سيدنا محمد عَلَيْهِ السَّلَام.

(١) رواه البخاري (٤٢٥٤) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ أَوْ قَالَ لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَفَ النَّاسَ عَلَى وَادٍ فَرَفَعُوا أَصْوَاهَهُمْ بِالْتَّكْبِيرِ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ وَأَنَا خَلْفَ دَابَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعَنِي وَأَنَا أَقُولُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَقَالَ لِي يَا عَبْدَ اللَّهِ بَنِ قَيْسَ قُلْتُ

وقد أمرنا سبحانه وتعالى في كتابه بالأخذ بالوسائل والأسباب التي تكون في ظاهرها سبباً لطاعته في الدنيا والنجاة من عذابه في الآخرة. وأيضاً سبباً للحفاظ على أرواحنا وعافيتنا في دنيانا تعبدًا له فقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فالتوسل والوسيلة أمر قرآني، تعبد الله ﷻ به المؤمنون في الدنيا سواء كانت هذه الوسائل لتأمين حياتهم في الدنيا من مأكّل وملبس ومسكن، وزواج لتحصيل الذرية، وسعي في الأرض لطلب الرزق، وغير ذلك من النشاط الإنساني، أو كانت وسائل لتحقيق رضاه والفوز بجنته في الآخرة والسعادة في الدارين، كتجنب المناهي وفعل المأمورات، والاستقامة على شرعه، والاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأعمال والأخلاق، والإيمان بهم والانتفاع بهم وبدعائهم وتوجيههم؛ إذ ربط سبحانه الهداية بإرشادهم وما أنزله عليهم من وحي وجعلهم النموذج الأكمل لدينه وشرعه وكمال العبودية لله سبحانه، وإمامهم في ذلك كله هو سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المرسلين وكل من نهج نهجه واتبع سبيله وشرعته إلي يوم الدين.

ومعلوم أن الله ﷻ خلق الرحمة وقسمها مائة جزء، كما أخبر بذلك سيدنا محمد^(١) ﷺ فأظهر في الدنيا جزءاً واحداً منها، به يتراحم الخلق

لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي قَالَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». ومسلم (٧٠٣٧)، وأبو داود (١٥٢٨)، والترمذي (٣٩٥٠)، وابن ماجه (٣٩٥٧).

(١) البخاري (٦٠٦٦) حَدَّثَنَا الْحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةً جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عَنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ». ومسلم (٧١٤٨)، والدارمي (٢٨٤٣).

أجمعين إنسًا وجنًا وحتى دواب الأرض، والباقي هو تسعة وتسعون جزءًا أدخره في الآخرة؛ ليسع العباد بعدله وفضله فيعامل الكافر بعدله والمؤمن بفضله. فمظهر عدل الله ﷻ في الآخرة النار للكافر يدخلها خالدًا فيها، وفضل الله في الآخرة للمؤمن الجنة يدخلها خالدًا فيها ولا يظلم ربك أحدًا.

وهذه الرحمة المخلوقة للعالمين هي روحانية سيدنا محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والرحمة سبقت ظهور الخلق بأن الله جعلها سببًا لظهور العالمين من العدم للوجود، وسببًا للإمداد والرعاية والعناية الربانية بخلقه وكذا لإرشادهم لما فيه صلاحهم وهدايتهم؛ ولذا قال في الحديث القدسي: «رحمتي سبقت غضبي»^(١)، وكان النبي ﷺ باعتبار هذه الروحانية أول الخلق ظهورًا وأول المسلمين وأول النبيين والمرسلين، كما أنه في الآخرة أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأول شافع وأول مُشَفَّع وأول من يدخل الجنة؛ ولذا قال ﷺ: «جعلني فاتحًا وخاتمًا»^(٢)، وقال سبحانه في كتابه: ﴿كَمَابدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فكانت هذه الرحمة هي الوسيلة العظمى التي خلقها الله لتحصيل كل نفع وهداية وإرشاد وفلاح لكل العوالم، فهي واسطة الوسائط، فلولا الرحمة للعالمين ما كانت أكوان، وما كان قرآن ولا إيمان، ولا تميزت الطاعة من العصيان، ولا أهل الكفر من أهل الإيمان؛ ولذا قال سيدي ابن مشيش في صلاته

(١) البخاري (٧٥١١)، ابن ماجه (١٩٤).

(٢) البيهقي في شعب الإيمان (٤٨٣٧)، البزار في مسنده (٩٥١٨) بلفظ (وجعلتك فاتحًا وخاتمًا)،

وعبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٣).

المشهورة بالصلاة المشيشية مشيراً لهذا المعنى: (إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل المتوسط)، وقال: (ولا شيء إلا وهو به منوط)، من أجل ذلك توسل أبونا آدم عليه السلام عندما أكل من الشجرة قائلاً لمولاه: اللهم إني أسألك بمحمد إلا غفرت لي، فقال له سبحانه: وما علمك بمحمد؟ قال: عندما خلقتني ونفخت في من روحك رأيت اسمه بجوار اسمك على عرشك، فغفر له^(١).

وعلمنا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن نتوسل به ونستغيث بهذه الرحمة؛ لأنه هو الوسيلة العظمى التي خلقها الله للعباد لتحصيل المراد، فقال في دعائه تعليماً لأئمة: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كله ولا تكلني لنفسى طرفة عين ولا لأحد من خلقك)^(٢)، فرحمة الله المستغاث بها هي الرحمة التي خلقها الله ليرحم بها الخلائق دنيا وأخرى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وسيدنا سليمان عليه السلام توسّل بهذه الرحمة فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، فتوسّل في دعائه برحمة الله التي هي روحانية سيدنا محمد ﷺ السارية في الأكوان قبل ظهور شخصه الكريم.

(١) الحاكم في المستدرک (٤٢٢٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب، لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا آله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، أنه لأحب الخلق إلي ادعني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك».

(٢) النسائي في السنن الكبرى (١٠٣٣٠)، الترمذي (٣٥٢٤).

وقوم سيدنا موسى عليه السلام في سورة يونس توسلوا برحمة الله أيضاً، التي هي الرحمة للعالمين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ مَعَكُمْ بِإِلَهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) [يونس: ٨٤-٨٦].

فمن قال أن التوسل بالنبي شرك فقد خالف أمر الله ﷻ بابتغاء الوسيلة إليه؛ لأنه أقرب وأرجى وأقوى الوسائل إليه ﷻ، وخالف فعل الأنبياء السابقين كسيدنا آدم وسيدنا موسى وسيدنا سليمان عليهم السلام، وقد توسلوا به قبل ظهور شخصه الكريم بقرون عديدة لإدراكهم الرحمة السارية في سائر الأكوان كما في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء: ١٠٧].

وخالف أيضاً قول النبي ﷺ في دعائه: «برحمتك أستغيث» تعليمًا لأمته. وخالف فعل أهل الموقف جميعاً يوم الحشر بذهابهم للأنبياء لطلب الشفاعة عند الله فبدأوا بسيدنا آدم عليه السلام حتى انتهوا إلى سيدنا محمد ﷺ فقال: «أنا لها أنا لها»^(١) فشفعه الله في الخلائق جميعاً.

(١) البخاري (٧٥١٠)، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا مَعْبُدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَنَزِيُّ، قَالَ: اجْتَمَعْنَا نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتِ الْبُنَائِي إِلَى يَسَّالَهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ فَوَافَقْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى، فَأَسْتَاذَنَا، فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لَا تَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ أَوْلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْرَةَ هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ جَاءُواكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَا جِئَ النَّاسُ بِبَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَاذُنْ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي

فالأخذ بالأسباب طلبه الله من عباده تعبداً لتحصيل مراده منهم، وكلها وسائل توصل إلى الله ﷻ ابتغاء رضوانه، قال في كتابه: ﴿الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فدلَّ العباد على أن الخبير الذي يدل عليه هو النبي ﷺ كما في كاف الخطاب في قوله: «إذا سألك عبادي عني»، فلا تشعر بقرب الله إلا بالتوجه للخبير ليدلك عليه، فدلَّ بمفهوم المخالفة أنهم لو ذهبوا إليه مباشرة بغير المرور على هذا الخبير ﷺ ما فتحت لهم أبواب القرب والقبول، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ

الآن، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمِّتِي أُمِّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلْ، ثُمَّ أَعُوذُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَمْرُهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمِّتِي أُمِّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَانْطَلِقْ، فَأَفْعَلْ، ثُمَّ أَعُوذُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَمْرُهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمِّتِي أُمِّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلْ» فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرِ مِثْلَ مَا حَدَّثْنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيَ فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ، فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيَ، فَقُلْنَا لَمْ يَرِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَا أَدْرِي أَنَسِي أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا، قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدَّثْنَا فَضَحَكَ، وَقَالَ: خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَحَدِّثَكُمْ حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ، قَالَ: «ثُمَّ أَعُوذُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَمْرُهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَتَذُنُّ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبَرِيَّائِي وَعَظَمَتِي لِأَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا

لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿النساء: ٦٤﴾، فأمرهم بالمجيء إليه ﷺ بطلب استغفاره لهم واستغفارهم بين يديه ﷺ ليجدوا المغفرة والرحمة.

ثم إنكار الأخذ بالأسباب والتعبد بها واعتبارها شركًا يخالف الواقع المحسوس وما اتفق عليه العقلاء على مر العصور من الأخذ بها والاجتهاد فيها والأخذ في تحصيلها؛ لأنها من فضل الله ﷻ الذي تفضل الله به على عباده في الدنيا ليحصلوا من خلالها على ما فيه النفع لهم سواء كانت هذه الأسباب أسبابًا دنيوية متعلقة بالمعاش أو أسبابًا شرعية متعلقة بطاعة الله واجتناب نواهيه، وقال الله تعالى: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿النساء: ٣٢﴾، فالتوجه إلى الأسباب والأخذ بها في الحقيقة توجه إلى الله وذهاب إليه؛ لأنه هو الذي أظهرها سبحانه وتعالى لعباده لتحصيل ما ينفعهم، فترك الأسباب أو اعتبار أن الأخذ بها شرك يؤدي إلى إنكار الوسائط والشرائع والنبوات والوحي.

وبالتالي الأخذ بالأسباب طلبه الله ﷻ من عباده تعبدًا، لتحصيل مراده منهم وكلها وسائل توصل إلى الله ﷻ ابتغاء رضوانه من عمل صالح وعبادة، وحب الصالحين، والتوجه إليه بالأنبياء وصالح المؤمنين ليسألوه سبحانه من فضله بالسنة هؤلاء ودعائهم وإرشادهم وشفاعتهم، ومن أنكره أو ادعى أنه شرك بالله ما فهم مراد الله من خلق الأسباب والوسائل والوسائط ويوشك أن ينكر حتى سنة الله في كونه من خلق الأسباب.

فالتوسل بالعمل الصالح^(١)، وكذا الدعاء في الأماكن المباركة كالكعبة^(٢) والمساجد والمشاعر المباركة وأماكن عبادة الصالحين ﴿هَذَا لَكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبِّهِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، أي مكان تعبد سيدتنا مريم، وتحين الأوقات المباركة

(١) رواه البخاري (٣٥٠٣) عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ فَأَوُوا إِلَى غَارٍ فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلَاءِ لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصَّدُوقُ فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرْقٍ مِنْ أَرَزُّ فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ وَأَنْتَى عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرْقِ فَزَرَعْتُهُ فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْتَى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقْرًا وَأَنْتَى أَنَا بَطْلُ أَجْرِهِ فَقُلْتُ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ فَسُقْهَا فَقَالَ لِي إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرْقٌ مِنْ أَرَزُّ فَقُلْتُ لَهُ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرْقِ فَسَاقَهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّتَى فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرَّجْ عَنَّا فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ فَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ فَكُنْتُ آتِيَهُمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بَلْبَنٍ عَنَّمْ لِي فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً فَجِئْتُ وَقَدْ رَفَدَا وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاعَوْنَ مِنَ الْجُوعِ فَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ فَكَرِهْتُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا وَكَرِهْتُ أَنْ أَدْعُهُمَا فَيَسْتَكِنَا لِسَرِّيَتِهِمَا فَلَمْ أَزَلْ أَتَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّتَى فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرَّجْ عَنَّا فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةٌ عَمٌّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَنْتَى رَاوَدْتَهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا فَأَمَكَنْتَنِي مِنْ نَفْسِهَا فَلَمَّا فَعَدْتُ بَيْنَ رَجُلَيْهَا فَقَالَتْ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْضُ الْحَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ وَدِينَارٍ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّتَى فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرَّجْ، ومسلم (٧١٢٥).

(٢) رواه الطبراني (٧٧١٣) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْمُؤَدَّبُ، ثنا الْحَكَمُ بْنُ مُوسَى، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ عُفَيْرِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، سَمِعَهُ يُحَدِّثُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ التَّقَاءِ الصُّفُوفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعِنْدَ نَزْوِلِ الْغَيْثِ، وَعِنْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَعِنْدَ رُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ». والبيهقي (٦٤٦٠).

أثناء الآذان^(١)، وبين الآذان والإقامة^(٢)، وعند السجود^(٣)، ودبر الصلوات^(٤)، وأشهر الحج، وشهر رمضان^(٥)، والثالث الأخير من الليل^(٦)، كل ذلك توسل بالزمان والمكان والعمل.

(١) الحاكم في المستدرک (٢٠٠٤) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا نَادَى الْمُنَادِي فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَاسْتَجِيبَ الدُّعَاءُ، فَمَنْ نَزَلَ بِهِ كَرْبٌ أَوْ شِدَّةٌ فَلْيَتَحَيَّنِ الْمُنَادِي، فَإِذَا كَبَّرَ كَبْرًا، وَإِذَا تَشَهَّدَ تَشَهُدًا، وَإِذَا قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، وَإِذَا قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الصَّادِقَةِ الْمُسْتَجَابَةِ الْمُسْتَجَابِ لَهَا دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَكَلِمَةُ التَّقْوَى، أَحْيِنَا عَلَيْهَا وَأَمِتْنَا عَلَيْهَا، وَابْعَثْنَا عَلَيْهَا، وَاجْعَلْنَا مِنْ خِيَارِ أَهْلِهَا أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا، ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ حَاجَتَهُ». هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ إِسْنَادًا، وَلَمْ يُخَرَّجَاهُ.

(٢) أبو داود (٥٣١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ».

(٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النَّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَى لَهُ أَلَا وَإِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعُظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقِيمُونَ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ».

(٤) رواه أبو داود (١٥٢٤) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ فَقَالَ أَوْصِيكَ يَا مُعَاذٌ لَا تَدْعَنَ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وروى الترمذي (٣٨٣٨) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ قَالَ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ وَذُبُرِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوباتِ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَابْنِ عُمرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «جَوْفُ اللَّيْلِ الْآخِرِ الدُّعَاءُ فِيهِ أَفْضَلُ أَوْ أَرْجَى أَوْ نَحْوَ هَذَا».

(٥) البغوي في شرح السنة (١٣٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «ثَلَاثٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُمْ: الصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: «وَعِزَّتِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

(٦) رواه البخاري (١١٥٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَنْتَهِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».

ثم يدل ذلك من باب أولى على أن التوسل بالعابد والعامل بالطاعات يكون من باب أولى؛ لأن العامل أقوى من العمل، والمكين يشرف به المكان والزمان، وبالتالي التوسل بالأنبياء والصالحين وبدعائهم من سنة الله التي شرعها الله لعباده أخذًا بأسباب القبول والقرب والرجاء، وزيارة الصالحين أحياء وأمواتًا في قبورهم، والدعاء بجوار قبور الصالحين التي هي روضة من رياض الجنة كما كان يفعل ﷺ عند زيارة البقيع وشهداء أحد، وبصلاته بجوار قبر سيدنا موسى عليه السلام في رحلة إسرائه، ومروره على بيت لحم حيث ولد سيدنا عيسى عليه السلام، يدل على أن هذه الأماكن مباركة وأنها من أرحى الأسباب التي يكون عندها سرعة الإجابة؛ ولذا كان يدعو عند زيارة القبور لنفسه وللموتى فيقول: «اللهم اغفر لنا ولهم ولا تفتنا بعدهم ولا تحرمنا أجرهم»^(١).

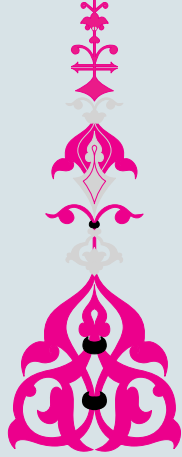
فزيارة الأولياء وقبور الصالحين والدعاء عندهم سنة نبوية وليست بدعة شركية كما يدعي كثير من الجهلة، فشوشوا على المسلمين عقائدهم، ولا فرق بين حياة وموت الصالحين والأنبياء من حيث التوسل بهم؛ لأن فضل الله عليهم وجعلهم أبوابًا للرحمة والقبول متعلق بالأرواح وليس بالأجساد، والأرواح لا يطرأ عليها موت بل ما زالت وهي في برازها تُمد من الله بالبركات والمواهب؛ لأن الله قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]، أي غير مقطوع، فلا يقطع فضله عنهم بعد وفاتهم،

(١) ابن ماجه (١٦١٣) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «فَقَدْتُ تَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ بِالْبَقِيعِ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ وَإِنَّا بِكُمْ لَأَحِقُونَ اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ وَلَا تَفْتِنَا بَعْدَهُمْ». وأحمد (٢٥٠٦٣).

فما كان الله ينفع به عباده عن طريقهم حال حياتهم يستمر عن طريقهم حتى بعد وفاتهم. وبالتالي لا شيء يؤدي إلى الشرك في زيارة الصالحين بعد وفاتهم كما كان الحال في حال حياتهم ومن ظن أنهم ينفعون في حياتهم دون وفاتهم فقد نسب إليهم النفع وهذا هو عين الشرك؛ فالنفع هو الله عن طريقهم سواء أحياء كانوا أم أمواتاً.

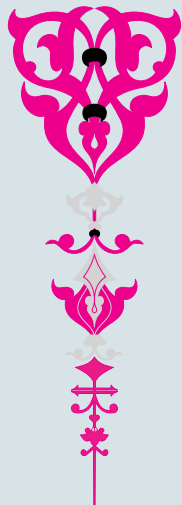
هدانا الله جميعاً لما فيه الرشد والرشاد والإرشاد بمدد الحبيب الأعظم والشفيع الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله والصالحين.

ومن أراد الزيادة فليستمع لشرحي على الخريدة البهية على اليوتيوب، وليطالع كتاب إتحاف الأذكياء في جواز التوسل بالأنبياء والأولياء لسيدي وشيخي عبد الله الصديق الغماري رحمه الله.



رسالة في هرم الأضرحة

وما فعله السفهاء منا



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى به وكيلاً، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، ﷺ.

أما بعد،

فإن مما أشاعه في هذه الفترة العصبية التي تمر بها بلادنا الحبيبة ممن تسمّوا بالسلفية، وقد أخطأوا ما كان عليه السلف الصالح من فهم للدين، وأغلقوا على أنفسهم، فلم يسمعوا إلا ممن كان على فهمهم، ولا يقبلوا الرأي الآخر أو المذهب المخالف ولو كان أقوى دليلاً، مما أخاف الناس منهم، ومن تسلطهم لضيق أفقهم وجهلهم بقواعد الاستنباط، وأصول الفقه واللغة، ومخالفتهم الإجماع في أمور كثيرة من الدين، ومن بينها اعتقادهم أن البناء على القبور حرام ويؤدي إلى الشرك، وأن المساجد المبنية بجوار قبور الأولياء لا تجوز الصلاة بها. وبناءً على هذا الفهم تجرأوا على حرمة الأموات، وهدموا بعض قبور آل البيت النبوي الشريف، والأولياء والعلماء الصالحين، مما أثار فتنة بين المسلمين قد تؤدي إلى التدافع والتدابير والتشابك المفضي إلى إراقة الدماء ومحرمات لا تحصى. ولم يعلموا أن من أبسط القواعد في النهي عن المنكر - إن كان منكراً في زعمهم - ألا يترتب عليه مفسدة أشد، ومنكر أعظم منه. ولذا وجب التنبيه وبيان وجه الحق في هذه المسألة، والله المستعان وعليه التكلان وإليه المشتكى.

اعلم أيها السام الفيور على دينه أن البناء على القبر أهر أمرين:

أولاً: أن يكون قبل الدفن، فيدفن في بيت أو حجرة أو مسجد أو قبة أو حوش، كما دفن سيدنا محمد ﷺ وصاحبيه في حجرته الشريفة، وهي بيته، وكذلك كثير من قبور الأولياء دُفِنُوا في بيوتهم بعد موتهم، وهذا لا شُبْهة في جوازه بنص جميع الفقهاء على جميع المذاهب، وعليه عمل الأمة سلفاً وخلفاً في مشارق الأرض ومغاربها بلا نكير.

ثانياً: أن يكون البناء على القبر أو حوله أو بجواره بعد الدفن، فإن كان على القبر أي فوقه فلا يجوز لعله التخفيف على الميت، أما إن كان حوله أو بناء نحو قبة أو مسجد يُصَلَّى فيه، فإن كان في أرض مملوكة وليست وقفاً أو سبيلاً فجائز مطلقاً، ويكره كراهة تنزيه إن قصد المباهاة والزينة.

وإن كان في أرض موقوفة للدفن فيَحْرُم ويجب الهدم حتى لا يُضَيِّق على الناس في دفن موتاهم. وبعض الفقهاء أجازه حتى في الموقوفة إن لم يضيق على الناس بأن كان على قدر القبر. هذا إن كان الميت من عامة المسلمين، أما إن كان قبر أحد العلماء أو الأولياء الصالحين وآل البيت النبوي الشريف نص جماعة على جوازه بل استحبابه حتى في الأرض الموقوفة تعظيماً لحرمتهم وحفظاً لقبورهم من الاندثار والامتهان، فينتفع بزيارتهم والتبرك بهمز فما بالك لو كان ذلك في ملكهم، فإن أغلبهم دفنوا في أراضيهم وبيوتهم المملوكة لهم.

والمسلم حرمة ميتاً كحرمة حيّاً سواء بسواء، فلا يحل التعدي على بيته بعد وفاته كما يحرم التعدي عليه في حال حياته.

هذا خلاصة المسألة باختصار بدأت بها لمعرفة ما أجمع عليه المسلمون في المسألة قبل مناقشة شُبْهة المخالفين والخارجين عن الإجماع وتسمّوا بالسلفية أو الوهابية، أو النجدية نسبة لنجد أو القرّنيون نسبة لقرن الشيطان، كما

ورد في حديث صحيح البخاري، عندما دعا ﷺ للشام بالبركة، ولليمن بالبركة، فقليل له: ولنجدنا يا رسول الله فقال ﷺ: «**عندها يطلع قرن الشيطان**»^(١)، وصدق رسول الله ﷺ، وانتشر هذا الفكر من قبل نجد، فهو مذهب شيطاني كما سماه النبي ﷺ، أدّى إلى الفرقة والجدال والمراء وسوء الظن بالمسلمين، واستباحة أعراضهم بطعنهم في أعلى ما يملكون وهو دينهم فاعتقدوا فيهم الشرك وسموا زوّار قبور الأنبياء والصالحين بعبّاد القبور، كما هو مكتوب في كتبهم إلى يومنا هذا، وفي منشوراتهم، وهذا بهتان عظيم، فإن من اعتقد في مسلم الشرك وهو منه بريء فقد باء هو بها واستحقها، لأن تكفير المسلم صحيح الاعتقاد هو نفسه كفر، كما يعتقد ذلك غير المسلمين بالمسلمين.

أدلة اتخاذ الساجر والقباب على القبور

* الريل الأول:

قول الله تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿**قَالَ الَّذِي غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ [الكهف: ٢١]، والذين غلبوا على أمرهم هم المؤمنون على الصحيح؛ لأن المسجد إنما يبينه المؤمنون وأما الكافرون فقالوا ابنوا عليهم بنياناً، والدليل من هذه الآية إقرار الله تعالى إياهم على ما قالوا وعدم ردّه عليهم، فإن الله تعالى إذا حكى في كتابه عن قوم ما لا يرضاه ذكر معه ما يدل على فساده وبطلانه، إما قبله وإما بعده.

فإذا لم ينبه على ذلك دلّ على رضاه تعالى به وعلى صحته، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٩١]، فإنه أعقبه بقوله: ﴿**قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ**﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله

تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَبَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، فرده بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات التي يطول ذكرها.

ومن تأمل القرآن وجده لا يقر على باطل يحكيه قولاً كان أو عملاً، لأنه كتاب كله حق ونور وهدى وبيان وحجة لله على العالمين. فإن قيل هذا مُسَلَّم لو لم يرد شرعنا بدم ذلك، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقى دينان بأرض العرب»^(١)، وصح عنه ﷺ أنه قال لأُم سلمة رضي الله عنها حين ذكرت له كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما رأت فيها من الصور: «أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»^(٢)، وصح عنه ﷺ أنه قال: «ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»^(٣).

فالجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن الله تعالى حكى ذلك وهو قوله: ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ عن المؤمنين، والنبي ﷺ في الأحاديث السابقة حكاها عن اليهود والنصارى. وفرق بين حال الفريقين، فإن المؤمنين فعلوا ذلك للتبرك بآثار الصالحين الذين أكرمهم الله تعالى بهذه الآية وحفظ أرواحهم وأجسامهم تلك القرون الطويلة. واليهود والنصارى يفعلون ذلك للعبادة والإشراك مع الله تعالى، فالدليلان غير متواردين على محل واحد.

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ (١٦١٧).

(٢) البخاري (٤٢٨)، ومسلم (١٢٠٩)، والنسائي (٧١٢)، وأحمد (٢٤٨٩٠).

(٣) رواه مسلم (١٢١٦).

الوجه الثاني: وهو أنه لو كان كل من بنى مسجدا بجوار قبر ولو للتبرك والزيارة ملعوناً كما في الحديث، لكان هؤلاء المؤمنون الذين حكى الله عنهم ملعونين أيضاً داخلين في لعنة النبي ﷺ. ولو كانوا ملعونين لما سكت الله تعالى عن ذمهم ولعنهم والإشارة إلى ضلالهم. فدل ذلك على أن فعل هؤلاء القوم غير فعل اليهود والنصارى، الذين لعنهم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، وأن فعل هؤلاء المؤمنون جائز لا شبهة فيه، كما أنه لا شبهة لنا فيه، لا من جهة اتباعهم فإنه لا يلزمنا شرعهم، ولكن من جهة ذكره في كتابنا المنزل بشريعتنا اللازمة لنا المأخوذة من منطوقه ومفهومه وتصريحه وتلويحه.

الوجه الثالث: قوله ﷺ: «أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح اتخذوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تماثيل» فاتخاذهم الصور والتماثيل فيه دليل على أنهم يفعلون ذلك لأجل عبادتهم، والمسلمون لا يفعلون ذلك لا عبادة للصالحين ولا وضع تماثيل لهم أو صور عند قبورهم.

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ قال في الذين يتخذون القبور مساجد «أولئك شرار الخلق»، وثبت بالكتاب والسنة المتواترة أن أمته خير أمة أخرجت للناس، وأنها أشرف الأمم وأفضلها على الإطلاق، وأنهم عُدُول يتخذهم الله تعالى شهداء على الناس، وأيضاً عَلِمَ الله سبحانه وتعالى وأَعْلَمَ نبيه أن أمته سيتفقون سلفاً وخلفاً على اتخاذ المساجد على قبور الأولياء والصالحين والعلماء. وقد شدَّ الإمام النووي الرحلة من الشام إلى مصر لزيارة قبر الإمام الشافعي الذي عليه مسجد وقبة. وكَمَ لهذا الإمام من ألف نظير في المشرق والمغرب يشدون الرحال لزيارة قبور الأولياء والصالحين بلا نكير.

فيلزم من هذا التناقض بين خبر الله تعالى في فضيلة هذه الأمة وخبر

الرسول ﷺ بأن الذين يتخذون القبور مساجد أولئك شرار الخلق. وأن هذه الأمة أجمعت منذ السلف الصالح أن تبني على قبر نبيها المسجد وكذلك قبور الأولياء والصالحين منها، فتكون العلة مختلفة بين الخبرين.

الوجه الخامس: أن هذه الأحاديث معللة بخشية العبادة كما تقدم، فلا يكون تشريعاً عاماً في كل زمان، بل هو تشريع مؤقت بزمن خشية وجود العلة، وهو زمن قرب عهد الناس بالإشراك. أما بعد ارتفاع خشية العبادة واستقرار الإيمان وانتشار التوحيد ورسوخ العقيدة رسوخاً لا يتطرق معه أدنى خلل ولا شك في وحدانية الله تعالى وتفردة فإنه تزول علة النهي ويعود الحكم إلى الأصل وهو الجواز.

ومن أمثلة ذلك: أن النبي ﷺ في أول الأمر نهى الناس عن زيارة القبور، ثم لما استقرّ الإيمان في نفوسهم أباح لهم ذلك فقال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**»^(١)، وفي حديث آخر: «**إنها تزهد في الدنيا**» قال: «**ولا تقولوا هُجراً**»^(٢).

فبان من هذه الوجوه عدم معارضة الأحاديث للدليل الآية، وثبت المطلوب منها وهو الجواز، وهذا ما عليه الأمة سلفاً وخلفاً، والله أعلم.

الريل الثاني:

أن الله قضى باتخاذ المسجد على قبر نبيه، والنبي ﷺ عند ربه ﷻ أعلى قدرًا وأحمى جانبًا من أن يقع بجسده الشريف ما هو محرم مُبَغَّضٌ لله تعالى، ملعون فاعله.

(١) رواه مسلم (٢٣٠٥)، وأبو داود (٣٢٢٧)، والترمذي (١٠٧٤)، والنسائي (٢٠٤٤).

(٢) رواية الإمام مالك في الموطأ (١٠٣٨)، وأحمد (١٣٦٩١).

الريل الثالث:

أمر النبي ﷺ أن يدفن في البناء، فقال النبي ﷺ: «ما قَبِرَ نبي إلا حيث يموت»^(١) كما أخبر الصديق رضي الله عنه الصحابة حين اختلفوا في موضع دفنه ﷺ، واتفقوا على دفنه في بيت عائشة حيث قُبِضَ ﷺ. وهو دليل صريح على وجود البناء حول القبر، مع علمه ﷺ أن هذا يؤول إلى دخوله في مسجده الشريف عندما تكثر أمته ويتسع مسجده، وبذلك أمر بشد الرحلة إلى زيارة قبره الشريف وإلى مسجده للصلاة فيه، ورَعِبَ في ذلك بقوله: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»^(٢)، وقال: «وصلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»^(٣)، فدل على اتخاذ المسجد على قبره الشريف، وأن هذا تم في عصر الصحابة والتابعين والسلف الصالح دون نكير، وإذا جاز ذلك في حقه جاز في غيره من باب أولى، لأن ما يُخشى من الفتنة بقبره ﷺ أعظم مما يخشى من الفتنة بقبر غيره من الصالحين؛ لأن الفتنة إنما تقع من جهة التعظيم، ولا يوجد في الأمة من يعظم قبراً أكثر من قبره ﷺ.

(١) رواه أحمد (٢٧) حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قال ثنا عبد الرزاق قال أخبرني بن جريج قال أخبرني أبي أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم يدروا أين يقبرون النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لن يقبر نبي إلا حيث يموت فأخروا فراشه وحفروا له تحت فراشه» تعليق شعيب الأرناؤوط: قوي بطرقه وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه. وعبد الرزاق في المصنف: (٦٦٣٧).

(٢) البيهقي في السنن الكبرى (١٠٢٣٧) عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي»، أَوْ قَالَ: «مَنْ زَارَنِي، كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا» أَوْ «شَهِيدًا، وَمَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي الْآمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، والدارقطني (٢٧٢٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣٤٩٦).

(٣) البخاري (١١١٩) ومسلم (٣٤٤٠)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٣٢٦)، والنسائي (٢٩١٠)، وابن ماجه (١٤٦٨).

الريل الرابع:

أن النبي ﷺ أخبر بأن قبره الشريف سيكون داخل مسجده، فقال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري»^(١) وفي روايات أخرى «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض»، وقد روى الطحاوي وغيره بأسانيدهم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي». وفي رواية مالك في الموطأ النسخة المطبوعة مع شرح تنوير الحوالك للسيوطي: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٢).

ونحن نعلم بالضرورة أن المنبر والبيت لم يكن لهما هذا الفضل لمجرد أعواد المنبر وحجارة البيت وطينه، فإنه لا فضل لخشب على خشب، ولا لحجارة على حجارة، بل ولا دخل لهما في وجود فضيلة في الدين البتة، إنما الشرف لجوار القبر الشريف، فالمراد هو القبر، لأن الفضل راجع إليه لا إلى البيت. وقد قال الطحاوي في «مشكل الآثار» أن الجمع بين الروايتين وهي بيتي ومنبري، ورواية قبري ومنبري علامة من علامات النبوة جليلة المقدار، لأن الله عز وجل قد أخفى على كل نفس سواه ﷺ الأرض التي تموت بها، لقوله عز وجل: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، فأعلمه الموضع الذي يموت فيه، والموضع الذي فيه قبره حتى أعلم بذلك في حياته، وحتى علمه من علمه من أمته، فهذه منزلة لا منزلة فوقها، زاده الله بها شرفاً وخيراً.

الريل الخامس:

إجماع الصحابة على دفنه ﷺ في بيته، وإجماع التابعين ومن بعدهم على ذلك كما هو مشاهد إلى يومنا هذا في مسجده الشريف ﷺ.

(١) البخاري (١٢٠٤)، ومسلم (٣٤٣٤)، والترمذي (٤٢٩٣)، والنسائي (٧٠٣).

(٢) رواه أحمد (١١٧٨٩).

الريليل السادس:

أن الصحابة بنوا مسجداً على القبر في حياته ﷺ، كما قال ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي بصير، ورواها أيضاً عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن ابن شهاب في قصة صلح الحديبية في آخرها أنه اجتمع مع أبي بصير عند جدة البحر أو سيف البحر (بجوار مدينة جدة حالياً) أبو جندل والمستضعفين من المؤمنين في مكة وأناس من بني غفار وأسلم وطوائف من العرب حتى بلغوا ثلاثمئة وهم مسلمون، فأقاموا هناك وقطعوا على قريش طريق تجارتهم إلى الشام حتى أن زعماء قريش أرسلوا إلى النبي ﷺ أن يستقدمهم عنده إلى المدينة على خلاف ما شرطوا في صلح الحديبية، فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي جندل وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ بيده يدعوهم إلى القدوم إلى المدينة فدفنه أبو جندل مكانه وصلى عليه وبنى على قبره مسجداً. انتهى باختصار.

ولا شك أن النبي ﷺ اطلع على بنائهم المسجد على قبر أبي بصير ولم يأمرهم بهدمه، وكان ذلك زمن الوحي والبلاغ، فلو غاب عنه شيء أخبره الوحي، فلما لم يأمر بهدمه دل ذلك على جوازه، وأن إخباره في حديث لعن الله لليهود والنصارى يحذر ما صنعوا ويخبر بفعلهم وأن أمته لا تفعل ذلك.

الريليل السابع:

أن النبي ﷺ أخبر أصحابه بفتح بيت المقدس، وأن الصحابة أيضاً فتحوا البلاد في زمن الخلفاء الراشدين، ولم يهدموا قبور الأنبياء بالشام والعراق وبيت المقدس. وأما ما نُقل عن سيدنا عمر رضي الله عنه في قبر دانيال وأمره

بهدم الحائط لما وُجد عند قبره من الكتابة التي تُخبر بأمور وكوائن غيبية، وكان عمر رضي الله عنه يُبالغ في التنفير من كل علم، يخشى أن يفتتن الناس به ويعرضون معه عن الكتاب والسنة. أما باقي القبور لم يهدمها لأنه لم يكن عليها شيء مما كان على قبر دانيال، فالهدم كان للكتابة وليس للقبر.

الريل الثامن:

أن جماعة من الأنبياء والمرسلين مدفونون في المسجد الحرام، جاء في عدة أحاديث وآثار أن جماعة من الأنبياء والمرسلين مدفونون في المسجد الحرام ما بين زمزم والمقام، وأخبر النبي ﷺ أن منهم نوحًا وهودًا وصالحًا وشعيبًا. وكذلك ورد أن قبر سيدنا إسماعيل -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- وقبر أمه هاجر في الحجر، داخل الكعبة. فلو كان وجود القبر في المسجد محرّمًا لذاته لنش النبي ﷺ وأخرجهم ودفنهم خارج المسجد، لأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنهم أحياء في قبورهم، فلما لم يفعل ذلك ﷺ دل على أن وجود القبر في المسجد أو أن بناء المسجد على القبر ليس محرّمًا في ذاته وإنما

ذلك لعله عبادتها التي بانتفائها ينتفي حكمها. وإذا علمت أن أفضل المساجد على وجه الأرض مسجد مكة ومسجد المدينة اللذان هما الحرمين الشريفان، وقد شاء الله تعالى وقَدَّر أن في كل منهما قبور متعددة، ففي حرم المدينة قبر النبي ﷺ، وقبر صاحبيه وقبر رابع سيدفن فيه سيدنا عيسى عليه السلام كما ورد في أخبار كثيرة تعلم أن الدفن في المسجد أو اتخاذ المسجد في القبر من أشرف الأعمال، تأسيًا بالحرمين الشريفين، فكل مسجد ليس فيه قبر فهو ناقص الفضل، قليل البركة، عديم الأسوة بأفضل المساجد وأشرفها.

الريل التاسع:

الوسائل لها حكم المقاصد، وما لا يُتوصَّل إلى المطلوب إلا به فهو مطلوب، واحترام قبر الميت المسلم بعدم الجلوس عليه والمشي فوقه ونبشه وكسر عظامه مقصود شرعاً، وضده محرّم منهي عنه أشد النهي، حتى قال النبي ﷺ: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر»^(١) وقال ﷺ: «كسر عظم الميت ككسره حياً»^(٢).

وبالضرورة نعلم أن القبر إذا بقي دون بناء حوش حوله أو بيت أو قبة عليه فهو بلا شك معرّض للمشي فوقه والجلوس عليه واندراس أثره، كما هو مشاهد بالعيان من مرور الناس فوق القبور التي لا بناء عليها، وربما يجهل أن هناك قبراً فيبُول ويتغوط فوقه، بخلاف القبور المحفوظة بالبناء، فإذا كان البناء فيه مصلحة المحافظة على حرمة الميت وحفظ حقه، وفيه مصلحة الحي بامثال أمر الشارع وعدم اعتدائه على الحدود، وكونه سبباً موصلاً إلى ذلك كان مطلوباً لا محالة، لأنه سبب موصل إلى المقصود فيكون له حكمه. وأيضاً زيارة القبور مطلوبة، أمر النبي ﷺ بها ورغب فيها، وفي زيارة قبره المعظم ﷺ، فقال في الأول: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة وتزهد في الدنيا»، وقال في قبره الشريف: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»، وهو حديث صحيح له طرق متعددة أفردتها الحفاظ بالتأليف، ومنهم التقي السبكي، وكتابه مطبوع متداول.

وكذلك رغب ﷺ في زيارة قبر الوالدين، وزيارة قبر الأصدقاء والسلام عليهم، وذكر الأئمة والأولياء أن لزيارة القبور تأثيراً عظيماً في تنوير الباطن،

(١) رواه مسلم (٢٢٩٢)، وأبو داود (٣٢٣٠)، والنسائي (٢٠٥٦)، وابن ماجه (١٦٣٣).

(٢) أبو داود (٣٢٠٩)، وابن ماجه (١٦٨٤).

لا سيما قبور الأولياء والصالحين، وأن الدعاء عند قبور بعضهم مستجاب، كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في قبر موسى الكاظم ببغداد حررها الله: إنه الترياق المعجرب. وهنا قبور كثيرة في مصر المحروسة مشهورة بذلك، منها قبر السيدة نفيسة، وقبر الإمام الشافعي، وقبر القطب البدوي، وقبر السيدة زينب، وسيدنا الإمام الحسين وغيرهم الكثير.

الريل العاشر:

أن النبي ﷺ وضع على قبر عثمان بن مظعون صخرة عظيمة، وقال: «أعلم بها قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي»^(١) فهذا الحديث تأسيس لوضع العلامة على القبر وتشريع، وإنما وضعها النبي ﷺ لأنها كانت المتيسرة أمامه ساعة الدفن، وكان ﷺ لا يتكلف في شيء، بل يقضي بالموجود في كل شيء من طعام وملبوس ومركوب وغير ذلك، فإن جازت العلامة على القبر لحفظه من الاندراس، فلا فرق في أن تكون بصخرة أو غيرها، كما أنه إذا جازت الصخرة جاز اثنان وثلاثة وأربعة، بحسب ما تدعو الحاجة إلى إثبات العلامة، وكذلك يجوز ربط تلك الأحجار بعضها ببعض بالطين والجير لئلا تتبعثر. والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) أبو داود (٣٢٠٨) عَنْ كَثِيرِ بْنِ زَيْدِ الْمَدَنِيِّ عَنِ الْمُطَّلِبِ قَالَ لَمَّا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ أُخْرِجَ بِجَنَازَتِهِ فَدُفِنَ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا أَنْ يَأْتِيَهُ بِحَجَرٍ فَلَمْ يَسْتَطِعْ حَمَلُهُ فَقَامَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِيهِ قَالَ كَثِيرٌ قَالَ الْمُطَّلِبُ قَالَ الَّذِي يُخْبِرُنِي ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ ذِرَاعَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَسَرَ عَنْهُمَا ثُمَّ حَمَلَهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَأْسِهِ وَقَالَ: «أَتَعْلَمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي وَأُدفِنُ إِلَيْهِ مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي».

نسبة أخيرة والرد عليها:

ما ورد في حديث أبي الهيثاج الأسدي عن علي عليه السلام وكرم الله وجهه ورضي الله عنه أنه قال له: أَبْعَثْكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَدَعُ تَمَثَّالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ^(١).

ولمعرفة معنى هذا الحديث يفهم من وجوه:

أولاً: وهو الصحيح، أنه أراد قبور المشركين التي كانوا يقدسونها في الجاهلية وفي بلاد الكفار التي افتتحها الصحابة رضي الله عنهم، بدليل ذكر التماثيل معها. وإلا فالسنة وعمل الصحابة على خلافه بالنسبة لقبور المسلمين، وقد عُلِمَ أن قبور الشهداء والصحابة كانت مرتفعة، كما في صحيح البخاري عن خارجة بن زيد قال: رأيتني ونحن شبان في زمن عثمان رضي الله عنه أن أشدنا وثبًا الذي يثب قبر عثمان بن مظعون حتى يجاوزه، وقد سبق أن النبي ﷺ إنما وضع عليه صخرة، وكون الشاب لا يستطيع أن يثب عليه إلا أن يكون قويًا شديدًا يدلُّ على عِظَمِ ارتفاعه وتباعده جانبيه، وذلك لا يمكن بالتراب وحده ولا بالصخرة. وروى ابن أبي شيبة في مصنفه بإسناده عن عبد الله بن أبي بكر قال: رأيت قبر عثمان بن مظعون مرتفعًا. فهذا صريح في أنه كان مبنياً بناءً مرتفعاً.

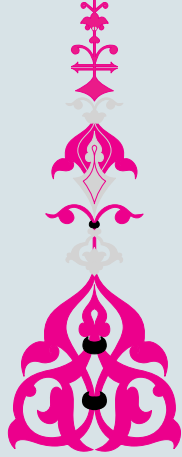
ثانيًا: يمكن أن يُقال في هذا الحديث أنه خبر متروك الظاهر بالاتفاق، لأن الأئمة متفقون على كراهة تسوية القبر، وعلى استحباب رفعه قدر شبر، بل عند الحنفية قول بوجوب ذلك، وعند المالكية باستحباب تسنيم القبر حتى لا يجلس عليه، وعند الشافعية يرفع مسطحًا.

(١) مسلم (٢٢٨٧)، وأحمد (٦٦٨).

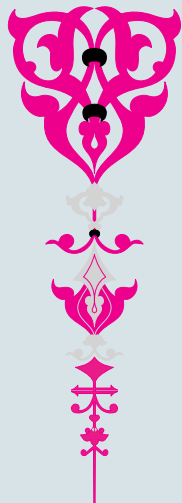
ثالثاً: أنه مخالف للسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ والصحابة بعده من رفع القبور وتسليمها، ولذا فيحتمل إما أن يكون غير ثابت في نفسه أو هو محمول على غير ظاهره ولا بد، كما في الوجه الأول.

وبهذا تعلم خطأ من يتمسك بهذا الحديث وغيره ويذهب إلى وجوب تسوية القبور وهدم ما عليها من البناء والقباب من المتمسكين، كالقرنين الذين فعلوا ذلك بقبور الصحابة والأولياء والصالحين بالمدينة ومكة وغيرهما مما احتلوه من البلاد، وأما أرضهم فلم يجعل الله منها ولياً ولا صالحاً منذ ظهور الإسلام إلى وقتنا، وإنما جعل بها قرن الشيطان وأتباعه خوارج القرن الثالث عشر وما بعده، فليترك الله من يغتر بهم، وينصر مذهبهم الفاسد، ورأيهم الباطل، وضلاله المنصوص عليه من النبي ﷺ، وقال عنهم أنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، وأنهم يقولون من قول خير البرية، وهو ما يتمشدقون به من التوحيد والعمل بالسنة ومحاربة البدعة، وهم والله غرقى في البدع، بل لا بدعة شر من بدعتهم الواصلة بهم إلى المروق من الدين مروق السهم من الرمية، فنسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولهم ولسائر المسلمين أن يجمعنا على كلمة سواء وأن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن أراد الزيادة عليه الاطلاع على كتاب: «إحياء المقبور من أدلة استحباب بناء المساجد والقباب على القبور» تأليف الحافظ أبي الفيض السيد أحمد بن محمد الصديق الغماري رحمه الله تعالى - مطبعة مكتبة القاهرة بالصناديق - ميدان الأزهر الشريف.



قيمة الإنسان في الشرع الشريف



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي كَرَّمَ بني آدم وَسَخَّرَ لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، الذي بعثه الله بالرحمة والمواساة والشفقة والرفق والإحسان، القائل: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».

وبعد،

فإن الإنسان كلما طالع الأخبار في كافة أنحاء العالم خصوصاً في بلاد المسلمين يجد الدماء والجروح والآلام والقتل والمظالم، وصدق رسول الله ﷺ الذي أخبر من بين علامات القيامة الهَرْج، فقليل: وما الهَرْج يا رسول الله؟ قال: «القتل القتل»^(١).

ولو علم المسلم كيف حمى الإسلام الإنسان في نفسه وأعضائه وماله، وحدد لذلك حدوداً وعقوبات وكفارات وزواجر ونواهي، لعلم مدى استهانة حكام المسلمين وبعض الأفراد بهذا الإنسان، وجرأوا الناس على بعضهم البعض، وتجروأواهم وشرطتهم وجنودهم على خلق الله، وإليك أيها القارئ

(١) رواه البخاري (١٠٤٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَتُظْهَرَ الْفِتْنُ وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ». ومسلم (٧٤٣٧)، وأبو داود (٤٢٥٦)، وابن ماجه (٤١٣٨).

العزير نُخبة من أحاديث سيدنا محمد نبي الرحمة ﷺ غير مشهورة على السنة العلماء أو الوعاظ أو خطباء الجمعة، حتى أصبحت غير معلومة، وهي من صحيح الدين، وعدم العلم بها والعمل بمقتضاها من جانب القضاء والفصل بين العباد أدى إلى ما نحن فيه الآن مما سبق الإشارة إليه.

الحديث الأول: عن عقبة بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا إِنَّ قَتِيلَ الْخَطَا قَتِيلَ السَّوْطِ وَالْعَصَا فِيهِ مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ مُغَلَّظَةٌ أَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بَطُونِهَا أَوْ لَا دُهَا»^(١).

فانظر يا أخي -رحمك الله- كيف أن الله تعالى جعل في القتل الخطأ دية، أي تعويض يأخذه ورثة المقتول بالرغم أن الله ﷻ في غير القتل أو الإيذاء لا يؤاخذ بالخطأ؛ لقوله ﷺ «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أَمْتِي عَنِ الْخَطَا وَالنِّسْيَانِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(٢).

وما ذلك إلا لتعظيم حرمة الإنسان، والدية مائة ناقة تكون في القتل العمد أو شبه العمد على القاتل مغلظة (أي أربعون منها في بطونها أولادها للزيادة في قيمتها) وتكون فورية الأداء دفعة واحدة، أي غير مقسطة، وبجانب ذلك عليه صيام شهرين متتابعين توبة من الله كما في آية النساء.

فإذا علمت أن الناقة الحامل سعرها في السوق الآن لا يقل عن خمسة عشر ألف جنيهاً مصرياً، والجمل لا يقل عن اثني عشر ألفاً فتكون دية

(١) النسائي (٤٨١٢)، وابن ماجه (٢٧٢٨).

(٢) ابن ماجه (٢١٢١).

المقتول مليون وثلاثمائة وعشرون ألفاً^(١). فانظر إلى ما يأخذه أولياء المقتول الآن، إن أخذوا مائة ألف أو أقل وليس فوراً بل على التراخي الذي يكاد يأس أهل القتل من الحصول عليه، مع محاولة تهرب القاتل من دفع ما عليه من تعويضات، ظناً منه أنه يفلت من العقوبة في الدنيا متناسياً يوم الحساب، حيث لا ينفع ندم وهذه الدية يأخذها ورثة القتل بنسبة الإرث.

الحديث الثاني: في دية الجنين ليتضح أن الإنسان له قيمة، حتى وهو حَمْلٌ في بطن أمه قبل أن يولد، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأتين من هذيل في زمان رسول الله ﷺ رَمَتِ إحداهما الأخرى بحجر فطرحتا جنينها فقضى فيه رسول الله ﷺ بغرة عبدٍ أو وليدة^(٢).

وقدر العلماء الغرة التي هي عبد أو وليدة أي أمة بنصف عشر الدية حيث لا يوجد رقيق الآن، والدية مائة من الإبل أو ألف دينار أو اثني عشر ألف درهم فضة^(٣)، فيكون نصف عشرها خمس من الإبل أو خمسون ديناراً، والدينار أربعة وربع جرام ذهب عيار واحد وعشرين، فتكون بالذهب اثنان وستون جراماً ونصف من الذهب، فإذا كان جرام الذهب الآن حوالي ثلاثمائة جنيهاً مصرياً فيكون قيمة دية الجنين التي تُعطى لورثته بتقسيم الإرث الشرعي

(١) وهذا الحساب كان بأسعار سنة ٢٠١٢ وما زالت الأسعار في الزيادة.

(٢) البخاري (٦٩٩٦)، ومسلم (٤٤٨٥)، وأبو داود (٤٥٧٨)، والترمذي (١٤٧٢).

(٣) الدية بالفضة كانت في العصر النبوي الشريف عشرة آلاف درهم، وهي تعادل ألف دينار، ثم أثناء خلافة سيدنا عمر بن الخطاب لتغير القيمة صارت اثني عشر ألف درهماً. والدرهم ٢٫٩ جرام فضة، وبسعر الآن الجرام يعادل ستة جنيهات مصرية.

حوالي ثلاثة وستون ألفاً وخمسمائة جنيهاً مصرياً. وبالفضة نصف عشر اثني عشر ألف درهم يساوي (٦٠٠) درهم، تساوي (١٧٤٠) جرام فضة، تساوي بالجنيه المصري تقريباً (١٠٤٤٠) جنيهاً مصرياً.

فانظر بالله عليك كم من إنسان تعدّى على امرأة حامل فأجهضها وأسقط جينيتها، ولم يتكلف حتى مجرد علاجها فضلاً عن أن يُعطي دية جينيتها، فكم أنت غال عند ربك أيها الإنسان، وكم أنت رخيص عند الناس.

الحديث الثالث: في دية الأعضاء السليمة والجروح: قال الإمام النسائي في «سننه» رقم: أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ: حَدَّثَنَا الْحَكَمُ بْنُ مُوسَى قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ كِتَابًا فِيهِ الْفَرَائِضُ وَالسُّنَنُ وَالذِّيَّاتُ وَبَعَثَ بِهِ مَعَ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ فَقَرِئَتْ عَلَى أَهْلِ الْيَمَنِ هَذِهِ نُسخَتُهَا: «مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى شَرَحْبِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ وَنُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ وَالْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ قِيلَ^(١) ذِي رُعَيْنٍ وَمُعَافِرٍ وَهَمْدَانَ أَمَّا بَعْدُ». وَكَانَ فِي كِتَابِهِ: «أَنَّ مَنْ اعْتَبَطَ^(٢) مُؤْمِنًا قَتَلًا عَنْ بَيْنَةٍ فَإِنَّهُ قَوْدٌ^(٣) إِلَّا أَنْ يَرْضَى أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ، وَأَنَّ فِي النَّفْسِ الدِّيَّةَ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَفِي الْأَنْفِ إِذَا أَوْعِبَ جَدْعُهُ^(٤) الدِّيَّةُ، وَفِي اللِّسَانِ الدِّيَّةُ، وَفِي الشَّفَتَيْنِ الدِّيَّةُ، وَفِي الْبَيْضَتَيْنِ

(١) قِيلَ: أي حاكم عند أهل اليمن جمعها وهم أصحاب الكلمة والقول من الحكام.

(٢) اعتبط: أي قتل إنسان سليم بلا علة تؤدي إلى قتله.

(٣) قود: أي: قصاص.

(٤) أوعب جدعه: أي استوعبه قطعاً.

الدِّيةُ، وَفِي الذَّكَرِ الدِّيةُ، وَفِي الصُّلْبِ^(١) الدِّيةُ، وَفِي الْعَيْنَيْنِ الدِّيةُ، وَفِي الرَّجْلِ
الْوَحِدَةِ نِصْفُ الدِّيةِ، وَفِي الْمَأْمُومَةِ^(٢) ثُلُثُ الدِّيةِ، وَفِي الْجَائِفَةِ^(٣) ثُلُثُ الدِّيةِ،
وَفِي الْمُنْقَلَةِ^(٤) خَمْسَ عَشْرَةَ مِنَ الْإِبِلِ، وَفِي كُلِّ أَصْبَعٍ مِنْ أَصَابِعِ الْيَدِ وَالرَّجْلِ
عَشْرٌ مِنَ الْإِبِلِ، وَفِي السِّنِّ خَمْسٌ مِنَ الْإِبِلِ^(٥)، وَفِي الْمَوْضِحَةِ^(٦) خَمْسٌ مِنَ
الْإِبِلِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ، وَعَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ أَلْفُ دِينَارٍ^(٧)»^(٨).

فانظر وتدبر رحمك الله كيف حفظ وحافظ الشرع الشريف على الإنسان
من تعدي أخيه الإنسان سواء عمداً أو خطأ، ففي محض الخطأ الدية تكون
على عاقلة القاتل أي أقاربه من جهة الأب، كالأخوة الذكور والأب والجد
والأعمام وأبنائهم وتكون مقسطة على ثلاث سنوات. أما في العمد فتكون
على الجاني ومغلظة كما سبق بيان ذلك، وتكون فورية وعلى دفعة واحدة.
ومن القتل الخطأ الآن حوادث السيارات وما ينبت عليها من إزهاق الأرواح
أو العاهات والإصابات. ومن حكمة الشرع الشريف جعل الدية في الخطأ
على أقارب القاتل (العاقلة) لتمنع كل عائلة وأسرة أفرادها من الاستخفاف

(١) الصلب: العمود الفقري.

(٢) المأمومة: ضربة في الرأس تصل لغلاف المخ، أي الأم الجافية.

(٣) الجائفة: ضربة نافذة تصل لتجويف بطن أو صدر.

(٤) المنقطة: ضربة تنقل العظمة عن مكانها أو تكسرها وترجزها أو تخلع المفصل.

(٥) الأسنان سواء خمساً خمساً.

(٦) الموضحة: جرح يرفع الجلد واللحم فيظهر العظم.

(٧) أي لو لم يملك الإبل.

(٨) النسائي (٤٨٧٠).

بأرواح الناس، وفي هذا قَمْعٌ للأشرار والبلطجية بواسطة أهلهم بجانب دور الحكومة في زجرهم وعقوبتهم.

فإذا تعدى إنسان عمداً أو خطأ على عضو إنسان وكان هذا العضو غير سليم من حيث الوظيفة كعين لا يبصر بها، أو يد مشلولة، أو سن سوداء، أي بها سوس فجعل الشارع لها قيمة؛ لأنها تؤدي وظيفة جمالية لوجودها في مكانها، وإن كان لا يستعملها الإنسان، فجعل فيها ثلث ديتها.

الحديث الرابع الذي تناول هذه الحالات: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي الْعَيْنِ الْعَوْرَاءِ السَّادَّةِ لِمَكَانِهَا إِذَا طُمِسَتْ بِثُلْثِ دِيَّتِهَا، وَفِي الْيَدِ الشَّلَاءِ إِذَا قُطِعَتْ بِثُلْثِ دِيَّتِهَا، وَفِي السِّنِّ السَّوْدَاءِ إِذَا نُزِعَتْ بِثُلْثِ دِيَّتِهَا^(١).

ومن الحديث السابق يتضح أن العضو في الإنسان الذي ليس له مثل آخر كالأنف واللسان والصلب والذكر في قطعه دية كاملة، والعضو الذي له مثل آخر كاليد والرجل والعين والأذن يكون في قطعه نصف دية، فإن كان العضو غير عامل يكون في قطعه ثلث دية العضو السليم.

وإليك بيان دية الجروح والأعضاء المختلفة بالإبل والذهب وما يقابله بالجنيه المصري طبقاً لأسعار هذه الأيام ونحن في جمادى الأولى سنة ١٤٣٣ هـ الموافق أبريل ٢٠١٢ م.

(١) رواه النسائي (٤٨٥٥)، وأبو داود في الديات.

١- قتل النفس: مائة ناقة أو (١٠٠٠) دينار ذهب أو (١٢٠٠٠) درهم فضة المصري (١١٤٧٥٠٠).	= ٤٢٥٠ جرام ذهب عيار ٢١ = بالجنيه المصري (٢٠٨٨٠٠) جنيهاً مصرياً ^(١) .
٢- الأنف واللسان والذكر	= دية كاملة.
٣- العين واليد والرجل	= نصف دية في كل واحدة منها.
٤- الأصبع سواء من اليد أو الرجل	= ١٠ من الإبل أو ١٠٠ دينار ذهب أو ١٢٠٠ درهم فضة. = ٤٢٥ جرام ذهب = ١١٤٧٥٠ جنيهاً مصرياً. أو ٣٤٨٠ جرام فضة = ٢٠٨٨٠ جنيهاً مصرياً.
٥- السنّة الواحدة في كسرهما أو نزعها	= خمس من الإبل = ٥٠ ديناراً من الذهب = ٢١٢,٥ جرام ذهب = ٥٧٣٥٧ جنيهاً مصرياً. = ٦٠٠ درهم فضة = ١٧٤٠ جرام = ١٠٤٤٠ جنيهاً مصرياً
٦- الجرح الذي يكشف العظم (الموضحة)	= كالسنّة.
٧- الجرح النافذ لتجويف بطن أو صدر (الجائفة)	= ثلث الدية بالذهب تعادل (٣٨٢٥٠٠) جنيهاً مصرياً. بالفضة تعادل (٦٩٦٠٠) جنيهاً مصرياً.

(١) تم الحساب على اعتبار أن جرام الذهب بسعر الآن (٢٧٠) جنيه مصري، وجرام الفضة (٦) ستة جنيهات.

٨- الجرح على الرأس الذي يصل لغلاف المخ (المأومة)	= ثلث الدية.
٩- الجرح الذي كسر عظمة ونقلها عن موضعها (المنقلة)	= خمس عشر من الإبل. = ١٥٠ ديناراً ذهب = ٦٣٧,٥ جرام ذهب = (١٧٢١٢٥) جنيهاً مصرياً = ١٨٠٠ درهم فضة أو ٥٢٢٠ جرام فضة = (٣١٣٢٠) جنيهاً مصرياً.
١٠- الجنين فيه نصف عشر الدية	أي خمس من الإبل. أي مثل دية السنة.

تنبيه: بعد مراجعة فضيلة المفتي الأستاذ الدكتور/ علي جمعة حفظه الله،
نصح بحسابها بالفضة تيسيراً على الناس لتبرئة ذمتهم نظراً للتفاوت الكبير
بين قيمتها بالذهب وقيمتها بالفضة في هذا العصر.

واقترح أن تكون بالذهب في حالة قتل العمد أو شبه العمد؛ تغليظاً على
القاتل، وأن تكون بالفضة في حالة قتل الخطأ تخفيفاً على القاتل.

فإذا تأملت هذه المقادير المشروعة على لسان نبينا ﷺ وقارنتها بما
يتم تقديره ودفعه كتعويضات بالقوانين الوضعية الآن تستطيع أن تدرك سبب
استهانة الإنسان بأخيه الإنسان، وكذا مدى ظلم الحكام للمسلمين وللإنسان
عموماً في زمن يدعي فيه أهله كذباً وبهتاناً حقوق الإنسان والمطالبة بها، مع
العلم بأن هذا ليس لحرمة المسلم فقط كما يظن ظان ولكن غير المسلمين

كالمعاهد^(١) والذمي^(٢) والمستأمن^(٣) له نفس هذه القيمة عند التعدي عليه.

الحديث الخامس: عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدَةً بِغَيْرِ حِلِّهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَشْمَّ رِيحَهَا»^(٤) مع العلم بأن ريح الجنة ليوجد من مسيرة سبعين عامًا.

فأين نحن من هذه الأحكام الشرعية التي تُعيد الأمن والأمان لمجتمعنا وللناس أجمعين، ونرضي بها ربنا ونسير بها على شرع نبينا ﷺ.

ثم كلمة أخيرة لمن يتجرأ على الإنسان فيمارس الطب ويصف الأدوية، أو يجري جراحات دون أن يعرف منه أنه من أهل هذه المهنة وتدريب التدريب الكافي الذي يشهد له به أهل مهنته، فإنه يضمن إذا أهلك النفس أو أتلّف عضوًا بنفس القيمة الموضحة فيما سبق.

وإليك هذا الحديث الشريف الأخير في هذه المقالة عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ»^(٥)، أما من يمارس الطب ومشهود له بالكفاءة والخبرة فلا يضمن.

(١) المعاهد: هو من يعيش من غير المسلمين في بلده وبين دولته وبين دولة المسلمين معاهدات.

(٢) الذمي: هو من يعيش في بلاد المسلمين من غير المسلمين ويدفع جزية مقابل الدفاع عنه وحمايته

(٣) المستأمن: هو من يمر في بلاد المسلمين بتأشيرة مرور كالسائح والتاجر وهو غير مسلم.

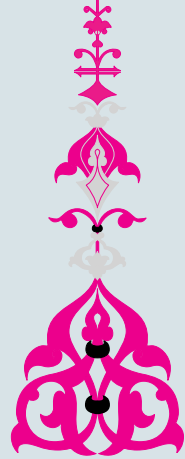
(٤) الترمذي (١٤٦٤)، والنسائي (٤٧٦٥).

(٥) رواه الإمام النسائي (٤٨٤٧).

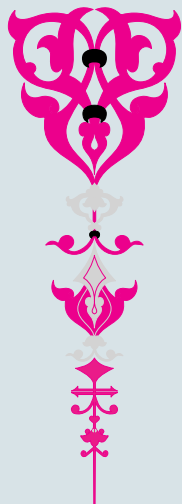
واعلم يا أخي المسلم أن أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة في الأوامر هي الصلاة، وفي المنهيات الدماء، عافانا الله وسلّمنا وإياك والمسلمين من كل سوء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٩



موقف العقل والهوى من الحق



موقف العقل والهوى من الحق^(١)

معنى الناس تأنهون عن الحق بالعقل وتأنهون عن الأثرة بالهوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، حمدا طيبيا مباركا فيه، ملئ السموات وملئ الأرض وملئ ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قاله العبد وكلنا لك عبد.

اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، أشهد أن لا إله إلا الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، يدبر الأمر، يخلق ما يشاء بقدرته، يفعل ما يريد بعزته، إن الحكم إلا لله، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، لا يحيطون به علما وهو بكل شيء محيط، قاهر فوق عباده، لطيف بعباده، ودود رحيم غفور، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه، أמן يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

وأشهدا أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وشفيع المذنبين، الذي شرح الله له صدره، ورفع ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعل طاعته من طاعته، اللهم ارزقنا تمام محبته، واتباع سنته، والتأدب بآداب شريعته،

(١) هذه الرسالة هي خطبة جمعة في مسجد الأشراف بالمقطم في أول جمعة من شهر جمادى الأولى

والتمسك بأذيال آله وعترته، واحشرنا في زمرة، واجعلنا في الرعيال الاول من أهل شفاعته، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله الكرام وصحابته الأبرار، ونخص من بينهم الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ساداتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين، وأمهما فاطمة الزهراء البتول، وما ولدت إلى يوم الدين، وتابعيهم ومحبيهم إلى يوم الدين، ولا تفتنا بعدهم، ولا تحرمنا أجرهم، واغفر لنا ولهم، وألحقنا بهم على خير حال غير خزايا ولا مفتونين.

أما بعد،

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾
[النساء: ١].

عباد الله:

اعلموا أن الناس تائهون عن الحق بالهوى، وتائهون عن الآخرة بالهوى، فالعقل نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على الإنسان إذا استخدمه فيما خلق له، أما إذا استخدمه بطريقة خاطئة وبمقدمات خاطئة مع وجود الهوى في نفسك، فهيئات أن تصل إلى الحق. فالعقل نعمة كبيرة جعله الله مناطا للتكليف. وكل نعمة إذا أسيء استخدامها كانت سببا للعذاب وموردا للوبال، والعقل أداة الفهم والإدراك، والفهم والإدراك لا بد أن يكونا خاليين عن الهوى المسبق الموافق للشهوة والرغبة لتحقيق غرض من أمور الدنيا. والهوى ينشأ عن وجود شهوة خفية تريد أن تحققها في دنيا عاجلة، كشهوة

المال، فترى العقل يريد أن يحققها حتى من الحرام، وشهوة الرياسة، فتجده يتملق ويرتشي ويرشو ويفعل ما يشاء حتى يصل للمنصب، وشهوة النساء فيقع في الزنا، وشهوة الشهرة فيفعل كل غريب ليشتهر، ولو كان غير موافقا لفطرة الإنسان فقد يتعري، وقد يتقصع وقد يتكلم بطريقة غريبة ليلفت الانتباه حتى يشتهر، وكل ذلك شهوات دنية ودوافعها غريزة في النفس.

والنفس: هي التي تولدت من التقاء الروح بالجسد، والروح نقية بطبعها دراية في أصلها تهفوا إلى معالي الأمور.

والروح: سر من أسرار الله عز وجل، جعله في الإنسان، فميزه به عن سائر خلقه. والروح هي سر إسجاد الملائكة لسيدنا آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى نفخ فيه من روحه، فهذه الروح عارفة ودراية مدركة للحقائق.

وبعد تعلقها بالجسد الحسي الترابي، وبعد أن تزوجت معه تولدت النفس، فالنفس محلها القلب، وهذه النفس لها عيان عيني تنظر إلى حقيقتها، فتطلب معالي الأمور وتكره سفاسفها، وعين تنظر إلى الجسد الحيواني الذي له شهوات ورغبات عاجلة لتحصيل اللذات، وهذا الجسد يريد أن يعود إلى أصله من الأرض فكل شهواته أرضية، والروح رغباتها طاهرة عالية وتريد تحصيل السعادة الأبدية، فتصير هذه النفس حائرة بين هذا وذاك، فإذا مالت النفس للطبع الحيواني مالت بالهوى لتحصيل لذة عاجلة، وإذا مالت النفس للطبع الروحاني تنقت وترقت وحصلت سعادة وراحة دائمة.

فالهوى منبعه ومنشأه نظر النفس لحيوانية الإنسان، فالإنسان عجول هلوع جزوع ممنوع يحب المال ويحب الشهرة، ويحب الانتصار والانتقام

والتشفي، ويحب التميز والإعلان عن نفسه. وهذه الأشياء التي يحبها هي من الهوى الذي يمنعه من العمل للأخرة حيث الدوام والبقاء. فالهوى عجل يطلب اللذة العاجلة، والروح تطلب السعادة الأبدية.

وهناك فرق بين اللذة والسعادة؛ فاللذة لحظية ويعقبها فتور، وإذا استغرقت فيها تملها وتأتي بالكآبة، وهذه حالة كل من سار خلف شهواته فينتهي به الأمر إلى الكآبة، فيقاوم هذه الكآبة بالوقوع في شرب الدخان، والخمر، فيقع في الإدمان لينسى كآبته لأنها لذة وقتية.

أما السعادة فيعقبها نشاط، وإقبال على معالي الأمور، وراحة ورضى، وعدم النظر إلى الأمور العاجلة، بل ينظر للأمور الآجلة، وإلى الحكمة من وراء المظاهر.

إذن: إذا التقت الروح بالجسد تولدت النفس فأين العقل؟

والعقل: هو الميزان الذي خلقه الله تعالى للإنسان؛ ليزن بين مرادات النفس الدنية، وبين تحقيق رغائب الروح العلية، فجعله قاضياً، ينظر ويرجح ويدرك به مآلات الأمور في المستقبل، فيمنعه ويكفه إن كان العمل يؤدي إلى خسران، أو يدفعه للعمل إن كان يؤدي إلى فائدة.

فالعقل هو الميزان الذي يزن الأمور بين النفس التي تريد أن تحقق المعالي بجهتها الروحية أو تحقق اللذات بجهتها الحيوانية، فيكون العقل كالقاضي بينهما في هذا النزاع، فيرجح فعل واحد من اختيارات متعددة.

ولمّا كان العقل هو القاضي كان مناط التكليف؛ لأن التكليف هو إقبال وإحجام، أقبال على الطاعات، وإحجام عن المعاصي. وهذا الإحجام لا بد

فيه من العقل، والعقل عقال، والعقال يمنع الدابة من التحرك بفوضى، بل تتحرك بإرادة صاحبها، فلو لا العقال واللجام لسارت في كل وادٍ بلا ضابط هائمة على وجهها.

والنبي صلى الله عليه وسلم شبه النفس بالدابة الحرون، وأمرنا صلى الله عليه وسلم أن لا نرهقها إرهاقا زائدا فنقتلها، وأن لا نطيعها طاعة عمياء فتقودنا للمهلك، فيقول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بَرَفَقٍ»^(١) وقوله ﷺ «لَنْ يَشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَإِنَّ الْمُنْبِتَ لَا سَفْرًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»^(٢) وإن كان هذا الحديث من أقسام الضعيف إلا أنه صحيح المعنى يوافق قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الدِّينَ يَسِرُ، وَلَنْ يَشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدَدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشَرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرُّوحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلِجَةِ»^(٣).

وللعقل آفة: فإذا نظر إلى الحق من خلال منظار هواه وشهوته لم يره حق، بل ينقلب إلى ضلال، ولذا قلنا أن الناس تائهون عن الحق بالعقل؛ لأنه نظر إلى الحق بمنظار الهوى.

(١) أحمد (١٣٢٥٢).

(٢) شعب الإيمان للإمام البيهقي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وتمام الحديث: «فاعمل عمل امرئ تظن أن لن يموت أبدا، واحذر حذرا تخشى أن تموت غدا» ج ٥ برقم ٣٦٠٣، ورواه البيهقي في السنن الكبرى من رواية جابر بن عبد الله بزيادة: «فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضا قطع». ج ٣ برقم ٤٧٤٣.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة، باب: الدين يسر، ج ١ برقم ٣٩.

فلا بد عند بحثك عن الحق، أن تتخلى من الآراء المسبقة، والهوى الشهواني، وتحقيق الرغبات الفانية، فإذا تبرأت من الهوى رأيت الحق ظاهراً، ولو نظرت إلى الحق من خلال منظار الهوى وجدته على غير لونه. وكأنك تلبس منظاراً أسوداً فترى الأشياء كلها مغطاة بالسواد، أو منظاراً أخضرًا ترى الأشياء كلها خضراء وهكذا، أو ولذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، أي ومن أضل ممن اتبع هواه أي انساق خلف رغباته العاجلة التي بذل العقل جهداً لتحقيقها، ولا يبذل جهداً للوصول إلى الحق، فصار العقل مكبلاً لتحقيق هذه الرغبات، فصار عقلاً دنيئاً وصار عابداً لهواه ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

والله تعالى لا يهدي من اختار الضلالة، فالله تعالى يريد الهداية لكل العباد، ولكن من اختار الضلالة فإن الله لا يهدي من يضل، وإن الله لا يهدي من يضل، قراءتان من يضل بالفتح اختار الهوى، ومن يضل بضم الياء أي أضله الله؛ لأنه اختار الهوى أو يضل غيره، فالقراءتان تفيدان معنيين، والمعنيان يتعاضدان لبيان الحق.

والله عَزَّ وَجَلَّ يوفق الإنسان لما اختاره ويسأله عن اختياره، وهذه هي الأمانة التي عرضها الله سبحانه على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فإن اختار الضلالة أمدّه بالغواية، وإن اختار الهداية أمدّه بالتوفيق.

ولذا عليك أيها الإنسان عند بحثك عن الحق أن يكون لك هادي فوق عقلك لتتبرأ من الهوى، ولذا تبين الآية الكريمة وصف الذي أضل ممن اتبع هواه أي عقله المكبل بشهواته، فمن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله أي الوحي؛ ونقصد بالوحي الكتاب والسنة.

فلا بد أن يجعل العقل الوحي سقفا له ومرجعا يرجع إليه، ولا يجعل الإنسان عقله سقفا يحكم به على الوحي. فكثير ممن جعل عقله سقفا يحكم به على الوحي أضله الله بالوحي، وأضله الله بالقرآن، وأضله الله بالحديث النبوي؛ لأنه جعل عقله ميزانا يزن به الوحي لا ليدرك به الوحي، فصار عقله قاضيا على الوحي لا قاضيا بين هواه وبين روجه ليتخير الهداية، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

ولذا عليك أيها المسلم أن تجعل عقلك سقفا لاختياراتك، وتجعل الوحي سقفا لعقلك، فتختار على مقتضى الوحي ولا تختار على مقتضى الطبع والهوى؛ لأن الطبع مغلف بالهوى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والآيات القرآنية تكلم الإنسان عن هذه الحقائق دون أن يتعظ وينقاد قال

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، أي لا تقدموا عقولكم ولا آراءكم ولا شهواتكم ولا رغباتكم على حكم الله ورسوله ﷺ، فكونوا على مراد الله ونهج رسوله ﷺ، واجعلوا دين الله ورسوله فوق كل فوق، واجعل غاية عقلك إدراك ما أَرَادَهُ الوحي منك حتى تدرك الوحي، فإذا أردت أن تذهب إلى الوحي بعقلك منفردا قد تضل؛ لأن العقل يدرك من خلال مقدمات، فإن كانت المقدمات غير مرتبة وغير كاملة ستكون النتائج التي يصل إليها العقل، خطأ لذلك قالوا: إدراك الحق بالعلم؛ والعلم يكون بالتعلم؛ والتعلم تلميذ وشيخ ومنهج، فلا بد أن تتعلم من غيرك، لأن غيرك ينقل إليك العلم من خلال ما أجمعت عليه عقول العقلاء، فالعقل قد يضل عن بعض المقدمات لكن عقول العقلاء على مر العصور حصل بينهم مراجعات ومناقشات، فاتفقوا وأجمعوا على أمور، وهذا الإجماع دليله قطعي، أي أجمعت العقول عليه، ومخالفة الإجماع لا يكون الا بالهوى، فإذا نظر الإنسان إلى المسألة بهواه، وأدركها بعقله المكبل بالهوى فقد يخالف ما أجمع عليه العقلاء، ولذا جعل علماء الشرع الشريف وعلماء الأصول الإجماع من أدلة الشرع، والنبى ﷺ يقول «إِنَّ أُمَّتِي لَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى ضَلَالَةٍ فَإِذَا رَأَيْتُمْ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ»^(١)، فإذا خالف عالم الإجماع احذره ولو كان معسول الكلام، أو كان من أصحاب الشهادات العليا؛ لأنه نظر للحق بمنظار هواه فأدركه على غير مراد الحق ﷻ.

وكثيرٌ من الناس يطعنون في السنة وفي صحيح البخاري وقد أجمعت الامة على صحته، فيأتي ببعض النصوص التي لا يدركها بعقله المريض؛ لأنه اعتمد على عقله في قراءة النص ولم يعتمد على التلقي من العلماء الذين حملوا إليه عقول الأمة، فيعترض بعقله فيتوه عن الحق، فهل فهمت الجملة التي بدأنا بها الخطبة؟ الناس تائهون عن الحق بالعقل، إن انفرد العقل في البحث، ولكن لو تعاون عقله مع عقول العقلاء، وعالج الهوى الذي يقيد العقل بسبب الطبع والشهوات من خلال تمحيص آراء العلماء، فتكون المقدمات صحيحة فيصل إلى الحق إلا وقع في الضلال.

فمزية العقل السليم عن الهوى أنه يثمر العلم والإدراك، والعلم عند المسلمين غير العلم عند الحضارة الغربية، فالعلم عند المسلمين إدراك الغائب بالنظر في المحسوس، وهذا هو العلم الحقيقي، لذلك علم الرياضيات يأتيك بمعادلات وفيها مجهول والمجهول غائب، ومن خلال مقدمات المعادلة تصل إلى معرفة المجهول، وهذه تدريبات عقلية، ولذلك قالوا علم الرياضيات يوصلك للحق، فإذا تدرب عقلك على الرياضيات وكيف تخرج المجهول من خلال المقدمات التي أمامك بشرط أن تكون وسيلتك للوصول للمجهول وسيلة صحيحة كمعرفتك للعمليات الأولية من جمع وضرب وقسمة والمسائل الأولية في علم الرياضيات وإلا كيف لمن لم يحفظ جدول الضرب أن يستنتج المجهول؟ أو لا يعرف القسمة أو الكسور أو يجبر الكسر كيف سيصل إلى المجهول؟!!! مستحيل. فلا بد أن تكون

المقدمات صحيحة، فالعقل يبحث في الحاضر ليصل إلى الغائب، أما من يبحث في الحاضر ليصل إلى شيء حاضر، فهذا معلومات تجريبية كما في الكيمياء وغيرها، وهذا يسمى علم تجريبي، والحضارة الغربية كلها قامت على التجارب والعلم المحسوس، فلذلك هي حضارة مدنية أو تقدم مدني، وهو يغير وسائل الحياة وطريقة المعيشة، ولكن لا يغير في داخلك شيء، أما حضارة المسلمين فقامت على إدراك الغيب، والله ﷻ غيب الغيوب، ولذلك تاهت الحضارة الغربية عن الوصول إلى غيب الغيوب. أما الحضارة الإسلامية كان مقصودها تحقيق مراد غيب الغيوب من الخلق، لماذا خلقتني؟ ولماذا يميتني؟ وماذا بعد الموت؟، وماذا يريد مني؟ فالله ﷻ هو الذي خلقتني لأعبده وأحقق العمارة في الأرض والصلاح، وبعد الموت البعث والنشور والحساب جنة أو نار، وهذه الحقائق لا تصل إليها بالعلم التجريبي؛ لأنها علوم نظرية تُعلم بالنظر في الحاضر لتثبت الغائب غير المحسوس، وجاءت الآيات بمقدمات لتبين أن العقل عليه أن يدرك الغائب من عالم الحس والدنيا، فنحن لم نر البعث والنشور بعد؛ لأننا لم نمت، فالبعث والنشور بالنسبة إلينا غيب، وأراد الله ﷻ أن يدلنا بطريقة عقلية على الغيب من خلال الآيات القرآنية، ويلفت انتباهنا بأن نقدم مقدمات محسوسة لنستنتج منها شيء غائب فقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ وَنُنَفِّسَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ

وَمِنْكُمْ مَّنْ يَنْوَفُّ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿٥﴾ [الحج: ٥]، وهذه مقدمتان، أنظر لنفسك أولاً كيف نشأت من بذرة صغيرة في رحم أمك، فمن الذي سواك بهذه الصورة وأخرجك على هذه الهيئة؟ فأنت لم تدع أنك سويت نفسك، فلا بد أن يكون هناك من سواك، فهذه مقدمة أولاً حتى يدلك على من سواك ولم تره، ثم مقدمة أخرى أنت تراها وتدرکہا وهي ليست فيك بل في خارجك فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥ - ٦]، يعني الذي فعل ذلك، وأحيا الأرض أمامك من بذور غاصت في التربة فنبتت ظاهرة أمامك، فهو ﷻ الذي جعلك بذرة في رحم الأم، فالأم هي التربة التي نشأت فيها كالشجرة التي نبتت في تربة الأرض، فكما أنشأ الأشجار أمامك ثم يميئها فينزل المطر ليعيد إنباتها مرة أخرى، فكذلك أنت أيها الإنسان كنت بذرة في بطن أمك فأخرجك قويا وجعل لك إرادة، فهو سبحانه قادر على أن يحولك إلى بذرة مرة أخرى بعد موتك فيفنى كل شيء فيك إلا عجب الذنب، وعجب الذنب هو الذي ينبت منه جسم الإنسان للبعث والنشور، فإذا أراد الله ﷻ بعث الإنسان تمطر السماء مطرا لزجا ينزل على الأرض فينبت لحم الإنسان من عجب الذنب الذي لا تأكله الأرض من أي أنسان، فكما ترى هذه المقدمات في نفسك وفي عالم النبات فتستنتج بها فعل الفاعل الغائب عنك حسا ولذلك قال ﷻ: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ [الحج: ٥ - ٦]، فالذي أحيا الأرض أمامك، وأحياك من بذرة صغيرة في رحم الأم قادر على إحيائك كما يحيي الأرض أمامك في كل موسم زراعي، فتنب الأرض بعد ان كانت ميتة فتصير مخضرة، وهذه مقدمات عقلية يراها كل عاقل، فاذا نظر إلى هذه المقدمات أدرك الفاعل المختار، فإذا كانت المقدمات صحيحة سيكون الاستنتاج صحيح والله تعالى.

لذلك حرص العلماء في الأزهر الشريف على تعليم الطلبة علم المنطق، وفائدة علم المنطق: ضبط العقل، كما أن فائدة النحو ضبط اللسان، فالنحو يضبط لسانك فتعرف ما هو المرفوع وما هو المنصوب وما هو المجرور، وعلم المعاني يضبط معنى الالفاظ المتركة من الجمل، وعلم البيان يحسن طريقة إدراكك وتعبيرك عما تريد بطريقة بيانية لطيفة، وعلم البلاغة كيف توضح المعنى فتبلغه لعقل من يسمعك، فهذه علوم متعلقة بالنص، ثم لإدراك ما وراء النص يأتي علم المنطق حتى يرتب عقلك ويعلمك كيف ترتب المقدمات للوصول إلى النتائج، فالمنطق يضبط العقل فيخلصه من الهوى، فيضبط المعادلة أولا ثم يأتي بعد ذلك من خلال تلك المقدمات في المعادلة من النوع الأول والثاني والثالث على حسب صعوبة المسألة التي يفكر فيها ليدرك المجهول، وهذه عمليات عقلية فلذلك كان العقل أداة لفهم الوحي.

فأهل السنة والجماعة جعلوا الوحي فوق العقل ليستسلم للوحي، فما أدركه منه يفعله وما لم يدركه منه يسجد لله طائعا مستسلما؛ لأنه يعلم أن

عقله ليس قادرا على إدراك كل شيء. فتأتي بعض التكاليف الشرعية وتكون مجهولة الحكمة، ليختبر عقلك، فهل يكون فوق الشرع فينكرها أو يطيع دون أن يعلم الحكمة؛ لأنك لو اطعت بعد إدراكك للحكمة كنت عبدا للحكمة ولست عبدا للحكيم، وهو يريدك أن تكون عبدا للحكيم وليس عبدا للحكمة، فأخفى الحكمة في بعض الأوامر وأمرك بها لتتقاد، فمثلا فرض عليك صلاة الظهر أربع ركعات والصبح ركعتين، والعقل لا يستطيع أن يصل الحكمة فيها وعليه أن ينصاع؛ لأن النبي ﷺ قال «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»^(١) وقال ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»^(٢) ويقول ﷺ «**إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَوْ لَا هُنَّ بِالتَّرَابِ**»^(٣)، لماذا سبعا؟ ولماذا التراب؟ وهل التراب ينظف؟ فأنا أغسل من التراب فكيف أنظف بما أغسل منه؟ أشياء غير معقولة عقلا، لا تفهمها لكن نفذ ولا تنكر، وكقوله ﷺ «**لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ**»^(٤) فيأتي العقل ويقول: لماذا فالكلب جميل ووفي؟ وبهذا يريد الاستدلال على أن الشرع ليس لديه حكمة في منعه للكلاب أن تعيش مع أصحابها، حتى يشكك في حكمة الشرع، فعليك أن تعلم أن أوامر الشرع الشريف ليست كلها معلومة الحكمة، ولهذا يعبر عنه الفقهاء بقولهم وهذا الأمر تعبدى، أي غير معلوم الحكمة، لأنهم جعلوا الشرع فوق العقل ولم يجعلوا عقلهم يحكم على الشرع فينكره.

(١) الدارقطني (١٠٨٦).

(٢) البيهقي في السنن الكبرى (٩٥٢٤).

(٣) مسلم (٦٦٧).

(٤) البخاري (٣٣٥٧).

ومدرسة المعتزلة خالفوا أهل السنة فجعلوا العقل يحكم على الشرع، فما أدركه بالعقل كان مشروعاً وما لم يدركه بالعقل كان منكراً، فابتعدوا عن أهل الحق. ولذا انكر المعتزلة مثلاً رؤية الله ﷻ في الآخرة بالرغم من ورودها في القرآن والسنة، فالله تعالى يقول: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٣) [القيامة: ٢٢ - ٢٣] وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والزيادة هي رؤية الله ﷻ في الجنة، أما في السنة عَنْ قَيْسٍ عَنْ جَرِيرٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤُوسِهِ»^(١) أي لا تتزاحمون ويضم بعضكم بعضاً حتى ترونه، أو لا يحصل لك ضرر بسبب الزحام كي تراه. إذن ثبتت الرؤية في القرآن الكريم والسنة النبوية، والمعتزلة يحفظون القرآن ويفهمون اللغة أكثر من فهمنا لها، فهم علماء في البلاغة والنحو، بل وأغلب كتب النحو والبلاغة من تصنيفهم كالزمخشري وأبو علي الفارسي وغيرهما وهم من كبار علماء المعتزلة، وهم من وضحو الإعجاز اللغوي في القرآن، فكيف ضلوا عن الحق؟ لأنهم جعلوا العقل فوق الشرع فأولوا هذه الآيات، وقالوا الرؤية لا تكون إلا من جهة وتحتاج إلى شعاع نور ينتقل من المرئي إلى الرائي، والرؤية فيها إدراك والله تعالى لا في جهة ولا يفتقر لشعاع ولا يدرك فالرؤية ممنوعة، فأنكروا الرؤية لمقدمات عقلية على قدر عقولهم، وكأنهم حصروا الرؤية بهذه الهيئة التي يرونها في حال اليقظة، والله قهرهم في المنام ليبين لهم أن هناك رؤية من نوع آخر دون إدراك ودون إحاطة وشعاع

(١) البخاري (٥٥٣)، ومسلم (١٤٦٦)، أبو داود (٤٧٣١)، الترمذي (٢٧٤٨)، ابن ماجه (١٨٢).

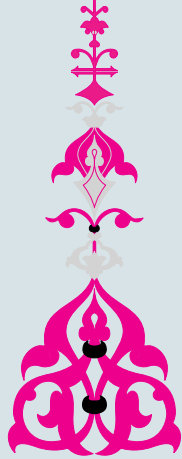
نور، فالإنسان فسي حالة النوم يغمض عينيه فيرى من غير ضوء وترى من غير آلة العين وينتقل في المنام بلا حركة.

إذن: يا أيها المعتزلي هناك رؤية غير الرؤية التي تعرفها في اليقظة، فقد نرى الله بطريقة أخرى لا تحتاج لضوء ولا إحاطة فيها ولا إدراك كرؤيتك في المنام، فالله خلق المنام لتدرك أن هناك طرق أخرى للرؤية غير الرؤية البصرية، فلما جعل أهل السنة المقدمات صحيحة وصلوا إلى أن الرؤية صحيحة، ولما جعل المعتزلة المقدمات ناقصة وصلوا إلى نتيجة ناقصة.

ثم يستعملون إدراكهم الكبير في اللغة فيفسروا الآيات على غير مراد الآية، فيؤولوا قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٢) [القيامة: ٢٢-٢٣]، أي منتظرة، فأولها المعتزلي على وفق مراده لا على وفق الحق، ولذلك أقول لك أيها المسلم «الناس تائهون عن الحق بالعقل» والمثال مدرسة المعتزلة «والناس تائهون عن الآخرة بالهوى» لأنك حتى وإن أدركت الحق بالعقل وعلمت مراد الله منك فأحياناً يغلبك الهوى فتعصيه. ومثاله أن الإنسان المسلم يعلم أن السرقة حرام وقد يسرق وهو يعلم أنها حرام، فهذا أدركها بعقله لكن لماذا يسرق؟! لأن هواه يريد تحصيل المال، فمن كان هواه جمع المال عمل بعكس ما علم، وكل المسلمين يعلمون أن الزنا حرام، ولا يقبله المسلم في أهله ولا في بناته ولا في زوجته، فلماذا هناك بعض المسلمين يرتكب الزنا؟ لأنه نظر إلى هذه الشهوة بهواه ويريد أن يحصلها بأي طريقة كانت، فهواه منعه أن يعمل بمقتضى ما يعلم.

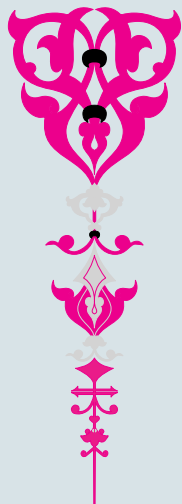
إذن: الهوى مانع من العمل، وهذا من جهة العمل، والهوى أيضا مانع من العلم الصحيح، لذلك عليك أن تعلم «أن الناس تائهون عن الحق بالعقل وتائهون عن الآخرة بالهوى» فخالفهم في هذا وكن خلف من كان معصوما عن الهوى ومعصوما في عقله ﷺ؛ لأنه هو أفطن الخلق وأكمل الخلق صلى الله عليه وسلم فإذا سرت خلف النبي ﷺ سرت خلف الحق، وإذا تمثلت النبي ﷺ في أحوالك عملت المراد لذا ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالخلاصة إذا أردت النجاة: لا تتبع نزوات نفسك ولا رغباتك العاجلة، فإذا اتبعتهم بغير ضابط أهلكت نفسك، فسادتنا باتباعنا للنبي ﷺ، لتخلص من تكبيل العقل بالهوى ومن تدني النفس بهواها، فترقى ونطمئن ونتقل من النفس الأمارة إلى اللوامة فالمطمئنة ثم الراضية والمرضية والكاملة.



الأوراق المالية

وعلاقتها بالأجناس الربوية وعقر الصرف



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

مما هو معلوم أن للنقود دوراً حيويًا بارزاً في تيسير المبادلات بين الناس، ولقد تطورت أشكال النقود بمرور الأزمنة حتى صارت على أيسر الأشكال مرونة في إجراء التبادل فصارت على شكل معادن كالذهب والفضة والبرونز والنحاس وغيره أو على شكل الأوراق المالية البنكنوت المعاصرة والتي أصبح بمقتضاها يمكن للإنسان حيازة كم كبير نسبياً من الثروة في خزانة صغيرة في بيته، وقد صدرت عن أشكال النقود ووظائفها مؤلفات كثيرة وصارت موضع دراسة لطلاب العلم في الجامعات المختلفة وتناولها علماء الاقتصاد بحثاً ودراسة لبيان دورها في تنشيط المبادلات ودفع عجلة النمو والاقتصاد ومدى أهميتها في الإدارة والتنظيم والمحاسبة وتحريك الموارد والطاقات، ولنفس السبب في بيان أهمية النقد الذهب والفضة فقد تناولها فقهاء المسلمين بالبحث والدراسة وبيان الحكمة في خلقها ووظيفتها الطبيعية في المجتمع وبيان الحكمة الإلهية في تحريم الربا فيها وتحريم استعمالها كأواني ومدى الضرر الذي يعود على المجتمع من جراء اكتنازها وحبسها عن التداول كما يظهر من كتابات الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

وابن القيم^(١). كما تناول ابن عابدين^(٢) في رسائله المشهورة أثر التقلبات في الأسعار ورواج وكساد الأسواق على قيمة النقود، كما تناول المقرئ في الآثار المترتبة على غش النقود أو الإكثار من ضرب الفلوس وما أدى إليه ذلك من الأزمات الاقتصادية التي اجتاحت العديد من البلدان بسبب ذلك.

والبحث الذي نحن بصدده يناقش الورق النقدي المعاصر في صورة البنكنوت من وجهة نظر الفقهاء المسلمين وعلاقته بالأجناس الربوية مع ذكر بعض التطبيقات العملية على ذلك من مناقشة أعمال البنوك وأحكامها الشرعية والله الموفق وهو المستعان وعليه التكلان وإليه المصير ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - باب الشكر، وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم

ج ٤ ص ١٥٦ ط دار الجيل.

(٢) رسائل ابن عابدين رسالة تنبيه الرقود على مسائل النقود ج ٢ ص ٥٨

(٣) المقرئ - إغاثة الأمة بكشف الغمة - دار ابن الوليد

فصل في تطور أشكال النقود

كانت الدولة من قديم الزمان تصطلح على اتخاذ وحدة معينة من شيء معين لجعلها أساساً تقيم به الأشياء الأخرى من السلع والخدمات، وهذه الوحدة تسمى العملة، وكانت تسك على شكل معين وطرز خاص بكل دولة، وكانت ذات وزن معين وعيار محدد، وقد درجت المجتمعات القديمة على اتخاذ الذهب والفضة لهذا الغرض، لما لهما من قيمة ثابتة في جنسهما مع تحمل المبادلات دون ظهور أثر الزمن عليهما مع ميل النفوس لاقتنائهما لذاتهما، فاتخذت الدولة الرومانية^(١) الدينار وحدة ثابتة من الذهب محددة الوزن والعيار أساساً لعملتها، وسكت على أساس هذه الوحدة عملتها ونقشتها بنقوش معينة، وجعلتها نقداً لها وعملة خاصة بها، فكان الذهب هو قاعدة عملتها وسارت على ذلك.

أما الدولة الساسانية فإنها اتخذت الفضة أساساً لعملتها، وهي الدراهم وجعلتها على ثلاث أوزان، وسكت على هذه الأوزان دراهمها الفضية على شكل معين وطرز خاص، ونقشتها بنقوش مخصوصة، وجعلت هذه القطع الفضية المسكوكة نقداً وعملة لها طريقتها للتداول فكانت بذلك قد أخذت بقاعدة الفضة وسارت فيها على نظام المسكوكات الفضية.

أما المسلمون فإنهم اتخذوا وحدة الذهب والفضة أساساً للنقد والعملية عندهم، فاستعملوا الاثنين جنباً إلى جنب، غير أنهم كانوا يتخذون من الدنانير البيزنطية والدراهم الفضية الكسروية نقداً لهم، ولم يسكوا نقداً

(١) عبد القديم زلوم - النقود في دولة الخلافة.

خاصاً بهم منذ أيام الرسول ﷺ والخلفاء من بعده حتى أيام عبد الملك بن مروان، حيث ضرب عبد الملك^(١) نقداً إسلامياً خاصاً جعله على شكل معين وطرز خاص، ونقشه بنقوش إسلامية خاصة، وجعل ذلك قائماً على وحدة الذهب الدينار ووحدة الفضة الدرهم^(٢) وكان ذلك موافقاً لما كان عليه المال أيام الرسول ﷺ من كون قاعدة الذهب والفضة أساساً للنقد.

وفي أواخر أيام العباسيين وفي أيام الأتابكة في مصر سك المسلمون بجانب الذهب والفضة نقوداً من النحاس سماها العرب الفلوس^(٣)، لشراء المحقرات من الأشياء، ولم تكن أبداً بديلاً أو نائباً عن الذهب والفضة، وإن كان يستمد قوته من قيمته كنحاس إلى أن أدى النهم والشره إلى حب المال وجمعه إلى الإفراط في سك هذه الفلوس، فلما قل الذهب والفضة راجت الفلوس رواجاً كبيراً مما أدى إلى أزمات اقتصادية كثيرة أصابت البلاد الإسلامية.

هذا وقد ظل التعامل بالنقد المسكوك الذهب والفضة على مستوى العالم سارياً إلى أن أدت الصعوبات التي يكتنفها نقل المسكوكات الفضية والذهبية في عمليات التجارة بين البلدان إلى نشأة البنوك في أوروبا على

(١) المرجع السابق

(٢) الدينار الشرعي يعادل ٢٥, ٤ جرام ذهب خالص والدرهم الشرعي يعادل ٩٧٥, ٢ جرام فضة، انظر ذلك في الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان لابن الرفعة تحقيق د. محمد أحمد إسماعيل الخاروف.

(٣) إذا أطلق لفظ النقود عند الفقهاء المسلمين انصرف إلى الذهب والفضة فقط ولم ينصرف إلى القطع النحاسية أو غيرها من المعادن الأخرى التي سماها العرب الفلوس.

أيدي الصيارفة في القرن السابع عشر^(١)، وتمتعت أوراقه بالقبول العام في تسوية الالتزامات، حيث كانت تتمتع بغطاء ذهبي كامل، ثم بدأت الحكومات بعد ذلك في التدخل في إصدار البنكنوت محافظة على هذه الثقة. وبالتالي أصبحت هي المتحكمة في إصدار النقد الورقي، وأضفت عليه الشرعية القانونية لإكسابه صفة الإبراء العام والقدرة على سداد الالتزامات والوفاء بالحقوق ليصبح محل ثقة الناس، وبرغم أن هذه الإصدارات كانت قائمة على قاعدة الغطاء الذهبي بحيث تضمن الحكومة تحويل قيمة الورقة النقدية إلى ذهب حين الاطلاع عليها إلا أن هذا النظام توقف العمل به قبيل الحرب العالمية الأولى. ثم عاد العمل بالنظام مرة أخرى بعد الحرب واستمر العمل به إلى أن تم إلغاء تلك القاعدة كلياً في منتصف أغسطس عام ١٩٧١ م^(٢) حين ألغت أمريكا رسمياً نظام بريتون وودز القاضي بقابلية تحويل الدولار إلى ذهب، وبذلك انقطعت آخر الخيوط التي كانت لا تزال تربط بين الذهب والنقد الورقي. ومن ثم أصبح النقد الورقي الإلزامي هو السائد في التعامل، مستمداً قوته من اعتراف الدولة به، وأصبحت البنوك المركزية تصدر النقود الورقية مراعية في ذلك السياسة الاقتصادية التي تتبعها السلطة العامة، ووفق مجموعة من الشروط والقيود التنظيمية التي تضعها الدولة لإصدار النقود الورقية وهذه الشروط والقيود ترتب التزامات على الاقتصاد وحقوقاً لحائزي النقود.

(١) د. أحمد عبده - النقود والبنوك ط ١٩٦٨ م

(٢) د. حسني فهمي - الجنيه المصري ص ١١٩ - منشأة المعارف ١٩٧٥ م

وفي ظل قاعدة النقود الورقية هذه انفصلت القيمة الذاتية للنقود عن القيمة الاسمية الصادرة بها، وصار أمر الإصدار النقدي إلى الحكومات محكوماً بسياساتها الاقتصادية العامة التي تقضي بأن يكون الإصدار النقدي مقابل زيادة حقيقية في الإنتاج، إلا أن خطورة هذا الأمر تكمن في طيش بعض الحكومات المصدرة، وسوء تصرفها، وفساد إدارتها وسياساتها النقدية، حيث تلجأ بصدد تغطية العجز في موازنتها العامة المالية إلى مزيد من إصدار النقود الورقية، وهو الأمر الذي يترتب عليه عادة الاضطراب في هيكل الأسعار، ومن ثم الموجات التضخمية غير المرغوب فيها.

المبحث الأول

معنى الربا

لغة: يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد^(١)، وأربى الرجل دخل في الربا، وأربى على الخمسين زاد عليها، وربى الصغير يربى من باب تعب، وربا يربو من باب علا إذا نشأ، والربوة المكان المرتفع. ويطلق الربا في اللغة^(٢) على معان أشهرها: النمو والزيادة والعلو والارتفاع قال تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢]، أي أكثر، وقال تعالى: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ [الرعد: ١٧]، أي طافياً فوق سطحه، وقال تعالى عن الأرض: ﴿أَهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]، أي زادت، وقال تعالى: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، أي ينميها.

ولام الربا أصلها واو تحركت وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً على القاعدة، ولهذا يثنى بالواو ويكتب بالألف على الأصل، واختار البعض تثنيته وكتابته بالياء بسبب كسر فائه، ومنهم من أجاز كتابته بالواو وتثنيها على الأصل، وفيه لغات أشهرها الربا بالقصر، وعلى غير الأشهر الرباء بالمد والرماء والرمما بالميم مع المد والقصر.

اصطلاحاً:

لربا تعريفات كثيرة من حيث الاصطلاح نذكر منها التعريف المذكور

(١) المصباح مادة رب و.

(٢) لسان العرب مادة رب و.

في كتب السادة الشافعية مع ذكر الاعتراضات الواردة على التعريف والرد عليها.

الربا: عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخر في البدلين أو أحدهما^(١).

شرح التعريف بإيجاز^(٢):

عقد كالجنس في التعريف و على عوض إلى آخر التعريف كالفصل وقد اشتمل على عدة قيود بعضها للإخراج، وبعضها للإدخال، وبعضها لبيان المعرف، على عوض: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لعقد أي عقد واقع على عوض مخصوص والمراد الأموال الربوية وهو قيد أول خرج به العقد الواقع على غير الربوية من الأموال.

غير معلوم التماثل: نعت سببي لعوض وكلمة غير دخلت على مقيد بقيود تعلم مما يأتي وغير معلوم التماثل يشمل معلوم التفاضل كبيع صاع بصاعين ويشمل مجهول التماثل والتفاضل كبيع كمية من البر بكمية منه وعلى هذا فغير معلوم التماثل قيد ثان دخل معلوم التفاضل ومجهول التماثل والتفاضل.

في معيار الشرع: جار ومجرور متعلق بالتماثل ومعيار الشرع أي عاداته

(١) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للشيخ الخطيب الشربيني طبعة مصطفى الحلبي،

ج ٢ ص ٢١.

(٢) كتاب تعليل حكم الربا، د. علي أحمد مرعي مطبعة الأمانة ج ٢، الطبعة الثانية سنة ١٤١٠ هـ، ص

من الكيل فيما يكال والوزن فيما يوزن، وهذا قيد ثالث دخل به ما لو كان معلوم التماثل لا بمعيار الشرع كبيع الموزن كيلاً، والمكيل وزناً.

حالة العقد: ظرف لغير معلوم التماثل وهو قيد رابع دخل به ما لو كان معلوم التماثل في معيار الشرع لا حالة العقد كما لو تبايعا شعيراً بمثله جزافاً ثم خرج العوضان متساويين بعد ذلك.

أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما: أو للتنويع والتأخير صادق بتأخير القبض وتأخير الاستحقاق. والأول في ربا اليد، والثاني في ربا النساء، وآل في البدلين للعهد الشرعي أي البدلين المتحدين في علة الربا، سواء اتحد جنسهما أولاً، الأول كملح بملح، والثاني كملح ببر وهذا أي مع تأخير الخ قيد خامس لبيان بعض أنواع الربا، وذلك لأن عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد لبيان ربا الفضل وهو لا يكون إلا في العوضين المتحدين في الجنس، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما لبيان ربا اليد و ربا النساء وهما يكونان في العوضين المتحدين في علة الربا سواء اتحد الجنس فيهما أو لم يتحد كما مر.

الاعتراضات على هذا التعريف:

الاعتراض الأول:

التعريف المذكور فاسد لاشتماله على أو التي من معانيها الشك، واشتمال التعريف على مثل هذا غير مرض. ويجاب عن هذا بأن كلمة أو ليست للشك وإنما هي للتنويع.

الاعتراض الثاني:

أن التعريف غير مانع؛ لأنه يصدق على العوضين المختلفين جنساً، فيقتضي ثبوت الربا فيهما عند انتفاء التماثل وإن وجد الحلول والتقابض وليس الحال كذلك. وكذلك يصدق على ما لو باع برا بدرهم مع التأخير المذكور في التعريف المذكور فيقتضي أن مثل هذا البيع داخل في الربا وليس كذلك وعلى هذا يكون التعريف فاسداً.

ويجاب عن هذا بأن شقاً من التعريف المذكور لبيان ربا الفضل، وهو لا يكون إلا في العوضين المتحدين في الجنس وهذا الشق هو عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد والشق الآخر لبيان ربا اليد وربا النساء وهما يكونان في العوضين المتحدين في علة الربا سواء اتحد جنسهما أو لم يتحد. وال في التماثل وفي البدلين للعهد أي التماثل المعتبر شرعاً وهو إنما يعتبر كذلك في متحدي الجنس الربوي والبدلين المعهودين شرعاً أي المتحدين في علة الربا اتحد الجنس أو لا.

الاعتراض الثالث:

أن التعريف غير جامع؛ لأن ظاهره أن الربا يختص بالعوضين المتحدين في الجنس؛ لأن التماثل إنما يعتبر في متحدي الجنس من الأموال الربوية، وحيثُذ فيخرج من أفراد المعرف البدلين المختلفين في الجنس فيقتضي أنه لا يضر فيهما التأخير، ولا شك أن هذا الحكم غير مراد، ويجاب عن هذا بأن عبارة أو مع تأخير في البدلين معطوفة على عوض وليست معطوفة على غير معلوم التماثل وقد سبق أن أشرنا إلى أن آل في التماثل وفي البدلين للعهد.

الاعتراض الرابع:

أن التعريف غير جامع؛ لأنه لا يشمل ما لو أجل العاقدان العوضين أو أحدهما، وتقابضا في المجلس لقصر الأجل أو للتبرع بالإقباض، مع أن مثل هذا من الربا.

ويجاب عن هذا بأن التأخير الوارد في التعريف صادق بتأخير القبض، وصادق بتأخير الاستحقاق فما وهم المعترض أنه ليس بخارج إنما هو داخل فلا وجه للاعتراض.

المبحث الثاني

أشهر أنواع الربا

أربعة أنواع:

ربا الجاهلية القرض	يحرم بالإجماع
ربا النساء	يحرم بإجماع من يعتد بإجماعه
ربا الفضل	للخلاف فيه جعلته ثالثاً
ربا اليد	جعلته آخرها لأن أكثر الفقهاء لا يراه نوعاً مستقلاً

المطلب الأول: ربا الجاهلية.

لا خلاف بين الفقهاء في أن الزيادة على الدين المستحق مقابل التأجيل من ربا الجاهلية.

اختلفوا بعد هذا في القرض بفائدة تؤدي دفعة واحدة حين انتهاء المدة أو بتقسيط شهري. فإذا لم يؤد المدين الدين عند حلول أجله زاد الدائن في مقدار مبلغ التقسيط وأخر مدة الأداء. فأغلب الفقهاء على اعتباره من ربا الجاهلية وقلة منهم قصرُوا ربا الجاهلية على النوع الأول والدليل مع أغلب الفقهاء وهذا يندرج تحت ربا القرض أو ربا الدين من باب كل قرض جر نفعاً فهو ربا. وللنظر في الأدلة يمكن الرجوع إلى كتاب تعليل حكم الربا للدكتور علي أحمد مرعي ص ٢٣ : ٤٠.

الطلب الثاني: ربا النساء .

النساء والنسيء والنسيئة التأخير^(١) روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ رِزْقُهُ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٢).

وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا كان كل من البدلين مالاً ربوياً قد جمعتهم علة واحدة إذا بيع أحدهما بالآخر على التأخير كان ربا نساء وفي المسائل الفرعية خلاف بسبب اختلافهم في علة ربا النساء^(٣).

وبتتبع كلام الفقهاء نجد أن ربا النساء يعتمد على أمرين:

أحدهما: أن تقع المبادلة على التأجيل في البدلين أو أحدهما.

ثانيهما: أن يكون كل من البدلين مالاً ربوياً قد جمعتهم علة واحدة اتحداً في الجنس أو اختلفاً، علم التماثل أو جهلاً، فمثلاً:

الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة أو البر بالبر مع تأخير البدلين أو أحدهما من باب ربا النساء لاتحادهما في الجنس المستلزم منه الاتحاد في علة الربا.

مبادلة الذهب بالفضة، أو البر بالشعير، مع التأجيل ففي مثل هذا اتحد

(١) المصباح المنير مادة ن س و

(٢) صحيح البخاري ٤-٣٠١

(٣) يراجع البدائع ٧-٢١٠٦ وحاشية ابن عابدين ٩٤-١٨٤، فتح القدير ٥-٢٧٩، والمتقى ٤-٩٥٨،

وبداية المجتهد ٢-١٣٣، وحاشية الدسوقي ٣-٤٧، والزواجر عن اقتراف الكبائر ١-٢٢١،

وحاشية البيجرمي على شرح المنهج ٢-٢٠٦

البذلان في العلة وهي النقديّة في الذهب بالفضة والطعمية في البر بالشعير واختلفاً في الجنس يحرم لكونه من ربا النساء.

مبادلة مال ربوي بآخر ربوي مع الاختلاف في العلة، كمبادلة ذهب بقمح أو فضة بشعير مع التأخير، فهذا جائز وليس من باب رب النساء.

وكذا مبادلة مال ربوي بآخر غير ربوي مع التأخير في البديلين أو أحدهما، كمبادلة ذهب بأسمنت أو فضة برخام ليس من الربا في شيء، وكذا مبادلة مال غير ربوي بمال غير ربوي، فيبعوا كيفما شئتم.

المطلب الثالث: ربا الفضل.

الفضل الزيادة، والفضالة بالضم: اسم لما يفضل والفضلة مثله. وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا كان كلا البديلين مالاً ربوياً متحدي الجنس وزاد أحدهما على الآخر زيادة معتبرة في معيار الشرع حالة العقد تعتبر من باب ربا الفضل إذا وقعت المبادلة على الحلول وتم التقابض في الحال.

ومن تتبع أقوال الفقهاء يجد أن ربا الفضل يعتمد على أربعة أمور:

أحدهما: أن يكون كل واحد من البديلين مالاً ربوياً.

ثانيها: أن يكونا متحدي الجنس كذهب بذهب أو فضة بفضة أو قمح بقمح.

ثالثها: زيادة أحد البديلين على الآخر زيادة معتبرة شرعاً حالة العقد.

رابعها: أن تكون المبادلة على الحلول والتقابض. فمثلاً

مبادلة فضة بفضة، وذهب بذهب، أو مطعوم بمثله مع زيادة أحد البديلين عن الآخر، زيادة يعتد بها شرعاً حالة العقد، مع الحلول والتقابض، تعتبر من ربا الفضل في حالة الذهب والفضة بالاتفاق، وفي حالة المطعوم ولو غير مكيل أو موزون لمن يرى أن العلة الطعم الشافعي في الجديد أما عند غيره في المطعوم المكيل والموزون فقط كالأحناف والحنابلة لمن يرى أن العلة في الكيل والوزن، وعند المالكية ليس في كل مطعوم بل ما كان قوتاً مدخراً فقط.

مبادلة مال غير ربوي بجنسه، مع زيادة أحد البديلين، كمبادلة قماش بقماش من نفس النوع كحرير بحرير مثلاً لا تدخل في باب ربا الفضل، وكذا مبادلة مال ربوي بمال ربوي مختلف الجنس وإن اتحدت العلة مع زيادة أحد البديلين مع الحلول والتقابض كذهب بفضة أو بر بشعير ليست من باب ربا الفضل.

المطلب الرابع: ربا اليد.

ممن نحا هذا النحو في التقسيم الشافعية فالربا عندهم ينقسم إلى ثلاثة أنواع - ربا النساء وربا الفضل وربا اليد.

والمراد بربا اليد عندهم المنسوب إلى اليد لعدم القبض بها حالاً، ويعنون به البيع مع تأخير قبض البديلين أو أحدهما بلا تأجيل في العقد كربا النساء، ولكن التأخير في القبض في ربا اليد يكون في حالة المبادلة الحالة المنجزة الخالية عن اشتراط الأجل حتى انفض مجلس العقد، وأطلق على هذا النوع اسم ربا اليد أخذاً من قوله ﷺ: «يَدَا بَيْدٍ» في أحاديث الربا، وكذا قوله

«إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ» أي خذ وهات، فهذا يوجب التقابض قبل التفرق بالأبدان عن مجلس العقد، هذا إذا كان البدلان ربويان متحدي الجنس أو مختلفي الجنس ولكن متحدي العلة، فالحاصل أن مبادلة الأموال الربوية بعضها ببعض إذا كان البدلان متحدي الجنس كذهب بذهب حرم التفاضل والنساء والتفرق قبل التقابض، فإن اختلف الجنس واتحدت العلة كذهب بفضة جاز التفاضل وحرم النساء والتفرق قبل التقابض، وإن كان البدلان مختلفين جنساً وعلة كذهب بقمح جاز التفاضل والنساء والتفرق قبل التقابض^(١). ولذا لما كان بيع النقد بالنقد من جنسه وغيره يسمى صرفاً والنقد المقصود به الذهب والفضة فلذا يجب التقابض في مجلس العقد في حالة الصرف بالإجماع. أما عند الجمهور فإن تأخير القبض عن مجلس العقد سواء كان مشروطاً أم لا كان من ربا النساء إلا أن الأحناف لا يشترطون التقابض قبل التفرق إلا في الصرف فقط لأن الدراهم والدنانير لا تتعين بالتعيين عندهم أما بيع الأصناف الربوية الأخرى ببعضها فإنهم لا يشترطون فيها التقابض قبل التفرق وإنما يشترطون التعيين فقط لأن المحرم هو الربا والربا الزيادة وهي إما في القدر وهو الفضل أو في ميعاد الاستحقاق وهو النساء وليس التقابض من الربا في شيء بالنسبة لغير الصرف إذ قيمة المقبوض بعد كونه نقداً كقيمة معين غير مقبوض في المجلس بخلاف المؤجل أو الدين^(٢).

(١) المجموع ٩-٥٩ وما بعدها.

(٢) تبیین الحقائق ٤-٨٩

المبحث الثالث

حكم الربا

الربا حرام بالإجماع ومن الكبائر، قال الماوردي في الحاوي^(١):

الأصل في تحريم الربا الكتاب والسنة ثم الإجماع.

فأما الكتاب فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ومعنى قوله تعالى: أضعافاً مضاعفة أي أضعاف الحق الذي دفعتم، لأن أهل الجاهلية كان الواحد منهم إذا حل دينه قال لغريمه إما أن تعطي أو تربني فإن أعطاه وإلا أضعف عليه الحق وتضعف له الأجل ثم يفعل كذلك إذا حل حتى يصير الحق أضعافاً مضاعفة، فحظر الله تعالى ذلك لما فيه من الفساد، ثم أكد الزجر عليه بقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، فأخبر أن نار آكل الربا كنار الكافر.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، يعني لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان في الدنيا من المس يعني الجنون.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وهذه الآية نزلت في ثقيف وذلك أنهم كانوا أكثر العرب رباً فلما نزل تحريم الربا قالوا كيف يحرم الربا وإنما البيع مثل الربا، فرد

(١) الحاوي الكبير للماوردي ج ٥ ص ٧٣ وما بعدها دار الكتب العلمية

الله تعالى عليهم قولهم وأبطل جمعهم بين البيع والربا ثم قال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، يعني القرآن ﴿فَأَنْتَهُيَ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾، يعني ما أكل من الربا قبل التحريم أو قبل إسلامهم وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتَقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، يعني ما لم يقبض من الربا إذا أسلموا عليه تركوه، وما قبضوه قبل الإسلام لم يلزمهم أن يردوه، ثم تواعد على ذلك لتوكيد الزجر فقال: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، يعني دفعتموه ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، بأن تمنعوا رؤوس أموالكم، ثم قال تيسيراً على خلقه ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، من قد أريتموه ﴿ذُؤُوسَ﴾، برأس المال ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾، يعني إلى وقت اليسار.

أما السنة فما روي عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَشَاهِدَهُ وَكَاتِبَهُ»^(١).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال في خطبة الوداع: «أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ فَأَوَّلُ رِبَا أَضَعُهُ رَبَا عَمِّي الْعَبَّاسُ»^(٢).

ثم قد أجمع المسلمون على تحريم الربا وإن اختلفوا في فروعه وعله وتحريمه وكيفية تحريمه وقيل إن الله تعالى ما أحل الزنا ولا الربا في شريعة قط وهو معنى قوله: ﴿وَآخِذْهُمْ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]، يعني في الكتب السالفة.

(١) أخرجه أبو داود ٣/ ٢٤٤ في البيوع والترمذي ٣/ ٥١٢ في البيوع والنسائي ٦/ ١٤٩ وهو عند مسلم من حديث جابر ٣، المسافة ١٠٦، وللبخاري نحوه من حديث أبي جحيفة.

(٢) أخرجه مسلم مطولاً ٢/ ٨٨٦ في الحج وأبو داود حديث (٣٣٣٤) والبيهقي ٥/ ٢٧٤

فإذا تقرر أن الربا حرام فلا فرق في تحريمه بين دار الإسلام ودار الحرب خلافاً للإمام أبي حنيفة حيث احتج بحديث مكحول الموضوع^(١) أن النبي ﷺ قال: «لا ربا بين مسلم وحربي في دار الحرب» والدليل على حرمة في كل دار عموم ما ذكرنا من الكتاب والسنة، ويستدلون أيضاً بإقرار العباس ﷺ عم النبي ﷺ على التعامل بالربا قبل فتح مكة عندما كانت دار حرب وفي فتح مكة وضعه النبي ﷺ لكون مكة صارت دار إسلام.

(١) انظر نصب الراية ٤٤ / ٤ والدراية ١٥٨ / ٢

المبحث الرابع

الأموال الربوية الأجناس الربوية

والمقصود بالأموال الربوية هي الأجناس من الأموال التي يحتاج التعامل فيها إلى مراعاة ضوابط أثناء عقود التبادل والمعاوضات بها وإلا حدث الربا، ومن هذه الضوابط منها ما يشترط فيه التماثل والحلول والتقابض في متحدي الجنس.

والمقصود بالتماثل: هو العلم بالتماثل في معيار الشرع كيلاً أو وزناً حالة العقد في متحدي الجنس من هذه الأموال الربوية وإلا وقعنا في ربا الفضل.

والمقصود بالحلول: هو عدم الأجل في العقد وإلا وقعنا في ربا النساء أي أن العقد يكون على التنجيز وليس على الأجل والمقصود بالتقابض أن يكون يداً بيد كما قال الرسول ﷺ إلا يداً بيد أو هاء وهاء أي خذ وهات أي لا يتأخر قبض البديلين أو أحدهما عن مجلس العقد وإلا وقعنا في ربا اليد.

ومن الضوابط أيضاً أن يشترط الحلول والتقابض في مختلفي الجنس ومتحدي العلة في الربا، ولكن يجوز التفاضل، أي عدم التماثل كذهب بفضة مثلاً في عقود الصرف، أو كبر بشعير في عقود المبادلة في الأطعمة.

أما إذا اختلفت الأجناس والعلة، فبيعوا كيف شئتم بالأجل أو غيره، فلا ربا نسيئة وبالتفاضل أو غيره، فلا ربا فضل كبيع ذهب بشعير أو فضة ببر.

والأصل في تحديد الأجناس الربوية هي السنة الشريفة فيما رواه مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت ^(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلًا بِمِثْلٍ سِوَاءٍ بِسِوَاءٍ يَدًا بِيَدٍ فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَيُعَوَّضُ كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ»، وأيضاً ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَزَنًا بِوَزَنٍ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ وَزَنًا بِوَزَنٍ مِثْلًا بِمِثْلٍ فَمَنْ زَادَ أَوْ اسْتَرَادَ فَهُوَ رِبَاً».

وعن معمر بن عبد الله رضي الله عنه ^(٣) قال: إني كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: «الطَّعَامُ بِالطَّعَامِ مِثْلًا بِمِثْلٍ»، وكان طعامنا يومئذ الشعير.

قال الماوردي في الحاوي الكبير ^(٤): أما المنصوص عليه في الربا فسته أشياء وردت السنة بها وأجمع المسلمون عليها وهي: الذهب والفضة، والبر، والشعير، والتمر، والملح واختلف الناس في ثبوت الربا فيما عداها. فذهب جماعة منهم طاوس وقتادة ومسروق والشعبي وعثمان البتي وداود الظاهري على عدم ثبوت الربا فيما عدا الستة المنصوص عليها تمسكاً بالنص ونفيًا للقياس وإطراحاً للمعاني. وذهب جمهور الفقهاء ومثبتوا القياس إلى أن الربا يتجاوز المنصوص عليه إلى ما كان في معناه: انتهى.

(١) مسلم ج ٣ - المساقاة / ٨١

(٢) مسلم ج ٣ - المساقاة / ٨٤

(٣) مسلم ج ٣ - المساقاة / ٩٣

(٤) الحاوي الكبير للماوردي ج ٥ ص ٨١-٨٣ طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

ثم بعد ذلك تكلم عن إثبات القياس وحجيته، والثاني عن طريق الاستدلال الظاهر والدليل عليه ثم قال الماوردي بعد ذلك: إذا ثبت أن الربا يتجاوز المنصوص عليه لمعنى فيه وعلته مستنبطة منه فالعلة في الذهب والفضة غير العلة في البر والشعير والتمر والملح. فأما العلة في البر والشعير فقد اختلف أصحاب المعاني فيها على مذاهب شتى:

المذهب الأول: مذهب محمد بن سيرين أن علة الربا اتحاد الجنس فأجرى الربا في جميع الأجناس ومنع التفاضل فيه حتى التراب بالتراب، والدليل على فساد هذا القول ما روى عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ جهز جيشاً فنفدت إبله فأمرني أن أشتري بغيراً ببعيرين إلى إبل الصدقة فلما ابتاع ﷺ بغيراً ببعيرين بطل أن يكون اتحاد الجنس علة لوجود التفاضل فيه وأذن النبي ﷺ به.

المذهب الثاني: مذهب الحسن البصري، أن علة الربا المنفعة في الجنس، فيجوز بيع ثوب قيمته دينار بثوبين قيمتهما دينار، ومنع من بيع ثوب قيمته دينار بثوب قيمته ديناران احتجاجاً بأن فضل القيمة يعتد به كفضل القدر والربا لمنع التفاضل مطلقاً في القدر والقيمة والدليل على فساد هذا القول ما قدمنا في الرد على المذهب الأول من جواز بيع بغير ببعيرين، وفضل القيمة بينهما كفضل القدر وأن مقصود البياعات طلب النفع والتماس الفضل فلم يجز أن يكون ما هو مقصود البياعات علة في تحريمها؛ ولأن تحريم تفاضل القيمة في الجنس مع تساوي القدر يقتضي تحليل تساوي القيمة في الجنس مع تفاضل القدر، وهذا محظور بالنص وفي هذا انفصال عما تعلق به من الاستدلال.

المذهب الثالث: وهو مذهب سعيد بن جبير، أن علة الربا تقارب المنافع في الأجناس فمنع من التفاضل في الحنطة بالشعير لتقارب منافعهما، ومن التفاضل في الباقلاء بالحمص؛ لأن المنفعة فيهما متقاربة، والرد على هذا المذهب ورود النص بجواز التفاضل في البر بالشعير مع تقارب منافعهما وما دفعه النص كان مطروحاً.

المذهب الرابع: وهو مذهب ربيعة، أن علة الربا جنس يجب فيه الزكاة، فأثبت الربا في كل جنس وجبت فيه الزكاة من المواشي والزروع، ونفاه عما لا تجب فيه الزكاة؛ لأن الربا تحريم التفاضل حثاً على المواساة بالتمائل وأموال المواساة ما ثبت فيها الزكاة، والدليل على فساد هذا الرأي ابتياع النبي ﷺ بغيراً ببعيرين والإبل جنس تجب فيه الزكاة وأثبت الربا في الملح كما نص عليه الحديث وهو جنس لا تجب فيه الزكاة.

المذهب الخامس: وهو مذهب مالك، أنه مقتات مدخر، فأثبت الربا فيما كان قوتاً مدخراً ونفاه عما لم يكن قوتاً، كالنفواكه وعما لم يكن مدخراً وإن كان قوتاً كاللحم، والرد على هذا المذهب عدم هذه الأوصاف في الملح، وقد ورد في النص بثبوت الربا فيه والملح ليس قوتاً، والرطب فيه الربا وليس بمدخر، وقد وافق الإمام مالك أن فيه الربا فإن تعلل أن الرطب يؤول للادخار بالتمر قليل فالرطب الذي لا يصير تمرّاً لا يؤول للادخار وفيه الربا.

المذهب السادس: وهو مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، أن علة الربا في البر أنه مكيل، فأثبت الربا في كل ما كان مكيلاً وإن لم يكن مأكولاً كالجص والنورة، ونفاه عما كان غير مكيل ولا موزون وإن كان مأكولاً كالرمان والسفرجل، فأثبت الكيل علة وأبطل أن يكون الطعم علة.

أ - فأما ما احتج به في إثبات أن الكيل علة ثلاثة دلائل:

ماروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تتبعوا البر بالبر ولا الشعر بالشعر إلا مثلاً بمثل وكذلك ما يكال ويوزن». يرد على هذا بأنه حديث مرسل وزيادة وكذلك ما يكال ويوزن زيادة مجهولة.

والتساوي في بيع البر بالبر مباح والتفاضل فيه محظور، ولا يعلم التساوي المباح من التفاضل المحظور إلا بالكيل، فوجب أن يكون علة؛ لأنه به يمتاز المباح من المحظور. ويرد على ذلك بأن الكيل عِلْمٌ بالإباحة وعلة الربا مستنبطة من الحظر.

الجنس صفة والكيل مقدار والتعليل بكونه جنساً مكيلاً يجمع حالتي البر صفة وقدرًا فثبت أنها علة الربا.

يرد على ذلك بأن كونه مطعوماً جنساً يجمع حالتي البر صفة وجنساً.

ب - وأما ما احتج به في إبطال أن يكون المطعوم علة فأمور منها:

لكونه قوتاً أو إداماً أو تفكهاً أو تداوياً.

أن الطعم في المطعومات مختلف والكيل في المكيلان مؤتلف، فكان أولى أن يكون علة، وكذلك المطعوم صفة آجلة لأن البر لا يطعم إلا بعد علاج وصنعه والكيل صفة عاجلة فتعليق الحكم بالصفة العاجلة أولى من تعليقه بالصفة الآجلة؛ ولأن علة الربا في البر هي ما منعت من التفاضل وأوجبت التساوي وقد يوجد زيادة الطعم ولا ربا ولا يوجد زيادة الكيل إلا مع حصول الربا.

وللرد على هذا المذهب من طريقين أحدهما إثبات أن المطعوم علة والثاني إبطال أن الكيل علة.

الدليل على أن المطعوم علة: فما روي بشير بن سعد عن معمر بن عبد الله أن النبي ﷺ نهى عن بيع الطعام بالطعام إلا مثلاً بمثل، واسم الطعام يتناول كل مطعوم في اللغة والشرع، فكان عموم هذا الخبر إشارة إلى أن علة الربا الطعم؛ لأن الحكم إذا علق باسم مشتق من معنى كان ذلك المعنى علة، لذلك الحكم كحد الزاني اسم مشتق من الزنا وقطع يد السارق لأن اسمه مشتق من السرقة، ولأن علة الشيء في ثبوت حكمه ما كان مقصوداً منه أوصافه ومقصود البر هو الأكل فاقتضى أن يكون علة الحكم، ولأن الأكل صفة لازمة لذات المعلول والكيل صفة زائدة عن المعلول والصفة اللازمة أولى أن تكون علة من الصفة الزائدة؛ ولأن الأكل علة يوجد الحكم بوجودها ويعدم بعدمها والكيل علة يوجد الحكم مع عدمها ويعدم الحكم مع وجودها. فمثلاً الزرع إذا كان حشيشاً لا ربا فيه لعدم الأكل عندنا وعدم الكيل عندهم، فإذا صار سنبلًا ثبت فيه الربا عندنا؛ لأنه مأكول وثبت فيه الربا عندهم وهو غير مكيل لكونه عندهم سيصير مكيلًا. فنقول لهم وكذلك إذا كان حشيشاً فإذا صار السنبل خبزاً ثبت فيه الربا عندنا؛ لأنه مأكول وثبت فيه الربا عندهم وهو غير مكيل فإذا صار رماداً فلا ربا فيه عندنا لكونه غير مأكول ولا ربا فيه عندهم وهو مكيل، فثبت أن علتنا يوجد الحكم بوجودها ويعدم بعدمها، وعلتهم يوجد الحكم بعدمها في السنبل ويعدم الحكم مع وجودها في الرماد، فثبت أن التعليل بالأكل اصح لهذه الدلائل الأربعة.

وأما الرليل على أن الكيل ليس علة فمن خمسة أوجه:

أحدها: أن النبي ﷺ نص على أربعة أجناس كلها مكيلة، فلو كان ذلك تنبيهاً على الكيل لاكتفى بذكر أحدها، فإن قالوا هذا يرجع عليكم في الأكل؛ لأن الأربعة مأكولة ولو أراد الأكل لاكتفى بذكر أحدها قيل: ليس يلزمنا هذا؛ لأن الكيل في الأربعة لا يختلف والأكل فيها مختلف، فالبر يؤكل في حال الاختيار والشعير في حال الاضطرار والتمر يؤكل تفكها وإداماً والملح استطابة، فذكر كل واحد منها تنبيهاً على ما كان في معناه، فالحق بالبر والشعير كل ما كان قوتاً كالأرز والذرة، وعلى التمر كل ما كان تفكهاً كالتين والزبيب، وعلى الملح ما كان للإصلاح كالمصطكى والزنجبيل والدواء.

الوجه الثاني: الكيل يختلف في المكيلات على اختلاف البلدان والأزمان فالتمر يكال بالحجاز، ويوزن بالبصرة. والبر يكال تارة في زمان، ويوزن في أخرى. والفواكه قد تعد في زمان وتوزن في زمان. فلم يجوز أن يكون الكيل علة؛ لأنها تقتضي أن يكون الجنس الواحد فيه الربا في بعض البلدان ولا ربا فيه في بعضها، وعلة الحكم يجب أن تكون لازمة في البلدان وسائر الأزمان وهذا موجود في الأكل.

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ جعل الكيل علماً على الإباحة لنهيهِ ﷺ عن بيع البر بالبر إلا كيلاً، فلم يجوز أن يجعل الكيل علماً على الحظر، ألا تراه لما جعل القبض قبل الافتراق علماً على الإباحة لم يجوز أن يجعل علة في الحظر.

الوجه الرابع: أن الكيل موضوع لمعرفة مقادير الأشياء فلم يجوز أن يكون علة للربا كالذرع^(١) والعدد.

(١) الذرع: أي القياس للذراع وحدة القياس.

الوجه الخامس: أن من جعل الكيل علة أخرج من المنصوص عليه ما لا يمكن كيـله لقلته، فجوز بيع ثمرة بثمرتين، وكف طعام بكفين، وكل علة أوجبت النقصان من حكم النص لم يجز استعمالها فيما عداه.

المذهب السابع: وهو مذهب سعيد بن المسيب، وبه قال الشافعي في القديم، أنه مأكول مكيل أو موزون جنس، فلذا يثبت الربا على هذا المذهب فيما كان مأكولاً أو مشروباً مكيلاً أو موزوناً، وينفي عما كان غير مكيل ولا موزون، وإن كان مأكولاً أو مشروب وعما كان غير مأكول وإن كان مكيلاً أو موزوناً. والرد على هذا واضح مما سبق حيث أبطلنا أن يكون الكيل علة وكذا الوزن كما سوف يتضح من مناقشة علة الربا في الذهب والفضة فإذا لم يجز أن يكونا أي الوزن والكيل علة لم يجز أن يكونا وصفاً في العلة فثبت أن الأكل وحده علة.

المذهب الثامن: وهو مذهب الشافعي في الجديد، أن علة الربا أن مأكول جنس، أي مطعوم جنس وهذا المذهب هو الراجح من حيث مناقشة أدلة كل المذاهب السابقة والرد عليها.

فصل

أما علة الربا في الذهب والفضة، فمذهب الشافعي ومالك ورواية عن أحمد أنها جنس الأثمان غالباً، وهذه علة قاصرة لا تتعدهما.

ومذهب الأحناف أن العلة هي الوزن، وهي علة متعددة تشمل كل موزون كالحديد والنحاس وغيره.

ومذهب بعض المالكية ورواية عن أحمد اختارها ابن تيمية وابن القيم أن العلة هي الثمنية أي مطلق الثمنية سواء كان ذهباً أو فضة أولاً^(١) أدلة المذاهب في ذلك ومناقشتها^(٢):

استدل أبو حنيفة لكون العلة في الذهب والفضة في الوزن بدلائل قريبة من أدلته في جعل العلة في البر والشعير الكيل وقد سبق مناقشة ذلك ثم خص الاحتجاج في هذه المسألة بترجيح علته وإفساد علة الشافعية ومن وافقهم واحتج لذلك بثلاثة أشياء:

أحدها: أن ثبوت الربا في الذهب والفضة مستفاد بالنص، ولا فائدة في استنباط علة قاصرة يستفاد منها حكم أصلها ولا يتعدى لغيرها، والتعليل بالوزن متعدد وبالأثمان غير متعدد.

الثاني: أنه لو جاز تعليل الذهب والفضة بكونها ثمنًا وذلك غير متعدد لجاز تعليلهما بكونهما ذهبًا وفضة، فلما لم يجوز أن يعلل الذهب بكونه ذهبًا ولا فضة بكونها فضة لعدم التعدي لم يجوز أن يعللا بكونهما ثمنًا لعدم التعدي.

الثالث: أن التعليل بالأثمان منتقض في الطرد والعكس فنقض طرده بالفلوس هي أثمان في بعض البلدان ولا ربا فيها عندكم ونقضه بالعكس بأواني الذهب والفضة ليست أثمانًا وفيها الربا والتعليل بالوزن مستمر لا يعارضه نقض في طرد ولا عكس.

(١) الحاوي للماوردي ج ٥ ص ٩١ وكتاب تعليل حكم الربا للدكتور علي أحمد مرعي الجزء الثاني ص ١٠٦ وما بعدها (بتصرف)

(٢) الحاوي

والرد على ذلك في ثلاثة أشياء:

أولاً: التعليل بالوزن يثبت الربا في الموزون من الصفر والنحاس والقطن والكتان، ولو ثبت فيه الربا بعلة كما ثبت في الذهب والفضة بهذه العلة لوجب أن يستوي حكم معموله ومكسوره في تحريم التفاضل، كما هو في حكم معمول الذهب والفضة ومكسوره في تحريم التفاضل فيه، ولكن الأحناف جوزوا التفاضل في معمول الصفر والنحاس دون مكسوره وتبره، حتى أباحوا بيع سيف بسيفين، ولم يجوزوا التفاضل في معمول الذهب والفضة، فمنعوا بيع الخاتم بخاتمين، فاختلف مع بقاء العلة فبطل أن يكون الوزن علة للحكم.

ثانياً: لو ثبت أن الوزن في الذهب والفضة علة يثبت بها الربا في موزون الصفر والنحاس لوجب أن يمنع من إسلام الذهب والفضة في الصفر والنحاس لاتفاقهما في علة الربا، كما منع من إسلام الفضة في الذهب لاتفاقهما في العلة، فلما جاز إسلام الذهب والفضة في الصفر والنحاس ولم يجز إسلام الفضة في الذهب دل على افتراق الحكم بين الفضة والذهب وبين الصفر والنحاس في علة الربا، فبطل أن يكون الوزن علة الربا. وهذان الدليلان احتج بهما الشافعي رحمه الله في إبطال الوزن أن يكون علة الربا.

ثالثاً: أن الأصول مقررة على أن الحكم إذا علق على الذهب والفضة اختص بها ولم يقس غيرهما عليهما. ألا ترى أن الزكاة لما تعلقت بهما لم يتعد إلى غيرهما من صفر أو نحاس أو شيء ومن الموزونات، ولما حرم الشرب في أواني الذهب والفضة اختص النهي بها دون سائر الأواني عن غيرهما، كذلك وجب أن يكون الربا المعلق عليهما مختصاً بهما وأن العلة فيهما غير متعددة إلى غيرهما.

أما الجواب على أن العلة القاصرة لا فائدة من استنباطها؛ لأن حكم الأصل ثبت بالنص أن هذا القول لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون إبطالاً لغير المتعدية. أو يكون علة لعدم الفائدة. وهو الظاهر من الاستدلال أو يكون إثباتاً لها علة وجعل غيرها إذا تعدت أولى منها، فإن كان هذا إبطالاً لغير المتعدية أن تكون علة نقول أن العلة أعلام نصبها الله تعالى للأحكام فربما أراد ببعضها التعدي فجعلها علماً عليه وربما أراد ببعضها الوقوف على حكم النص فجعلها علماً عليه فإن قيل أن القاصرة أي غير المتعدية غير مفيدة لثبوت الحكم بالنص فالجواب أنها مفيدة للعلم بأن حكمها مقصور عليها وأنها لا تتعدى إلى غيرها وهذه فائدة.

أما إن أثبتوا العلة القاصرة وجعلوا المتعدية أولى منها كان هذا مسلماً ما لم تبطل المتعدية بنقض أو معارضة. وقد أبطلنا تعليلهم بالوزن من وجهين ذكرهما الشافعي، ولولاهما لكان التعليل بالوزن أولى، أما الجواب عند قولهم بأن الاسم لما لم يكن علة لعدم تعديه فهذا رجوع إلى الكلام في إبطال العلة القاصرة، والاسم لا يجوز أن يكون علة؛ لأنه مستفاد قبل الاستنباط والعلة الواقعة مستفادة بعد الاستنباط، فجاز أن تكون علة مع عدم التعدي.

وأما الجواب عما ذكره من نقض علتنا في الطرد بالفلوس وفي العكس بالأواني فهو: أن علتنا سليمة من النقض في الطرد والعكس؛ لأنها جنس الأثمان غالباً، أما الفلوس فكونها ثمناً في بعض البلاد فنادر مسلم الطرد وأما العكس فلا ينتقض أيضاً بالأواني؛ لأننا قلنا جنس الأثمان والأواني من جنس الأثمان وإن لم تكن ثمناً فسلمت العلة من النقض في الطرد والعكس.

المبحث الخامس

النقود الورقية وعلاقتها بالأجناس الربوية

إذا نظرنا إلى الورق النقدي المعاصر نجد أن العلل التي جعلها الأئمة دليلاً على تحريم ربا البيوع في النقيدين الذهب والفضة لا تنطبق عليه فيما عدا المذهب الثالث المروي عن بعض المالكية ورواية عن أحمد اختارها ابن تيمية وابن القيم وهي مطلق الثمنية وهذا ينطبق على الورق النقدي باعتباره ثمناً للأشياء ووسيطاً للتبادل وله قوة إبراء الذمة مستمدة من القانون.

أما على مذهب الأحناف أن العلة هي الوزن، فلا تنطبق على الورق النقدي؛ لأنه لا يوزن، وكذلك هذه علة منقوضة برد الشافعية السابق عليها، وعلى مذهب الظاهرية ومن وافقهم الربا محصور فيما ذكر من الأحاديث ومنعوا القياس، ولذا يخرج الورق النقدي من كونه جنس ربوي، ونخلص من هذا أن غالب الفقهاء عدا القول غير المشهور عند المالكية ورواية عند أحمد أن الأوراق المالية ليست من الأجناس الربوية، وعلى هذا فيجوز بيع بعض ببعض متفاضلاً ونسيئة.

إلا أن المعاصرين من العلماء قد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً كثيراً في هذا الشأن بين مؤيد لكون الأوراق المالية جنس ربوي كالذهب والفضة؛ لأنها معياراً للأثمان وبين معارض لجريان تلك الأحكام عليها باعتبارها غير تامة النقدية لعدم وجود قيمة ذاتية فيها لكونها ورق بخلاف الذهب والفضة فإن قيمتها ذاتية بجانب كونها ثمن للأشياء وكذلك لا انتفاء علة الربا فيها عند جمهور الفقهاء.

أدلة المؤيدين لجريان الربا في الأوراق النقدية:

يؤيد هذا الرأي مذهب بعض المالكية في خلاف المشهور عندهم، وكذا رواية عند الإمام أحمد، من التعليل

أولاً: بمطلبي الثمنية:

وردوا فيه على الأحناف الذين ذهبوا أن العلة هي الوزن، وكذا على الشافعية في كون العلة القاصرة غير مفيدة، وقد سبق أن ناقشنا الرد على الأحناف وعلى حجية العلة القاصرة وفائدتها بما لا يستدعي الإعادة، ولكن يضاف إلى ذلك أن القائلين بهذا الرأي يخرجون السبائك والحلي المصوغ من الذهب والفضة من دائرة الربا لأنها ليست أثماناً^(١) ويخالفون في ذلك جمهور الفقهاء، الذين لا يرون أن للصنعة أثراً وأن الربا يقع في الذهب والفضة مضروبين أو غير مضروبين، حلياً أو آنية أو تبراً أو سبائك، وفي هذا مخالفة للإجماع، ونقضاً لعلة الثمنية فقط، حيث أنها تخلفت في الذهب والفضة حلياً مع بقاء الحكم بربوبيته إجماعاً.

ثانياً: التعليل بالحكمة

لأن الحكمة في النهي عن الربا في الذهب والفضة كونها ثمنًا للأشياء، ولذا فهما محل الظلم والعدوان، وأكل أموال الناس بالباطل، وهذا نفسه واقع في الأوراق المالية لكونها ثمنًا للأشياء ومحل للظلم والعدوان وأخذ أموال الناس بالباطل فضلاً عما يحدث للناس من اضطراب في معاشهم

(١) يرى الإمام ابن القيم عدم جريان الربا في الحلي المباح من الذهب والفضة راجع إعلام الموقعين ج ٤ ص

ومعاملاتهم بسبب التلاعب في ثمنية الأوراق المالية، ففي اعتبارها جنس ربوي دفعاً للمفاسد وجلباً للمصالح المنوطة بها من استقرار الأسعار ودفع الاضطراب والارتباك بالتلاعب فيها.

الرد على التعليل بالحكمة:

اختلف الأصوليون في جواز التعليل بالحكمة من عدمه على مذاهب ثلاثة: (١)

الأول: جواز التعليل بالحكمة مطلقاً وهم الأقلون.

الثاني: امتناع التعليل بالحكمة مطلقاً وعليه الأكثرون.

الثالث: التفصيل في ذلك: فإذا كانت الحكمة ظاهرة منضبطة جاز التعليل بها وإن كانت خفية مضطربة فلا يجوز التعليل بها.

فإذا جوزنا التعليل بالحكمة فإنها هنا في حالة الأوراق المالية ليست ظاهرة ولا منضبطة كما يدعي هذا الفريق للآتي:

الظلم والعدوان قد يكون واقع في أجناس أخرى من الأموال وليست ربوية بالإجماع حتى عند من ذهب مذهبكم كمبادلة أسلحة وذخائر ببتترول ومعادن، وكذلك الحكومات قد تلجأ لإغراق السوق بأوراق مالية دون زيادة فعلية في الإنتاج وذلك لهدف سياسي ما وفي هذا فائدة للحكومة وضرر بالناس لما يحدث من غلاء وارتفاع في الأسعار، ولكن لا نستطيع إغراق الأسواق بالذهب والفضة مثلاً، فاختلفاً في الحكم لاختلاف نظر الناس في الحكمة والمصلحة. ولذا فالحكمة هنا غير ظاهرة وغير منضبطة حتى عند

(١) أصول الفقه - الشيخ محمد أبو النور زهير - باب القياس

من أجاز التعليل بها فضلاً عما لم يجوز التعليل بالحكمة في الأصل، وكذلك لقد علمنا أن السلطات الحكومية قد تقوم أحياناً أو كثيراً بزيادة الإصدار النقدي لاعتبارات سياسية أو اقتصادية إما من قبيل الطيش أو التهور أو من قبيل الإجبار والضغط عليها بمشاكل لا قبل لها من قبل أعدائها، ويؤدي ذلك إلى التضخم وضياع حقوق الدائنين وإثراء المدينين لانخفاض القوة الشرائية للأموال بكثرة العرض منها مع قلة ما يقابله من إنتاج حقيقي فيؤدي إلى انتقال الثروة من فئة إلى فئة بغير وجه حق، مما يؤدي إلى الضغائن والأحقاد، ولذا فالتعليل بالحكمة منتقض من عدة وجوه؛ لأن القوانين التي يخضع لها النقد الورقي غير منضبطة بسياسة واضحة كما سبق الإشارة إلى ذلك.

مما سبق بيانه من مناقشات نخلص بأن الأوراق المالية بعد كونها ليس لها غطاء ذهبي ولا فضي ليست من الأجناس الربوية، وإنما هي تعامل معاملة عروض التجارة تجب فيها الزكاة كعروض التجارة سواء بسواء، ولا تجري عليها أحكام الربا، بحيث يجوز بيع بعضها ببعض من جنسها، أو من غير جنسها متفاضلاً ونسيئاً، أما إقراضها بفائدة فحرام لاندراجه تحت قاعدة كل قرض جر نفعاً فهو ربا ولأن ربا الجاهلية كان في القرض والدين يزداد فيه للأجل كما سبق بيانه في أول هذا البحث.

وكذلك يجوز التعامل بها في الأسواق الدولية، وغيرها في شراء الذهب والفضة نقداً ونسيئاً، بخلاف عقد الصرف؛ لأن الصرف كما سبق بيانه هو تغيير الذهب بالفضة أو العكس فيجوز فيه التفاضل ولا يجوز فيه النسيء أي الأجل.

والله أعلم والهادي لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه وهو المستعان وعليه البلاغ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله وتوفيقه

فهرس المحتويات

مقدمة	٥
مقدمة الشارح	١٢
الشيخ يسري رشدي السيد جبر الحسني	١٤
١ - مظاهر الخلافة المحمدية في الأكوان	٢٣
٢ - شرح رسالة التوحيد للشيخ أرسلان الدمشقي	٣٧
ترجمة الشيخ أرسلان الدمشقي	٣٩
متن رسالة التوحيد للشيخ أرسلان الدمشقي	٤١
شرح رسالة الشيخ أرسلان الدمشقي	٤٧
٣ - شرح الحزب الكبير حزب البرّ للعارف بالله أبي الحسن الشاذلي	١٠٣
العارف بالله أبو الحسن الشاذلي	١٠٥
الحزب الكبير (حزب البرّ) لسيد أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه	١١٥
مقدمة الشرح	١٢٥
الشرح	١٣٢
٤ - شرح مناجاة سيدي ابن عطاء الله السكندري	٣٧
العارف بالله ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه	١٨٩
مناجاة سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه	١٩٣

مقدمة الشرح	١٩٩
الشرح	٢٠٠
٥- شرح وتأصيل مفهوم الأصول السبعة للسيد أحمد الله الميج بهنداري البنجالي رَحِمَهُ اللهُ ...	٢٣١
٦- مسألة التوسل وجوازها وأدلتها من الكتاب والسنة	٢٤٥
٧- رسالة في هدم الأضرحة وما فعله السفهاء منا	٢٥٩
٨- قيمة الإنسان في الشرع الشريف	٢٧٥
٩- موقف العقل والهوى من الحق	٢٨٧
١٠- الأوراق المالية وعلاقتها بالأجناس الربوية وعقد الصرف	٣٠٥
فصل في تطور أشكال النقود	٣٠٩
المبحث الأول: معنى الربا	٣١٣
المبحث الثاني: أشهر أنواع الربا	٣١٨
المبحث الثالث: حكم الربا	٣٢٣
المبحث الرابع: الأموال الربوية الأجناس الربوية	٣٢٦
فصل	٣٣٣
المبحث الخامس: النقود الورقية وعلاقتها بالأجناس الربوية	٣٣٧
فهرس المحتويات	٣٤١